المجلد الرابع[1]

من

تيسير الكريم الرحمٰن

في

تفسير كلام الرب المنان

لجامعه الفقير إلى ربه

عبدالرحمٰن بن ناصر بن عبدالله السعدي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

آمين

(١) وكذا في الورقة الثانية من النسخة (ب). وفي الورقة الأولى: إملاء ما منَّ به المنان من تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى ربه المعيد المبدي عبد الرحمن بن ناصر السعدي عفا الله عنه.

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿آياتُ الكتاب المُبين﴾؛ أي: البيِّن الواضحة ألفاظه ومعانيه.

﴿٢﴾ ومن بيانه وإيضاحه أنَّه أنزله باللسان العربيِّ، أشرف الألسنة وأبينها، المبين لكلِّ ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة، وكلُّ هٰذا الإيضاح والتبيين ﴿لعلَّكم تعقِلون﴾؛ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه؛ فإذا عَقَلْتم ذٰلك بإيقانكم، واتَّصفت قلوبُكم بمعرفتها؛ أثمر ذٰلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و ﴿لعلَّكم تعقلون﴾؛ أي: تزداد عقولكم بتكرُّر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿٣﴾ ﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القصص﴾؛ وذٰلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورَوْنق معانيها، ﴿بما أوحَينا إليك هٰذا القرآن﴾؛ أي: بما اشتمل عليه هٰذا القرآن الذي أوحَيْناه إليك وفضَّلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محضُ منَّة من اللّه وإحسان. ﴿وإن كنتَ من قبلِهِ لمن الغافلين﴾؛ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي اللّه إليك، ولٰكنْ جَعَلْناه نوراً نهدي به مَن نشاءُ مِن عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هٰذا القرآن من القصص وأنها أحسن القصص على الإطلاق؛ فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هٰذا القرآن؛ ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة فقال:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

واعلم أن اللّه ذكر أنه يقصُّ على رسوله أحسن القصص في هٰذا الكتاب، ثم ذكر هٰذه القصة، وبسطها وذكر ما جرى فيها، فعلم بذٰلك أنها قصة تامَّة كاملة حسنةٌ؛ فمَنْ أراد أن يكمِّلَها أو يحسِّنها بما يُذكر في الإسرائيليات التي لا يُعْرَفُ لها سندٌ ولا ناقلٌ، وأغلبُها كَذِبٌ؛ فهو مستدرِكٌ على اللّه، ومكمِّلٌ لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبُك بأمر ينتهي إلى هٰذا الحدِّ قبحاً؛ فإنَّ تضاعيف هٰذه السورة قد مُلِئَتْ في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصَّه اللّه تعالى بشيء كثيرٍ؛ فعلى العبد أن يفهم عن اللّه ما قصَّه، ويدع ما سوى ذٰلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

﴿٤﴾ فقوله تعالى: ﴿إذ قال يوسُفُ لأبيه﴾: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ﴿يا أبتِ إنِّي رأيتُ أحد عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين﴾: فكانت هٰذه الرؤيا مقدِّمة لما وصل إليه يوسفُ عليه السلام من الارتفاع في الدُّنيا والآخرة، وهٰكذا إذا أراد اللّه أمراً من الأمور العظام؛ قدَّم بين يديه مقدِّمة توطئةً له وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يَرِدُ على العبد من المشاق، ولطفاً بعبده وإحساناً إليه فأوَّلَها يعقوب بأن الشمسَ أمُّه والقمرَ أبوه والكواكبَ إخوتُه، وأنَّه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ويسجُدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذٰلك لا يكون إلا بأسباب تتقدَّمه من اجتباء اللّه له واصطفائه له وإتمام نعمتِهِ عليه بالعلم والعمل والتمكين في الأرض، وأن هٰذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تَبَعاً له فيها.

﴿٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿وكذٰلك يَجتبيك ربُّك﴾؛ أي: يصطفيك ويختارك بما منَّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿ويعلِّمُكَ من تأويل الأحاديث﴾؛ أي: من تعبير الرؤيا وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية ونحوها، ﴿ويتمُّ نعمَته عليك﴾: في الدنيا والآخرة؛ بأنْ يُؤتيك في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، ﴿كما أتـمَّها على أبويك من قبلُ إبراهيم وإسحاق﴾: حيث

أنعم الله عليهما بنعم عظيمةٍ واسعةٍ دينيَّة ودنيويَّة. ﴿إنَّ ربَّك عليمٌ حكيمٌ﴾؛ أي: عِلمه محيطٌ بالأشياء وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البرِّ وغيره، فيعطي كلاً ما تقتضيه حكمته وحمده؛ فإنَّه حكيمٌ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿٥﴾ ولما تمَّ[1] تعبيرُها ليوسف؛ قال له أبوه: ﴿يا بنيَّ لا تَقْصُصْ رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾؛ أي: حسداً من عند أنفسهم؛ بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم. ﴿إنَّ الشيطانَ للإنسان عدوٌّ مبينٌ﴾: لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً ولا سرًّا ولا جهاراً؛ فالبعدُ عن الأسباب التي يتسلَّط بها على العبد أولى. فامتثل يوسفُ أمر أبيه، ولم يخبِرْ إخوته بذلك، بل كَتَمَها عنهم.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾.

﴿٧﴾ يقول تعالى: ﴿لقدْ كان في يوسُفَ وإخوتِهِ آياتٌ﴾؛ أي: عبر وأدلَّة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿للسائلين﴾؛ أي: لكلِّ من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإنَّ السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرِضون؛ فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص[2] والبيِّنات.

﴿٨﴾ ﴿إذ قالوا﴾: فيما بينهم: ﴿لَيوسُفُ وأخوه﴾: بنيامينُ؛ أي: شقيقه، وإلَّا فكلُّهم إخوةٌ، ﴿أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبةٌ﴾؛ أي: جماعة، فكيف يفضلهما [علينا] بالمحبة والشفقة. ﴿إنَّ أبانا لفي ضلال مبين﴾؛ أي: لفي خطأٍ بيِّن حيث فضَّلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿٩﴾ ﴿اقتُلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً﴾؛ أي: غيِّبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكَّن من رؤيته فيها؛ فإنكم إذا فعلتُم أحد هٰذين الأمرين؛ ﴿يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم﴾؛ أي: يتفرَّغ لكم، ويُقْبِلُ عليكم بالشفقة والمحبَّة؛ فإنَّه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرَّغ لكم. ﴿وتكونوا من بعده﴾؛ أي: من بعد هٰذا الصنيع قوماً صالحين؛ أي: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم، فقدَّموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم؛ تسهيلاً لفعله، وإزالةً لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

---

(١) في (ب): «بان».
(٢) في (ب): «في القصص».

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: ﴿قال قائلٌ﴾: من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿لا تقتُلوا يوسُفَ﴾: فإنَّ قتله أعظمُ إثماً وأشنعُ، والمقصود يحصُلُ بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولٰكن توصَّلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿في غيابةِ الجُبِّ﴾: وتتوعَّدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنَّه عبدٌ مملوك آبقٌ [منكم] لأجل أن يلتقِطَه ﴿بعضُ السيَّارة﴾: الذين يريدون مكاناً بعيداً فيحتفظون فيه، وهٰذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف وأبرُّهم وأتقاهم في هٰذه القضية؛ فإنَّ بعضَ الشرِّ أهونُ من بعض، والضرر الخفيف يُدفع به الضررُ الثقيل. فلما اتفقوا على هٰذا الرأي:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١١﴾ أي: قال إخوة يوسف متوصِّلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يا أبانا ما لكَ لا تأمَنَّا على يوسُفَ وإنَّا له لناصحونَ﴾؛ أي: لأيِّ شيءٍ يَدْخُلُكَ الخوفُ منَّا على يوسف من غير سبب ولا موجب، والحال أنَّا ﴿له لناصحونَ﴾؛ أي: مشفقون عليه نودُّ له ما نودُّ لأنفسنا.

وهٰذا يدلُّ على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسُفَ يذهب مع إخوته للبريَّة ونحوها.

﴿١٢﴾ فلما نَفَوا عن أنفسهم التُّهمة المانعة لعدم إرساله معهم؛ ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبُّه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أرسِلْه معنا غداً يَرْتَعْ ويلعبْ﴾؛ أي: يتنزَّه في البريَّة ويستأنس، ﴿وإنَّا له لحافظون﴾؛ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

﴿١٣﴾ فأجابهم بقوله: ﴿إنِّي ليحزُنُني أن تذهبوا به﴾؛ أي: مجرَّد ذهابكم به يحزنني ويشقُّ عليَّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة؛ فهٰذا مانع من إرساله.

﴿و﴾ مانعٌ ثانٍ، وهو أني ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾؛ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغيرٌ لا يمتنع من الذئب.

﴿١٤﴾ ﴿قالوا لئن أكلَهُ الذئبُ ونحن عصبةٌ﴾؛ أي: جماعة حريصون على حفظه؛ ﴿إنَّا إذاً لخاسرون﴾؛ أي: لا خير فينا ولا نفع يُرجى منَّا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهَّدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله وعدم الموانع؛ سَمَحَ حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: لما ذهب إخوةُ يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه، وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجبِّ كما قال قائلُهم السابقُ ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجبِّ، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة: ﴿لَتُنبِّئَنَّهم بأمرِهِم هٰذا وهم لا يشعُرونَ﴾؛ أي: سيكون منك معاتبة لهم وإخبارٌ عن أمرهم هٰذا وهم لا يشعرون بذٰلك الأمر. ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العزِّ والتمكين له في الأرض.

﴿١٦﴾ ﴿وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون﴾: ليكون إتيانُهم متأخِّراً عن عادتهم، وبكاؤهم دليلاً لهم وقرينة على صدقهم.

﴿١٧﴾ فقالوا متعذرين بعذرٍ كاذب: ﴿يا أبانا إنَّا ذهبنا نَسْتَبِقُ﴾: إما على الأقدام أو بالرمي والنضال، ﴿وتركْنا يوسف عند متاعنا﴾: توفيراً له وراحة، ﴿فأكله الذئبُ﴾: في حال غيبتنا عنه واستباقنا[1]. ﴿وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنَّا صادقينَ﴾؛ أي: تعذرنا بهٰذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا؛ لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقة الشديدة عليه، ولٰكن عدم تصديقك إيَّانا لا يمنعُنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي. وكلُّ هٰذا تأكيدٌ لعذرهم.

﴿١٨﴾ ﴿و﴾ مما أكَّدوا به قولهم أنهم: ﴿جاؤوا على قميصه بدم كذبٍ﴾:

---

(١) في (ب): «في استباقنا».

زعموا أنَّه دمُ يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدِّقْهم أبوهم بذٰلك، و ﴿قال بل سوَّلت لكم أنفسُكم أمراً﴾؛ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دلَّه على ما قال. ﴿فصبرٌ جميلٌ واللّه المستعانُ على ما تصفونَ﴾؛ أي: أمَّا أنا؛ فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هٰذه المحنة صبراً جميلاً سالماً من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين اللّه على ذٰلك لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر، وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿إنَّما أشكو بثِّي وحُزْني إلى اللّه﴾: لأنَّ الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ لأنَّ النبيَّ إذا وعد وفى.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: مكث يوسف في الجبِّ ما مكث، حتى ﴿جاءت سيَّارةٌ﴾؛ أي: قافلة تريد مصر، ﴿فأرسلوا وارِدَهم﴾؛ أي: فرطهم ومقدَّمهم الذي يعسُّ لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذٰلك، ﴿فأدلى﴾: ذٰلك الواردُ ﴿دَلْوَهُ﴾: فتعلَّق فيه يوسف عليه السلام وخرج، فقال: ﴿يا بُشرى هٰذا غلامٌ﴾؛ أي: استبشر وقال: هٰذا غلامٌ نفيسٌ، ﴿وأسَرُّوه بضاعةً﴾.

﴿٢٠﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتراه السيارةُ منهم ﴿بثمنٍ بخسٍ﴾؛ أي: قليل جدًّا، فسَّره بقوله: ﴿دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزَّاهدينَ﴾: لأنه لم يكن لهم قصدٌ إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصدٌ في أخذ ثمنه. والمعنى في هٰذا أنَّ السيارة لما وجدوه؛ عزموا أن يُسِرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته، فزعموا أنَّه عبدٌ أبق منهم، فاشتروه منهم بذٰلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهربَ. واللّه أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: لما ذهب به السيارةُ إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيزُ مصر، فلما اشتراه؛ أعجبَ به ووصَّى عليه امرأتَه وقال: ﴿أكرِمي مثواه عسى أن يَنفَعَنا أو نتَّخِذه

ولداً﴾؛ أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعلَّ ذٰلك أنَّه لم يكن لهما ولدٌ. ﴿وكذٰلك مكَّنَّا ليوسفَ في الأرض﴾؛ أي: كما يسَّرْنا أنْ يشتريَه عزيز مصر ويكرِمَه هٰذا الإكرام؛ جَعَلْنا هٰذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هٰذا الطريق. ﴿ولنُعَلِّمَهُ من تأويل الأحاديث﴾: إذا بقي لا شغل له ولا همَّ له سوى العلم؛ صار ذٰلك من أسباب تعلُّمه علماً كثيراً من علم الأحكام وعلم التعبير وغير ذٰلك. ﴿واللّه غالبٌ على أمرِهِ﴾؛ أي: أمره تعالى نافذٌ لا يبطله مبطلٌ ولا يغلبه مغالبٌ. ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾: فلذٰلك يجري منهم، ويصدُرُ ما يصدُرُ في مغالبة أحكام اللّه القدريَّة، وهم أعجز وأضعف من ذٰلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: ﴿لما بلغ﴾ يوسف ﴿أشُدَّه﴾؛ أي: كمال قوته المعنويَّة والحسيَّة وصَلَحَ لأن يتحمَّل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة؛ ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾؛ أي: جعلناه نبيًّا رسولاً وعالماً ربانيًّا. ﴿وكذٰلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة الخالق ببذل الجهد والنُّصح فيها، وإلى عباد اللّه ببذل النفع والإحسان إليهم؛ نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علماً نافعاً. ودلَّ هٰذا على أن يوسف وَفَّى مقام الإحسان، فأعطاه اللّه الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ
رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ
وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن
يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾
يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

هٰذه المحنة العظيمة أعظمُ على يوسفَ من محنة إخوته وصبره عليها، أعظمُ أجراً لأنه صبرُ اختيارٍ مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدَّم محبَّة اللّه عليها، وأمّا محنته بإخوته؛ فصبره صبر اضطرار؛ بمنزلة الأمراض والمكاره التي

تُصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلَّا الصبر عليها طائعاً أو كارهاً.

﴿٢٣ ـ ٢٤﴾ وذٰلك أنَّ يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرَّماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذٰلك أن ﴿راوَدَتْه التي هو في بيتها عن نفسه﴾؛ أي: هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحدٌ يتيسَّر إيقاع الأمر المكروه من غير شعور[1] أحدٍ ولا إحساس بشرٍ. ﴿و﴾ زادتِ المصيبةُ بأن ﴿غَلَّقَتِ الأبوابَ﴾: وصار المحلُّ خالياً، وهما آمنان من دخول أحدٍ عليهما بسبب تغليق الأبواب. وقد دعتْه إلى نفسها، فقالتْ: ﴿هَيتَ لك﴾؛ أي: افعل الأمر المكروه وأقبلْ إليَّ! ومع هٰذا؛ فهو غريبٌ لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسيرٌ تحت يدها، وهي سيدتُه، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شابٌّ عَزَبٌ، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم، فصبر عن معصية اللّه مع وجود الداعي القويِّ فيه؛ لأنَّه قد همَّ فيها همًّا تَرَكَهُ للّه، وقدَّم مراد اللّه على مراد النفس الأمَّارة بالسوء، ورأى من برهان ربِّه ـ وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لِتَرْكِ كلِّ ما حرَّم اللّه ـ ما أوجب له البعد والانكفاف عن هٰذه المعصية الكبيرة، و ﴿قال معاذَ اللّه﴾؛ أي: أعوذ باللّه أن أفعل هٰذا الفعلَ القبيح؛ لأنَّه مما يُسْخِطُ اللّه ويُبْعِدُ عنه، ولأنَّه خيانةٌ في حقِّ سيِّدي الذي أكرم مثواي؛ فلا يَليقُ بي أن أقابِلَه في أهله بأقبح مقابلة، وهٰذا من أعظم الظُّلم، والظالم لا يفلحُ.

والحاصل أنَّه جعل الموانع له من هٰذا الفعل: تَقْوى اللّه، ومراعاة حقِّ سيِّده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظُّلم الذي لا يفلح مَن تعاطاه، وكذٰلك ما منَّ اللّه عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثالَ الأوامر واجتنابَ الزواجر، والجامعُ لذٰلك كلِّه أنَّ اللّه صرف عنه السوءَ والفحشاءَ؛ لأنَّه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم اللّه واختارهم واختصَّهم لنفسه، وأسدى عليهم من النِّعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه.

﴿٢٥﴾ ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة؛ ذهب ليهربَ منها ويبادِرَ إلى الخروج من الباب ليتخلَّص ويهرب من الفتنة، فبادرتْه إليه وتعلَّقت بثوبِهِ، فشقَّت قميصَه، فلمَّا وصلا إلى الباب في تلك الحال؛ ألْفَيا سيِّدَها ـ أي:

---

(١) في (ب): «إشعار».

زوجها ـ لدى الباب، فرأى أمراً شقَّ عليه، فبادرتْ إلى الكذب، وأن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿ما جزاءُ مَنْ أراد بأهلك سوءاً﴾: ولم تقلْ: من فعل بأهلك سوءاً؛ تبرئةً لها وتبرئةً له أيضاً من الفعل، وإنما النِّزاع عند الإرادة والمراودة، ﴿إلَّا أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم﴾؛ أي: أو يعذَّب عذاباً أليماً.

﴿٢٦﴾ فبرَّأ نفسه مما رمته به، و ﴿قال هي راوَدَتْني عن نفسي﴾: فحينئذٍ احتملتِ الحالُ صدقَ كلٍّ واحد منهما، ولم يعلم أيهما، ولٰكنَّ اللّه تعالى جعل للحقِّ والصدق علاماتٍ وأماراتٍ تدلُّ عليه، قد يعلَمُها العبادُ وقد لا يعلمونَها؛ فمنَّ اللّه [تعالى] في هٰذه القضية بمعرفة الصادق منهما تبرئةً لنبيِّه وصفيِّه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهدُ بقرينةٍ مَنْ وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إن كان قميصُهُ قُدَّ من قُبُل فصَدَقَتْ وهو من الكاذبين﴾؛ لأن ذٰلك يدلُّ على أنه هو المقبل عليها المراوِدُ لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقَّت قميصه من هٰذا الجانب.

﴿٢٧﴾ ﴿وإن كان قميصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فكذبتْ وهو من الصادقين﴾: لأنَّ ذٰلك يدلُّ على هروبه منها؛ وأنَّها هي التي طلبتْه، فشقَّت قميصَه من هٰذا الجانب.

﴿٢٨﴾ ﴿فلما رأى قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ﴾: عَرَفَ بذٰلك صدق يوسف وبراءته وأنَّها هي الكاذبة، فقال لها سيدها: ﴿إنَّه مِن كيدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عظيمٌ﴾: وهل أعظم من هٰذا الكيد الذي برَّأت به نفسها ممَّا أرادتْ وفعلتْ ورمتْ به نبيَّ اللّه يوسف عليه السلام؟!

﴿٢٩﴾ ثم إنَّ سيدَها لما تحقَّق الأمر؛ قال ليوسف: ﴿يوسُفُ أعرِضْ عن هٰذا﴾؛ أي: اترك الكلام فيه وتناسَهُ ولا تذكُره لأحدٍ طلباً للستر على أهله. ﴿واستغفِري﴾: أيتها المرأة، ﴿لذنبِكِ إنَّك كنتِ من الخاطئين﴾: فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفارِ والتوبة.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا

تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣٠﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدَّث به النسوة، فجعلن يَلُمْنها ويقُلْنَ: ﴿امرأةُ العزيز تراوِدُ فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا﴾؛ أي: هٰذا أمرٌ مستقبَحٌ! هي امرأةٌ كبيرةُ القدر وزوجها كبيرُ القدر ومع هٰذا لم تزلْ تراوِدُ فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هٰذا؛ فإنَّ حبَّه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً. ﴿قد شَغَفَها حبًّا﴾؛ أي: وصل حبُّه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهٰذا أعظم ما يكون من الحب. ﴿إنَّا لنراها في ضلال مبينٍ﴾: حيث وجدت منها هٰذه الحالة التي لا ينبغي منها، وهي حالةٌ تحطُّ قدرها وتضعه عند الناس.

﴿٣١﴾ وكان هٰذا القول منهنَّ مكراً ليس المقصودُ به مجردَ اللَّوم لها والقدح فيها، وإنَّما أرَدْنَ أن يتوصَّلْن بهٰذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فُتِنَتْ به امرأة العزيز لتَحْنَقَ امرأةُ العزيز وتريهنَّ إيَّاه ليعذِرْنها، ولهٰذا سمَّاه مكراً، فقال: ﴿فلما سمعتْ بمكرِهِنَّ أرسلت إليهنَّ﴾: تدعوهنَّ إلى منزلها للضيافة، ﴿وأعتدتْ لهن متَّكأ﴾؛ أي: محلاً مهيئاً بأنواع الفرش والوسائد وما يُقصد بذٰلك من المآكل اللَّذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة طعامٌ يحتاجُ إلى سكينٍ: إمَّا أُترجٌ أو غيره. ﴿وآتت[1] كلَّ واحدة منهنَّ سكِّيناً﴾: ليقطِّعْن فيها ذٰلك الطعامَ، ﴿وقالتْ﴾ ليوسفَ: ﴿اخرجْ عليهنَّ[2]﴾: في حالة جماله وبهائه، ﴿فلما رأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ﴾؛ أي: أعظمنه في صدورهنَّ ورأين منظراً فائقاً لم يشاهِدْنَ مثله؛ ﴿وقطَّعْن﴾: من الدَّهَش ﴿أيدِيَهُنَّ﴾: بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وقلْنَ حاش للّه﴾؛ أي: تنزيهاً للّه، ﴿ما هٰذا بشراً إنْ هٰذا إلَّا مَلَكٌ كريمٌ﴾: وذٰلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آيةً للناظرين وعبرةً للمتأملين.

﴿٣٢﴾ فلما تقرَّر عندهنَّ جمالُ يوسف الظاهر، وأعجبهنَّ غايةً، وظهر منهنَّ من العذر لامرأة العزيز شيءٌ كثيرٌ؛ أرادت أن تُرِيَهُنَّ جماله الباطن بالعفة التامَّة، فقالت معلنة لذٰلك ومبيِّنة لحبِّه الشديد غير مبالية ولأن اللَّوم انقطع عنها من النسوة: ﴿ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصمَ﴾؛ أي: امتنع، وهي مقيمة على مراودته، لم

(١) في (ب): «فآتت». (٢) في (ب): «إليهنّ».

تزدها مرور الأوقات إلَّا محبَّةً وشوقاً وقلقاً لوصاله وتوقاً، ولهٰذا قالت له بحضرتهنَّ: ﴿ولئن لم يفعلْ ما آمرُهُ ليسجننَّ وليكونًا من الصَّاغرينَ﴾: لتلجِئَه بهٰذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه.

﴿٣٣﴾ فعند ذٰلك اعتصم يوسف بربِّه، واستعان به على كيدهِنَّ و ﴿قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾: وهٰذا يدلُّ على أن النسوة جعلن يُشِرْن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يَكِدْنَه في ذٰلك، فاستحبَّ السجن والعذاب الدنيويَّ على لذَّة حاضرة توجب العذاب الشديد. ﴿وإلَّا تصرِفْ عنِّي كيدَهُنَّ أصبُ إليهنَّ﴾؛ أي: أَمِلْ إليهنَّ؛ فإني ضعيفٌ عاجز إن لم تدفعْ عنِّي السوء؛ صبوتُ إليهنَّ، ﴿وأكن من الجاهلينَ﴾[1]: فإنَّ هٰذا جهلٌ؛ لأنَّه آثر لذَّة قليلة منغَّصة على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومَنْ آثر هٰذا على هٰذا؛ فمن أجهلُ منه؟! فإنَّ العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذَّتين، ويؤثِرُ ما كان محمودَ العاقبة.

﴿٣٤﴾ ﴿فاستجابَ له ربُّه﴾: حين دعاه، ﴿فصرف عنه كَيدَهُنَّ﴾: فلم تزلْ تراوِدُه وتستعين عليه بما تقدِرُ عليه من الوسائل حتى أيَّسَها وصَرَفَ اللّٰه عنه كيدها. ﴿إنَّه هو السميع﴾: لدعاء الداعي، ﴿العليمُ﴾: بنيَّته الصالحة وبنيَّته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجَّى اللّٰهُ به يوسفَ من هٰذه الفتنة الملمَّة والمحنة الشديدة.

﴿٣٥﴾ وأما أسيادُه؛ فإنَّه لما اشتهر الخبر وبان وصار الناس فيها بين عاذرٍ ولائم وقادح، ﴿بدا لهم﴾؛ أي: ظهر لهم ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾: الدالَّة على براءته، ﴿ليَسْجُنُنَّه حتى حين﴾؛ أي: لينقطع بذٰلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإنَّ الشيء إذا شاع؛ لم يزلْ يذكر، ويشاع مع وجود أسبابه؛ فإذا عدمت أسبابه؛ نُسِي، فرأوا أنَّ هٰذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ

---

(١) في (ب): «﴿وأكن﴾ إن صبوت إليهن ﴿من الجاهلين﴾».

مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ] ﴿٤١﴾[(١)]﴾.

﴿٣٦﴾ أي: ﴿و﴾ لما دخل يوسف السجن؛ كان في جملة من ﴿دخل معه السجنَ فتيانِ﴾؛ أي: شابان، فرأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا، فقصَّها على يوسف ليعبرها، ﴿قال أحدُهما إني أراني أعصِرُ خمراً، وقال الآخرُ إنِّي أراني أحمل فوقَ رأسي خبزاً﴾: وذٰلك الخبز ﴿تأكُلُ الطيرُ منه نبِّئْنا بتأويلِهِ﴾؛ أي: بتفسيره وما يؤول إليه أمرهما. وقولهما: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾؛ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق؛ فأحسِنْ إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنتَ إلى غيرنا، فتوسَّلا ليوسف بإحسانه.

﴿٣٧﴾ فَـ﴿قالَ﴾ لهما مجيباً لطلبهما[(٢)]: ﴿لا يأتِيكما طعامٌ ترزقانِهِ إلَّا نبأتُكما بتأويله قبلَ أن يأتيكما﴾؛ أي: فلتطمئنَّ قلوبُكما فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما؛ إلَّا نبأتُكما بتأويله قبل أن يأتِيكما، ولعلَّ يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هٰذه الحال التي بَدَتْ حاجتُهما إليه؛ ليكون أنجعَ لدعوته وأقبل لهما. ثم قال: ﴿ذٰلِكما﴾: التعبير الذي سأعبره لكما، ﴿مما علَّمني ربي﴾؛ أي: هٰذا من علم الله علَّمنيه وأحسن إليَّ به. وذٰلك ﴿إنّي تركتُ مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرونَ﴾: والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخُلْ فيه أصلاً؛ فلا يُقال: إنَّ يوسف كان من قبلُ على غير ملَّة إبراهيم.

﴿٣٨﴾ ﴿واتَّبعت مِلَّةَ آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ﴾: ثم فسَّر تلك الملة

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «لطلبتهما».

بقوله: ﴿ما كان لنا﴾؛ [أي: ما ينبغي ولا يليق بنا] ﴿أن نُشْرِكَ باللّه من شيءٍ﴾: بل نُفرِدُ اللّه بالتوحيد ونُخْلِصُ له الدين والعبادة. ﴿ذٰلك من فضل اللّه علينا وعلى الناس﴾؛ أي: هٰذا من أفضل [مننِه][1] وإحسانه وفضله علينا وعلى مَنْ هداه اللّه كما هدانا؛ فإنَّه لا أفضل من منَّة اللّه على العباد بالإسلام والدين القويم؛ فمن قبله وانقاد له؛ فهو حظُّه، وقد حصل له أكبر النعم وأجلُّ الفضائل. ﴿ولكنَّ أكثرَ الناس لا يشكرونَ﴾: فلذٰلك تأتيهم المنَّة والإحسان فلا يقبلونَها ولا يقومون للّه بحقِّه. وفي هٰذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى؛ فإنَّ الفتيين لما تقرَّر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال وأنه محسنٌ معلِّم؛ ذكر لهما أنَّ هٰذه الحالة التي أنا عليها كلّها من فضل اللّه وإحسانه، حيث منَّ عليَّ بترك الشرك وباتباع ملة آبائي[2]؛ فبهٰذا وصلتُ إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تَسْلُكا ما سلكتُ.

﴿٣٩﴾ ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿يا صاحبي السجنِ أأربابٌ متفرِّقونَ خيرٌ أم اللّه الواحد القهار﴾؛ أي: أأربابٌ عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعطي ولا تمنع وهي متفرِّقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات وغير ذٰلك من أنواع المعبودات التي يتَّخذها المشركون، أتلك خيرٌ أم اللّه الذي له صفات الكمال الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله؟ فلا شريكَ له في شيء من ذٰلك، القهَّار الذي انقادت الأشياء لقهرِهِ وسلطانِهِ؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكنْ، ما من دابَّة إلَّا هو آخذٌ بناصيتها.

﴿٤٠﴾ ومن المعلوم أنَّ مَن هٰذا شأنه ووصفه خيرٌ من الآلهة المتفرِّقة التي هي مجرَّد أسماء لا كمال لها ولا فعال لديها، ولهٰذا قال: ﴿ما تعبُدون من دونِهِ إلَّا أسماءً سمَّيْتُموها أنتم وآباؤكم﴾؛ أي: كسوتُموها أسماءً [و] سمَّيتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهيَّة شيء. ﴿ما أنزل اللّه بها من سلطانٍ﴾: بل أنزل اللّه السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم يُنْزِلِ اللّه بها سلطاناً؛ لم يكنْ طريقٌ ولا وسيلةٌ ولا دليلٌ لها. لأن الحكمَ ﴿للّه﴾: وحدَه؛ فهو الذي يأمُرُ وينهى ويشرِّعُ الشرائع ويسنُّ الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿أن لا تعبُدوا إلَّا إيَّاه ذٰلك الدين القيِّمُ﴾؛ أي: المستقيم الموصل إلى كلِّ خير، وما سواه من الأديان؛ فإنَّها غير مستقيمة، بل معوجَّة توصل إلى كلِّ شرٍّ. ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ﴾:

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «منته».
(٢) في (ب): «آبائه».

حقائق الأشياء، وإلَّا؛ فإنَّ الفرق بين عبادة اللّٰه وحده لا شريك له وبين الشرك به أظهر الأشياء وأبينها، ولٰكن لعدم العلم من أكثر الناس بذٰلك حَصَلَ منهم ما حصل من الشرك. فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجنِ لعبادة اللّٰه وحده وإخلاص الدِّين له، فيُحتمل أنهما استجابا وانقادا فتمَّت عليهما النعمة، ويُحتمل أنَّهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما بذٰلك الحجة.

﴿٤١﴾ ثم إنه عليه السلام شَرَعَ يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذٰلك، فقال: ﴿يا صاحبي السجن أما أحَدُكُما﴾: وهو الذي رأى أنه يعصِرُ خمراً؛ فإنَّه يخرج من السجن، ويسقي ﴿ربَّه خمراً﴾؛ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمراً، وذٰلك مستلزم لخروجه من السجن. ﴿وأما الآخر﴾: وهو الذي رأى أنَّه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ﴿فيُصْلَبُ فتأكلُ الطير من رأسه﴾: فإنَّه عبر عن الخبز[1] الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المخِّ، وأنَّه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يُصلب ويُجعل في محلٍّ تتمكَّن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأنَّ هٰذا التأويل الذي تأوَّله لهما أنَّه لا بدَّ من وقوعه، فقال: ﴿قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان﴾؛ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ أي: ﴿وقال﴾ يوسفُ عليه السلام ﴿للذي ظنَّ أنَّه ناج منهما﴾: وهو الذي رأى أنه يعصِرُ خمراً: ﴿اذْكُرْني عند ربِّك﴾؛ أي: اذكر له شأني وقصَّتي لعله يَرِقُّ لي فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربِّه﴾؛ أي: فأنسى الشيطان ذٰلك الناجي ذكر اللّٰه تعالى وذكر ما يُقَرِّبُ إليه ومن جملة ذٰلك نسيانه ذِكْرَ يوسف الذي يستحقُّ أن يُجازى بأتمِّ الإحسان، وذٰلك ليتمَّ اللّٰه أمره وقضاءه. ﴿فلَبِثَ في السجن بضعَ سنين﴾: والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهٰذا قيل: إنه لبث سبع سنين.

ولما أراد اللّٰه أن يُتِمَّ أمره ويأذن بإخراج يوسف من السجن؛ قدَّر لذٰلك سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قَدْره وهو رؤيا الملك.

---

(١) في (ب): «عبر الخبزَ».

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

لـمَّا أراد الله تعالى أن يخرِجَ يوسف من السجن؛ أرى الله الملكَ هٰذه الرؤيا العجيبة التي تأويلها يتناولُ جميع الأمّة؛ ليكونَ تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله ويبين من علمه ما يكون له رفعةً في الدارين. ومن التقادير المناسبة أنَّ الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها؛ لارتباط مصالحها به، وذٰلك أنَّه رأى رؤيا هالته، فجمع علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال:

﴿٤٣﴾ ﴿إني أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكُلُهنَّ سبعٌ﴾؛ أي: سبعٌ من البقرات ﴿عجافٌ﴾: وهٰذا من العجب أنَّ السبع العجافَ الهزيلات اللاتي سقطتْ قوَّتُهن يأكُلنَ السبع السمان التي كنَّ نهايةً في القوة. ﴿و﴾ رأيتُ ﴿سبعَ سُنْبُلاتٍ خضرٍ﴾ يأكلهن سبعُ سنبلاتٍ يابساتٍ؛ ﴿يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤيايَ﴾: لأنَّ تعبير الجميع واحدٌ وتأويلهنَّ شيءٌ واحدٌ، ﴿إن كنتُم للرؤيا تَعبُرون﴾.

﴿٤٤﴾ فتحيَّروا ولم يعرفوا لها وجهاً؛ ﴿وقالوا أضغاثُ أحلامٍ﴾؛ أي: أحلام لا حاصلَ لها ولا لها تأويلٌ. وهٰذا جزمٌ منهم بما لا يعلمون وتعذُّرٌ منهم بما ليس بعذرٍ. ثم قالوا: ﴿وما نحنُ بتأويل الأحلام بعالِمينَ﴾؛ أي: لا نَعْبُرُ إلا الرؤيا وأمَّا الأحلام التي هي من الشيطان أو من حديث النفس فإنَّا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام والإعجاب بالنفس بحيثُ إنَّهم لم يقولوا: لا نعلمُ تأويلها! وهٰذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحِجا. وهٰذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام؛ فإنَّه لو عَبَرَها ابتداءً قبل أن يعرِضَها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها؛ لم يكنْ لها ذٰلك الموقع، ولٰكن لما عرضها عليهم، فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًّا لها غايةً، فعبرها يوسفُ؛ وقعتْ عندهم موقعاً عظيماً.

وهٰذا نظيرُ إظهار اللّه فضلَ آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم فعلَّمهم أسماء كلِّ شيءٍ، فحصل بذٰلك زيادة فضله. وكما يُظْهِرُ فضلَ أفضل خلقِهِ محمدٍ ﷺ في القيامة أن يُلْهِمَ اللّهُ الخلقَ أن يتشفَّعوا بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذِرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها»[1]، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذٰلك المقامَ المحمودَ الذي يغبِطُه به الأولون والآخرون؛ فسبحان من خَفِيَتْ ألطافه ودقَّت في إيصاله البر والإحسان إلى خواصِّ أصفيائه وأوليائه.

﴿٤٥﴾ ﴿وقال الذي نجا منهما﴾؛ أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أنَّه يعصِرُ خمراً، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكُرَه عند ربِّه، ﴿وادَّكَرَ بعد أُمَّةٍ﴾؛ أي: وتذكَّر يوسف وما جرى له في تعبيره لرؤياهما وما وصَّاه به وعلم أنه كفيلٌ بتعبير هٰذه الرؤيا بعد مدَّةٍ من السنين، فقال: ﴿أنَا أنبِّئكم بتأويلِهِ فأرسلونِ﴾: إلى يوسفَ لأسأله عنها.

﴿٤٦﴾ فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنِّفْه يوسفُ على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذٰلك، فقال: ﴿يوسفُ أيُّها الصديقُ﴾؛ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أفْتِنا في سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخَرَ يابساتٍ لعلِّي أرجِعُ إلى الناس لعلَّهم يعلمونَ﴾: فإنَّهم متشوِّفون لتعبيرها، وقد أهمَّتْهم.

﴿٤٧﴾ فعبر يوسفُ السبعَ البقراتِ السمانَ والسبعَ السنبلاتِ الخضر بأنهنَّ سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابساتِ بأنَّهنَّ سنين مجدباتٌ، ولعلَّ وجهَ ذٰلك ـ واللّه أعلم ـ أنَّ الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيًّا عليه، وأنَّه إذا حصل الخصبُ؛ قويتِ الزروع والحروثُ وحَسُنَ منظرُها وكثُرت غلالها، والجدب بالعكس من ذٰلك، وكانت البقر هي التي تُحرث عليها الأرض وتُسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلاتُ هي أعظم الأقوات وأفضلها؛ عبرها بذٰلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ويستعدُّون به من التدبير في سني الخصب إلى سني الجَدْب، فقال: ﴿تزرعونَ سبعَ سنينَ دأباً﴾؛ أي: متتابعاتٍ، ﴿فما حصدتُم﴾: من تلك الزروع، ﴿فذَروه﴾؛ أي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٣).

اتركوه ﴿في سُنبُلِهِ﴾: لأنَّه أبقى له وأبعد من[1] الالتفات إليه، ﴿إلَّا قليلاً مما تأكلون﴾؛ أي: دبِّروا [أيضًا] أكلكم في هٰذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً؛ ليكثر ما تدَّخرون، ويعظُم نفعُه ووقعه.

﴿٤٨﴾ ﴿ثم يأتي من بعد ذٰلك﴾؛ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سبعٌ شِدادٌ﴾؛ أي: مجدباتٌ، ﴿يأكُلن ما قدَّمتم لهنَّ﴾؛ أي: يأكلن جميع ما ادَّخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿إلَّا قليلاً مما تُحصِنونَ﴾؛ أي: تمنعونه من التقديم لهنَّ.

﴿٤٩﴾ ﴿ثم يأتي من بعد ذٰلك﴾؛ أي: السبع الشداد ﴿عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصِرونَ﴾؛ أي: فيه تكثُر الأمطار والسيول، وتكثُر الغلاتُ، وتزيد على أقواتهم حتَّى إنَّهم يعصِرون العنب ونحوه زيادةً على أكلهم، ولعلَّ استدلاله على وجودِ هٰذا العام الخصب مع أنه غير مصرَّح به في رؤيا الملك؛ لأنَّه فهم من [التقدير][2] بالسبع الشِّداد أنَّ العام الذي يليها يزولُ به شدَّتُها، ومن المعلوم أنَّه لا يزولُ الجَدْبُ المستمرُّ سبع سنين متوالياتٍ إلا بعام مُخْصِبٍ جدًّا، وإلَّا؛ لَما كان للتقدير فائدة.

فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذٰلك، وفرِحوا بها أشدَّ الفرح.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى
قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ
لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ
نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ
أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ
إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن
نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) في (ب): «عن».

(٢) كذا في (ب) وفي (أ): «التعبير».

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿وقال المَلِكُ﴾ لمن عنده: ﴿ائتوني به﴾؛ أي: بيوسف عليه السلام بأن يخرِجوه من السجن ويحضِروه إليه. فلمَّا جاء يوسفَ الرسولُ، وأمره بالحضور عند الملك؛ امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتَّى تتبيَّن براءتُه التامَّةُ، وهٰذا من صبره وعقله ورأيه التامِّ، فقال للرسولِ: ﴿ارجعْ إلى ربِّك﴾؛ يعني به: الملك، ﴿فاسْأله ما بالُ النسوةِ اللاتي قطَّعْن أيدِيَهُنَّ﴾؛ أي: اسأله ما شأنهن وقصتهن؛ فإنَّ أمرهن ظاهرٌ متَّضح. ﴿إنَّ ربِّي بكيدِهِنَّ عليمٌ﴾.

﴿٥١﴾ فأحضرهنَّ الملك وقال: ﴿ما خطبُكُنَّ﴾؛ أي: شأنكن، ﴿إذ راودتُنَّ يوسفَ عن نفسِهِ﴾: فهل رأيتُن منه ما يريب؟! فبرَّأنه و﴿قلن حاشَ للّه ما علِمْنا عليه من سوءٍ﴾؛ أي: لا قليل ولا كثير؛ فحينئذ زال السببُ الذي تُبْنَى عليه التُّهمة، ولم يبقَ إلَّا ما عند امرأة العزيز، فقالتِ ﴿امرأة العزيز الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ﴾؛ أي: تمحَّص[1] وتبيَّن بعدما كنَّا نُدْخِل معه من السوء والتُّهمة ما أوجب السجن ليوسف[2]، ﴿أنا راودتُه عن نفسِهِ وإنَّه لمن الصادقينَ﴾: في أقواله وبراءته.

﴿٥٢﴾ ﴿ذٰلك﴾: الإقرارُ الذي أقررتُ أني راودتُ يوسفَ[3]، ﴿ليعلم أني لم أخُنْهُ بالغيبِ﴾: يُحتمل أنَّ مرادها بذٰلك زوجها؛ أي: ليعلم أني حين أقررتُ أني راودتُ يوسف أنِّي لم أخُنْهُ بالغيبِ؛ أي: لم يَجْرِ منِّي إلَّا مجرَّد المراودة، ولم أفسِدْ عليه فراشه. ويُحتمل أنَّ المراد بذٰلك: ليعلم يوسفُ حين أقررتُ أنِّي أنا الذي راودتُه، وأنَّه صادقٌ أني لم أخُنه في حال غيبته عنِّي. ﴿وأنَّ اللّه لا يَهْدي كيد الخائنين﴾: فإنَّ كلَّ خائنٍ لا بدَّ أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بدَّ أن يتبيَّن أمره.

﴿٥٣﴾ ثم لما كان في هٰذا الكلام نوعُ تزكيةٍ لنفسها وأنه لم يجر منها ذنبٌ في شأن يوسف استدركت فقالت: ﴿وما أُبَرِّىءُ نَفْسِي﴾؛ أي: من المراودة والهمِّ والحرص الشديد والكيد في ذٰلك. ﴿إنَّ النفس لأمارةٌ بالسوءِ﴾؛ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب؛ فإنَّها مركَبُ الشيطان، ومنها يدخُلُ على الإنسان. ﴿إلَّا ما رَحِمَ ربي﴾: فنجَّاه من نفسه الأمَّارة حتى صارت نفسُهُ مطمئنةً إلى ربِّها منقادة لداعي الهدى متعاصية عن داعي الرَّدى؛ فذٰلك ليس من

---

(١) في (ب): «تمحض». (٢) في (ب): «السجن يوسف».

(٣) في (ب): «ذلك الإقرار الذي أقررت ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب».

النفس، بل من فضل اللّه ورحمته بعبده. ﴿إنَّ ربِّي غفورٌ رحيم﴾؛ أي: هو غفور لمن تجرَّأ على الذُّنوب والمعاصي إذا تاب وأناب، رحيمٌ بقَبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة.

وهٰذا هو الصوابُ أنَّ هٰذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسُفَ؛ فإنَّ السياق في كلامها، ويوسُفُ إذ ذاك في السجن لم يحضُرْ.

﴿٥٤﴾ فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامَّة؛ أرسل إليه الملك، وقال: ﴿ائتوني به أستَخلِصْه لنفسي﴾؛ أي: أجعله خصيصة لي ومقرَّباً لديَّ. فأتوه به مكرماً محترماً، ﴿فلمَّا كلَّمه﴾؛ أعجبه كلامه، وزاد موقعُه عنده، فقال له: ﴿إنَّك اليوم لدينا﴾؛ أي: عندنا ﴿مكينٌ أمينٌ﴾؛ أي: متمكِّن أمينٌ على الأسرار.

﴿٥٥﴾ فقال يوسف طلباً للمصلحة العامة: ﴿اجعلْني على خزائن الأرض﴾؛ أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالها وكيلاً حافظاً مدبِّراً. ﴿إنِّي حفيظٌ عليمٌ﴾؛ أي: حفيظ للَّذي أتولَّاه؛ فلا يضيعُ منه شيءٌ في غير محلِّه، وضابطٌ للداخل والخارج، عليمٌ بكيفيَّة التدبير والإعطاء والمنع والتصرُّف في جميع أنواع التصرُّفات. وليس ذٰلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبةٌ منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه؛ فلذٰلك طلب من الملك أن يجعلَه على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولَّاه إيَّاها.

﴿٥٦ ـ ٥٧﴾ قال تعالى: ﴿وكذٰلك﴾؛ أي: بهٰذه الأسباب والمقدِّمات المذكورة، ﴿مَكَّنَّا ليوسفَ في الأرض يتبوَّأ منها حيثُ يشاء﴾: في عيش رغدٍ ونعمة واسعةٍ وجاه عريض، ﴿نصيبُ برحمتنا مَن نشاءُ﴾؛ أي: هٰذا من رحمة اللّه بيوسف التي أصابه بها وقدَّرها له، وليست مقصورةً على نعمة الدنيا. فإن اللّه لا يضيعُ أجر المحسنينَ، ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين؛ فله في الدُّنيا حسنةٌ وفي الآخرة حسنةٌ، ولهٰذا قال: ﴿ولأجرُ الآخرة خيرٌ﴾ ـ من أجر الدُّنيا ـ ﴿للذين آمنوا وكانوا يتَّقونَ﴾؛ أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان؛ فبالتَّقوى تُترَكُ الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التامِّ يحصُلُ تصديق القلب بما أمر اللّه بالتصديق به وتتبعُهُ أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبَّات.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ

قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ
فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ
ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا
رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ
وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا
نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ
يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ
فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟
مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

أي: لما تولَّى يوسف عليه السلام خزائن الأرض؛ دبَّرها أحسنَ تدبير، فزرع في أرض مصرَ جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلةً، واتَّخذ لها المحلَّاتِ الكبارَ، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً، وحفظه وضبطه ضبطاً تامًّا، فلما دخلتِ السنونَ المجدبةُ، وسرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوبُ بنيه لأجل الميرة إلى مصر.

﴿٥٨﴾ فجاء ﴿إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾؛ أي: لم يعرفوه.

﴿٥٩﴾ ﴿ولما جهَّزهم بجهازهم﴾؛ أي: كال لهم كما كان يَكيلُ لغيرِهم، وكان من تدبيرِهِ الحسن أنَّه لا يَكيل لكلِّ واحدٍ أكثر من حِمْل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أنَّ لهم أخاً عند أبيه، وهو بنيامين، فقال لهم: ﴿ائـتـوني بـأخ لكم من أبيكم﴾: ثم رغَّبهم في الإتيان به، فقال: ﴿ألا ترَوْنَ أنِّي أوفي الكيلَ وأنا خيرُ المنزِلين﴾: في الضيافة والإكرام.

﴿٦٠﴾ ثمَّ رهَّبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كَيلَ لكُم عندي ولا تَقْرَبونِ﴾: وذٰلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأنَّ ذٰلك يحملهم على الإتيان به.

﴿٦١﴾ فقالوا: ﴿سنراوِدُ عنه أباه﴾: دلَّ هٰذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولَعاً به لا يصبِرُ عنه، وكان يتسلَّى به بعد يوسف؛ فلذٰلك احتاج إلى مراودةٍ في بعثه معهم، ﴿وإنَّا لفاعلونَ﴾: لما أمرتنا به.

﴿٦٢﴾ ﴿وقال﴾ يوسفُ ﴿لفتيانِهِ﴾ الذين في خدمتِهِ: ﴿اجعَلوا بضاعَتَهم﴾؛ أي: الثمن الذي اشتروا به منه الميرة، ﴿في رحالهم لعلَّهم يعرِفونها﴾؛ أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذٰلك في رحالهم؛ ﴿لعلَّهم يرجِعون﴾: لأجل التحرُّج من أخذها على ما قيل. والظاهر أنَّه أراد أن يرغِّبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسُّون بها ولا يشعرون لما يأتي؛ فإنَّ الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿٦٣﴾ ﴿فلمَّا رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ منا الكيلُ﴾؛ أي: إن لم ترسلْ معنا أخانا، ﴿فأرسِلْ معنا أخانا نَكْتَلْ﴾؛ أي: ليكون ذٰلك سبباً لكيلنا. ثم التزموا له بحفظه فقالوا: ﴿وإنَّا له لحافظونَ﴾: من أن يعرض له ما يكره.

﴿٦٤﴾ ﴿قال﴾ لهم يعقوبُ عليه السلام: ﴿هل آمنُكم عليه إلَّا كما أمِنتُكم على أخيه من قبلُ﴾؛ أي: قد تقدَّم منكم التزام أكثر من هٰذا في حفظ يوسف، ومع هٰذا؛ فلم تَفوا بما عقدتم من التأكيد؛ فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثقُ بالله تعالى. ﴿فاللّٰه خيرٌ حافظاً وهو أرحمُ الراحمين﴾؛ أي: يعلم حالي وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويردُّه عليَّ، وكأنَّه في هٰذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

﴿٦٥﴾ ثم إنهم ﴿لما فَتَحوا متاعَهم وَجَدوا بضاعتهم رُدَّتْ إليهم﴾: هٰذا دليلٌ على أنَّه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردَّها عليهم بالقصد، وأنَّه أراد أن يملِّكهم إياها، فقالوا لأبيهم ترغيباً في إرسال أخيهم معهم: ﴿يا أبانا ما نَبْغي﴾؛ أي: أيُّ شيء نطلب بعد هٰذا الإكرام الجميل حيثُ وفَّى لنا الكيل، وردَّ علينا بضاعتنا على [هذا] الوجه الحسن المتضمِّن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟! ﴿هٰذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ونَميرُ أهلنا﴾؛ أي: إذا ذهبنا بأخينا؛ صار سبباً لكَيْلِهِ لنا، فَمِرْنا أهلنا، وأتينا لهم بما هم مضطرُّون إليه من القوت، ﴿ونحفظُ أخانا ونزدادُ كَيْلَ بعيرٍ﴾: بإرساله معنا؛ فإنه يكيل لكلِّ واحدٍ حِمْل بعير. ﴿ذٰلك كيلٌ يسيرٌ﴾؛ أي:

سهل لا ينالك ضررٌ؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبيَّنت.

﴿٦٦﴾ فقال لهم يعقوب: ﴿لن أرسِلَه معكم حتى تؤتوني مَوْثِقاً من اللّه﴾؛ أي: عهداً ثقيلاً وتحلفون باللّه ﴿لتأتُنَّني به إلَّا أن يُحاطَ بكم﴾؛ أي: إلَّا أن يأتيكم أمرٌ لا قِبَلَ لكم به ولا تقدرون دفعه، ﴿فلمَّا آتَوْه مَوْثِقهم﴾: على ما قال وأراد؛ ﴿قال: اللّه على ما نقولُ وكيلٌ﴾؛ أي: تكفينا شهادتُه علينا وحفظه وكفالته[١].

﴿٦٧﴾ ثم لما أرسله معهم؛ وصَّاهم إذا هم قدموا مصر أن لا يَدْخلوا ﴿من بابٍ واحد وادخُلوا من أبواب متفرِّقة﴾: وذٰلك أنه خاف عليهم العين؛ لكثرتهم وبهاء منظرهم؛ لكونهم أبناء[٢] رجل واحد، وهٰذا سبب، ﴿و﴾ إلا فـ﴿ما أغني عنكم من اللّه﴾: شيئاً؛ فالمقدَّر لا بدَّ أن يكون. ﴿إن الحكمُ إلا للّه﴾؛ أي: القضاء قضاؤه والأمر أمره؛ فما قضاه، وحكم به لا بدَّ أن يقع. ﴿عليه توكلتُ﴾؛ أي: اعتمدت على اللّه لا على ما وصَّيتكم به من السبب. ﴿وعليه فليتوكَّل المتوكِّلون﴾: فإنَّ بالتوكُّل يحصُل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿٦٨﴾ ﴿ولما﴾ ذهبوا و﴿دَخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان﴾: ذٰلك الفعل ﴿يُغْني عنهم من اللّه من شيءٍ إلَّا حاجةً في نفس يعقوب قضاها﴾: وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذٰلك نوعُ طمأنينةٍ وقضاءٍ لما في خاطره، وليس هٰذا قصوراً في علمه؛ فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهٰذا قال عنه: ﴿وإنَّه لذو علم﴾؛ أي: لصاحب علم عظيم، ﴿لما علَّمْناه﴾؛ أي: لتعليمنا إيَّاه، لا بحوله وقوَّته أدركه، بل بفضل اللّه وتعليمه. ﴿ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾: عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذٰلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثيرٌ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) في (ب): «كفاءته».

(٢) في (ب): «ابن». وفي (أ): جاءت كلمة «أبناء» بخط مغاير.

وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿٦٩﴾ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف؛ ﴿آوى إليه أخاه﴾؛ أي: شقيقه، وهو بنيامين، الذي أمرهم بالإتيان به وضمِّه إليه، واختصَّه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال إنِّي أنا أخوك؛ فلا تبتئسْ﴾؛ أي: لا تحزن. ﴿بما كانوا يعملون﴾: فإنَّ العاقبة خيرٌ لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيَّل لبقائِهِ عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿٧٠﴾ ﴿فلما جهَّزهم بجهَازهم﴾؛ أي: كال لكلِّ واحدٍ من إخوته، ومن جملتهم أخوه هٰذا، ﴿جعل السِّقايةَ﴾: وهو الإناء الذي يُشرب به ويُكال فيه ﴿في رحل أخيه ثم﴾: أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين؛ ﴿أذَّن مؤذِّنٌ أيتها العيرُ إنكم لسارقون﴾: ولعل هٰذا المؤذِّن لم يعلم بحقيقة الحال.

﴿٧١﴾ ﴿قالوا﴾؛ أي: إخوة يوسف، ﴿وأقبلوا عليهم﴾: لإبعاد التُّهمة؛ فإنَّ السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمَّن سرق منه؛ لتسلم له سرقته، وهٰؤلاء جاؤوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رُموا بها عنهم، فقالوا في هٰذه الحال: ﴿ماذا تفقِدون﴾؟ ولم يقولوا: ما الذي سَرَقْنا؟ لجزمهم بأنهم بُرآء من السرقة.

﴿٧٢﴾ ﴿قالوا نفقِدُ صُواعَ الملك ولمن جاء به حِمْلُ بعيرٍ﴾؛ أي: أجرة له على وجدانه، ﴿وأنا به زعيمٌ﴾؛ أي: كفيل. وهٰذا يقوله المؤذِّن المتفقِّد.

﴿٧٣﴾ ﴿قالوا تاللّه لقد علمتُم ما جئنا لِنُفْسِدَ في الأرض﴾: بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنَّا سارقين﴾: فإنَّ السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض.

وإنما أقسموا على علمهم أنَّهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنَّهم عرفوا أنهم سَبَروا من أحوالهم ما يدلُّهم على عفَّتهم وورعهم وأنَّ هٰذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتَّهموهم، وهٰذا أبلغ في نفي التُّهمة من أنْ لو قالوا: تاللّهِ لم نُفسِدْ في الأرض ولم نسرِقْ.

﴿٧٤﴾ ﴿قالوا فما جزاؤه﴾؛ أي: جزاء هٰذا الفعل، ﴿إن كنتُم كاذبين﴾: بأنْ كان معكم.

﴿٧٥﴾ ﴿قالوا جزاؤه مَن وُجِدَ في رحله فهو﴾؛ أي: الموجود في رحله، ﴿جزاؤُهُ﴾: بأن يتملَّكه صاحب السرقة، وكان هٰذا في دينهم؛ أنَّ السارق إذا ثبتت عليه السرقة؛ كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهٰذا قالوا: ﴿كذٰلك نَجْزي الظالمين﴾.

﴿٧٦﴾ فبدأ المفتش بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، وذٰلك لتزول الرِّيبة التي يظنُّ أنها فعلت بالقصد. فلما لم يَجِدْ في أوعيتهم شيئاً، ﴿استَخْرَجها من وعاء أخيه﴾: ولم يَقُلْ: وجدها أو سرقها أخوه مراعاةً للحقيقة الواقعة؛ فحينئذٍ تمَّ ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجهٍ لا يشعر به إخوته. قال تعالى: ﴿كذٰلك كِدْنا ليوسُفَ﴾؛ أي: يسَّرْنا له هٰذا الكيد الذي توصَّل به إلى أمرٍ غير مذموم. ﴿ما كان لِيأخُذَ أخاه في دينِ الملكِ﴾: لأنَّه ليس من دينه أنْ يُتَمَلَّكَ السارق، وإنَّما له عندهم جزاء آخر؛ فلو رُدَّتِ الحكومة إلى دين الملك؛ لم يتمكَّنْ يوسُفُ من إبقاء أخيه عنده، ولٰكنَّه جعل الحكم منهم؛ ليتمَّ له ما أراد. قال تعالى: ﴿نرفعُ درجاتٍ من نشاء﴾: بالعلمِ النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها؛ كما رَفَعْنا درجاتِ يوسف. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

﴿٧٧﴾ فلما رأى إخوةُ يوسف ما رأوا؛ ﴿قالوا إن يَسْرِقْ﴾: هٰذا الأخ؛ فليس هٰذا غريباً منه، ﴿فقد سَرَقَ أخٌ له من قبلُ﴾؛ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودُهم تبرئةُ أنفسهم، وأنَّ هٰذا وأخاه قد يصدُرُ منهم ما يصدُرُ من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هٰذا من الغضِّ عليهما ما فيه، ولهٰذا ﴿أسرَّها يوسُفُ في نفسه ولم يُبْدِها لهم﴾؛ أي: لم يقابِلْهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كَظَمَ الغيظَ وأسرَّ الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه: ﴿أنتم شَرٌّ مكاناً﴾: حيث ذممتمونا بما أنتُم على أشرَّ منه. ﴿والله أعلم بما تصفون﴾: مِنَّا من وصفنا بسرقة يعلم اللّه أنا برآء منها.

﴿٧٨﴾ ثم سلكوا معه مسلك التملُّق لعله يسمح لهم بأخيهم، فـ﴿قالوا يا أيُّها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً﴾؛ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشقُّ عليه فراقه. ﴿فَخُذْ أحدَنا مكانه إنَّا نراك من المحسنين﴾: فأحسنْ إلينا وإلى أبينا بذٰلك.

﴿٧٩﴾ فقال يوسُفُ: ﴿معاذَ اللّه أن نأخُذَ إلَّا مَن وجدْنا متاعنا عنده﴾؛ أي: هٰذا ظلمٌ منا لو أخذنا البريء بذنب من وَجَدْنا متاعنا عنده، ولم يقلْ: من سرق. كلُّ هٰذا تحرُّزٌ من الكذب. ﴿إنَّا إذاً﴾؛ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله، ﴿لظالمونَ﴾: حيثُ وَضَعْنا العقوبة في غير موضعها.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٠﴾ أي: فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمحَ لهم بأخيهم، ﴿خَلَصوا نجيًّا﴾؛ أي: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم، وجعلوا يَتَناجَوْن فيما بينهم، فـ﴿قالَ كبيرُهم ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً من اللّه﴾: في حفظه وأنَّكم تأتون به إلَّا أن يُحاط بكم، ﴿ومِن قبلُ ما فرَّطتُم في يوسفَ﴾: فاجتمع عليكم الأمران: تفريطُكم في يوسفَ السابق، وعدمُ إتيانِكم بأخيه باللاحق؛ فليس لي وجهٌ أواجه به أبي. ﴿فلنْ أبرحَ الأرضَ﴾؛ أي: سأقيم في هٰذه الأرض ولا أزال بها، ﴿حتَّى يأذنَ لي أبي أو يحكمَ اللّهُ لي﴾؛ أي: يقدِّرُ لي المجيء وحدي أو مع أخي، ﴿وهو خير الحاكمين﴾.

﴿٨١﴾ ثم وصَّاهم ما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارجِعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ ابنك سرقَ﴾؛ أي: وأخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به مع ما بذلنا من الجهد في ذٰلك، والحال أنَّا ما شَهِدْنا بشيء لم نعلَمْه، وإنَّما شهِدْنا بما علمنا؛ لأنَّنا رأينا الصُّواع استُخْرِج من رحله. ﴿وما كنَّا للغيب حافظين﴾؛ أي: لو كنا نعلم الغيبَ؛ لما حَرَصْنا وبذَلْنا المجهود في ذَهابه معنا، ولمَا أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظنَّ أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

﴿٨٢﴾ ﴿واسأل﴾: إن شككتَ في قولنا ﴿القريةَ التي كنَّا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ فاطَّلعوا على ما أخبرناك به، ﴿وإنَّا لصادقونَ﴾: لم نكذِبْ، ولم نغيِّر، ولم نبدِّل، بل هٰذا الواقع.

﴿٨٣﴾ فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهٰذا الخبر؛ اشتدَّ حزنُه وتضاعف كَمَدُهُ واتَّهمهم أيضاً في هٰذه القضيَّة كما اتَّهمهم في الأولى و ﴿قال بل سوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميلٌ﴾؛ أي: ألجأ في ذٰلك إلى الصبر الجميل الذي لا يصحَبُه تسخُّط ولا جزعٌ ولا شكوى للخلق. ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أنَّ الأمر اشتدَّ والكربة انتهت، فقال: ﴿عسى اللّهُ أن يأتيني بهم جميعاً﴾؛ أي: يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر. ﴿إنَّه هو العليم﴾: الذي يعلم حالي واحتياجي إلى تفريجه ومنَّته واضطراري إلى إحسانه، ﴿الحكيم﴾: الذي جعل لكلِّ شيءٍ قَدَراً، ولكلِّ أمرٍ منتهىً بحسب ما اقتضته حكمته الربانيَّة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٤﴾ أي: وتولَّى يعقوبُ عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هٰذا الخبر، واشتدَّ به الأسف والأسى، وابيضَّتْ عيناه من الحزن الذي في قلبه والكمد الذي أوجب له كثرةَ البُكاء حيث[1] ابيضَّت عيناه من ذٰلك؛ ﴿فهو كظيمٌ﴾؛ أي: ممتلىء القلب من الحزن الشديد، ﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾؛ أي: ظهر منه ما كَمَنَ من الهمِّ[2] القديم والشوق المقيم، وذكَّرَتْه هٰذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبةَ الأولى.

﴿٨٥﴾ فقال له أولاده متعجِّبين من حاله: ﴿تاللّه تفتأُ تَذْكُرُ يوسفَ﴾؛ أي: لا تزال تذكر يوسفَ في جميع أحوالك، ﴿حتى تكون حَرَضاً﴾؛ أي: فانياً لا حَراك فيك ولا قدرة لك على الكلام، ﴿أو تكونَ من الهالكين﴾؛ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً.

﴿٨٦﴾ فقال يعقوب: ﴿إنَّما أشكو بثِّي﴾؛ أي: ما أبثُّ من الكلام،

---

(١) في (ب): «حتى».

(٢) في (ب): «ظهر منه وبرَز الهمُّ».

﴿وحُزني﴾: الذي في قلبي. ﴿إلى الله﴾: وحدَه لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق؛ فقولوا ما شئتم، ﴿وأعلمُ من الله ما لا تعلمونَ﴾: من أنَّه سيردُّهم عليَّ ويقرُّ عيني بالاجتماع بهم.

﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٨٧﴾ أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يا بَنِيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه﴾؛ أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما، ﴿ولا تيأسوا من رَوْح الله﴾: فإنَّ الرجاء يوجِبُ للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجِبُ له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العبادُ فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه. ﴿إنَّه لا ييأسُ من رَوْح الله إلَّا القومُ الكافرون﴾: فإنَّهم لكفرِهم يستبعدون رحمتَه، ورحمتُه بعيدةٌ منهم؛ فلا تتشبَّهوا بالكافرين. ودلَّ هٰذا على أنَّه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمةِ الله ورَوْحه.

﴿٨٨﴾ فذهبوا. فلما دخلوا على يوسف، ﴿قالوا﴾: متضرِّعين إليه: ﴿يا أيُّها العزيز مسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ فأوْفِ لنا الكيلَ وتصدَّقْ علينا﴾؛ أي: قد اضطررنا نحنُ وأهلُنا ﴿وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ﴾؛ أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلَّتها وعدم وقوعها الموقع؛ ﴿فأوفِ لنا الكيل﴾؛ أي: مع عدم وفاء العوض، وتصدَّقْ علينا بالزيادة عن الواجب. ﴿إنَّ الله يَجزي المتصدِّقين﴾: بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٨٩﴾ فلما انتهى الأمر وبلغ أشدَّه؛ رقَّ لهم يوسفُ رقَّةً شديدةً، وعرَّفهم بنفسه، وعاتبهم فقال: ﴿هل علمتُم ما فعلتُم بيوسف وأخيه﴾: أما يوسفُ؛ فظاهرٌ فعلُهم فيه، وأما أخوه؛ فلعلَّه ـ والله أعلم ـ قولهم: ﴿إن يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له من قبلُ﴾، أو أن السبب الذي فرَّق بينه وبين أبيه هم السبب فيه والأصل الموجب

له. ﴿إذ أنتم جاهلونَ﴾: وهٰذا نوع اعتذارٍ لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذْ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنَّه لا ينبغي ولا يَليق منهم.

﴿٩٠﴾ فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسفُ، فقالوا: ﴿أإنَّك لأنت يوسفُ قال أنا يوسفُ وهٰذا أخي قد منَّ اللّه علينا﴾: بالإيمان والتقوى والتمكين في الدُّنيا، وذٰلك بسبب الصبر والتقوى، فَ﴿إنَّه من يتَّقِ ويَصْبِرْ﴾؛ أي: يتَّقي فعل ما حرَّم اللّه ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامتثالها. ﴿فإنَّ اللّه لا يُضيع أجر المحسنين﴾: فإنَّ هٰذا من الإحسان، واللّه لا يُضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً.

﴿٩١﴾ ﴿قالوا تاللّه لقد آثرك اللّه علينا﴾؛ أي: فضَّلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصْنا على إيصال الأذى إليك والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك اللّه تعالى ومكَّنك مما تريد [وإن كُنّا لخاطئين، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف].

﴿٩٢﴾ فقال لهم يوسف عليه السلام كرماً وجوداً: ﴿لا تَثْريبَ عليكم اليومَ﴾؛ أي: لا أثرِّبُ عليكم ولا ألومكم، ﴿يَغفِرُ اللهُ لَكُم وهُوَ أرحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ فسمح لهم سماحاً تامًّا من غير تعيير لهم على ذكر الذَّنب السابق، ودعا لهم بالمغفرةِ والرحمةِ، وهٰذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتَّى إلا من خواصِّ الخلق وخيار المصطَفَيْن.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٣﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿اذهَبوا بقميصي هٰذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بَصيراً﴾: لأنَّ كلَّ داءٍ يداوى بضدِّه؛ فهٰذا القميصُ لما كان فيه أثرُ ريح يوسف الذي أوْدَعَ قلبَ أبيه من الحزن والشوق ما اللّه به عليم؛ أراد أن يَشُمَّه فترجِعَ إليه روحه وتتراجع إليه نفسُه ويرجعَ إليه بصرُه، وللّه في ذٰلك حِكَمٌ وأسرارٌ لا يطَّلع عليها العباد، وقد اطَّلع يوسفُ من ذٰلك على هٰذا الأمر. ﴿وأتوني بأهلِكُم أجمعين﴾؛ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلُّهم؛ ليحصلَ تمامُ اللقاء ويزولَ عنكم نَكَدُ المعيشة وضَنْكُ الرزقِ.

﴿٩٤﴾ ﴿ولما فصلت العير﴾: عن أرض مصر مقبلةً إلى أرض فلسطين؛ شمَّ يعقوبُ ريح القميص، فقال: ﴿إنِّي لأجِدُ ريح يوسفَ لولا أن تُفَنِّدونِ﴾؛ أي: تسخرون منِّي، وتزعُمون أنَّ هذا الكلام صدر منِّي من غير شعور؛ لأنَّه رأى منهم من التعجُّب من حاله ما أوجب له هٰذا القول.

﴿٩٥﴾ فوقع ما ظنَّه بهم، فقالوا: ﴿تاللّهِ إنَّك لفي ضلالك القديم﴾؛ أي: لا تزال تائهاً في بحرٍ لُجِّيٍّ[1]، لا تدري ما تقول.

﴿٩٦﴾ ﴿فلمَّا أن جاء البشيرُ﴾: بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿ألقاه﴾؛ أي: القميص ﴿على وجهِهِ فارتدَّ بصيراً﴾؛ أي: رجع على حاله الأولى بصيراً بعد أن ابيضَّت عيناه من الحزن، فقال لمن حَضَرَهُ من أولاده وأهله الذين كانوا يفنِّدونَ رأيه، ويتعجَّبون منه منتصراً عليهم مُتبجحاً بنعمة اللّه عليه: ﴿ألم أقُلْ لكُم إنِّي أعلم من اللّه ما لا تعلمون﴾: حيث كنتُ مترجِّياً للقاء يوسف مترقِّباً لزوال الهمِّ والغمِّ والحزن.

﴿٩٧﴾ فأقرُّوا بذنبهم، ونجعوا بذلك و﴿قالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا إنَّا كنا خاطئينَ﴾: حيث فعلنا معك ما فعلنا.

﴿٩٨﴾ فَ﴿قالَ﴾ مجيباً لطلبتهم ومسرعاً لإجابتهم: ﴿سوفَ أستغفِرُ لكم ربِّي إنَّه هو الغفور الرحيم﴾: ورجائي به أن يغفرَ لكم ويرحمكم ويتغمَّدكم برحمته.

وقد قيل: إنه أخَّر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكونَ أتمَّ للاستغفار وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٩﴾ أي: ﴿فلمَّا﴾ تجهَّز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسُكْناها، فلمَّا وصلوا إليه و﴿دخلوا على يوسفَ آوى إليه أبويهِ﴾؛ أي: ضمَّهما إليه واختصَّهما بقربه وأبدى لهما من

(١) في (ب): «في بحر الحب». وقد استبدلها الشيخ بما أثبت في هامش (أ).

البرّ والإحسان[١] والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً. ﴿وقال﴾ لجميع أهله: ﴿ادخُلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾: من جميع المكاره والمخاوف. فدخلوا في هٰذه الحال السارَّة، وزال عنهم النَّصَبُ ونكد المعيشة وحَصَلَ السرور والبهجة.

﴿١٠٠﴾ ﴿ورفع أبويه على العرشِ﴾؛ أي: على سرير الملك ومجلس العزيز، ﴿وخرُّوا له سجَّداً﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام. ﴿وقال﴾ لمَّا رأى هٰذه الحال ورأى سجودهم له: ﴿يا أبتِ هٰذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ﴾: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين؛ فهٰذا وقوعُها الذي آلتْ إليه ووصلت. ﴿قد جَعَلَها ربِّي حقًّا﴾: فلم يَجْعَلْها أضغاثَ أحلام. ﴿وقد أحسنَ بي﴾: إحساناً جسيماً، ﴿إذْ أخرَجَني من السجن وجاء بكم من البَدْوِ﴾: وهٰذا من لطفه وحسنِ خطابه عليه السلام؛ حيث ذَكَرَ حاله في السجن، ولم يَذْكُرْ حاله في الجبِّ؛ لتمام عفوِهِ عن إخوته، وأنَّه لا يذكر ذٰلك الذنب، وأنَّ إتيانكم من البادية من إحسان الله إليَّ، فلم يقل جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: أحسنَ بكم، بل قال: أحسن بي، جعل الإحسان عائداً إليه؛ فتبارك من يختصُّ برحمتِهِ من يشاءُ من عبادِهِ ويَهَبُ لهم من لدنه رحمةً إنه هو الوهاب، ﴿من بعدِ أن نَزَغَ الشيطان بيني وبينَ إخوتي﴾: فلم يقل: نَزَغَ الشيطانُ إخوتي، بل كأنَّ الذنب والجهل صدر من الطرفين؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودَحَرَهُ وجَمَعَنا بعد تلك الفرقة الشاقة. ﴿إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاء﴾: يوصِلُ برَّه وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ويوصِلُه إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. ﴿إنَّه هو العليمُ﴾: الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطِنَها وسرائر العباد وضمائرهم. ﴿الحكيم﴾: في وضعه الأشياء مواضعها وسَوْقِهِ الأمور إلى أوقاتها المقدَّرة لها.

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿١٠١﴾ لما أتمَّ الله ليوسف ما أتمَّ من التمكين في الأرض والملك وأقرَّ عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إيَّاه، فقال مقرًّا بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك﴾: وذٰلك أنَّه كان على

(١) في (ب): «الإكرام».

خزائن الأرض وتدبيرها ووزيراً كبيراً للملك، ﴿وعلَّمْتَني من تأويل الأحاديث﴾؛ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزَلَة وتأويل الرؤيا وغير ذٰلك من العلم. ﴿فاطر السمٰوٰاتِ والأرضِ... توفَّني مسلماً﴾؛ أي: أدمْ عليَّ الإسلام وثبِّتْني عليه حتى توفَّاني عليه، ولم يكن هٰذا دعاءً باستعجال الموت. ﴿وألحِقْني بالصَّالحين﴾: من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠٢﴾ لما قصَّ الله هٰذه القصة على محمدٍ ﷺ؛ قال الله له: ﴿ذٰلك﴾: [الإنباء] الذي أخبرناك به ﴿من أنباءِ الغيبِ﴾: الذي لولا إيحاؤُنا إليك؛ لما وصل إليك هٰذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضراً ﴿لديهم إذ أجمعوا أمْرهم﴾؛ أي: إخوة يوسف. ﴿وهم يمكُرون﴾: به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالةٍ لا يطَّلع عليها إلا الله تعالى ولا يمكِّنُ أحداً أن يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إيَّاها؛ كما قال تعالى لما قصَّ قصةَ موسى وما جرى له؛ ذَكَرَ الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلَّا بوحيه، فقال: ﴿وما كنتَ بجانبِ الغربيِّ إذْ قَضَيْنا إلى موسى الأمرَ وما كنت من الشاهدين...﴾ الآيات؛ فهٰذا أدلُّ دليل على أنَّ مَن جاء بها رسول الله حقًّا.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿١٠٣﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ﴾: على إيمانهم ﴿بمؤمنينَ﴾: فإنَّ مداركهم ومقاصِدَهم قد أصبحت فاسدةً؛ فلا ينفعهم حرصُ الناصحين عليهم، ولو عدمت الموانع؛ بأنْ كانوا يعلِّمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ودفعِ الشرِّ عنهم من غير أجرٍ ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالَّاتِ على صدقِهم ما أقاموا.

﴿١٠٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿وما تسألُهم عليه من أجرٍ إنْ هو إلَّا ذِكْرٌ للعالمينَ﴾: يتذكَّرون به ما ينفعُهم لِيفعلوه، وما يضرُّهم ليترُكوه.

﴿١٠٥﴾ ﴿وكأيِّن﴾؛ أي: وكم ﴿من آيةٍ في السمٰواتِ والأرض يمرُّون عليها﴾: دالَّة لهم على توحيد اللّه، ﴿وهم عنها معرضونَ﴾.

﴿١٠٦﴾ ومع هٰذا، إنْ وُجِدَ منهم بعضُ الإيمان، فلا ﴿يؤمِنُ أكثرُهم باللّه إلَّا وهم مشركونَ﴾: فهم وإن أقرُّوا بربوبيَّةِ اللّه تعالى وأنَّه الخالق الرازق المدبِّر لجميع الأمور؛ فإنَّهم يشركون في ألوهيَّة اللّه وتوحيده.

﴿١٠٧﴾ فهٰؤلاء الذين وصلوا إلى هٰذه الحال لم يبقَ عليهم إلا أنْ يَحِلَّ بهم العذاب ويفجأهم العقابُ وهم آمنون، ولهٰذا قال: ﴿أفأمِنوا﴾؛ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات اللّه، ﴿أن تأتِيَهُم غاشيةٌ من عذاب اللّه﴾؛ أي: عذابٌ يغشاهم ويَعُمُّهم ويستأصِلُهم، ﴿أو تأتيهمُ الساعةُ بغتةً﴾؛ أي: فجأة، ﴿وهم لا يشعُرونَ﴾؛ أي: فإنَّهم قد استوجبوا لذٰلك؛ فَلْيتوبوا إلى اللّه، ويَتْرُكوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٨﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿قل﴾ للناس: ﴿هٰذه سبيلي﴾؛ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى اللّه وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحقِّ والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين للّه وحده لا شريك له. ﴿أدعو إلى اللّه﴾؛ أي: أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم وأرغِّبهم في ذٰلك وأرهِّبهم مما يُبْعِدُهم عنه، ومع هٰذا؛ فأنا ﴿على بصيرةٍ﴾: من ديني؛ أي: على علم ويقين من غير شكٍّ ولا امتراء ولا مِرْية. وكذٰلك ﴿مَنِ اتَّبعني﴾: يدعو إلى اللّه كما أدعو على بصيرةٍ من أمره. ﴿وسبحان اللّه﴾: عما نُسبَ إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله. ﴿وما أنا من المشركين﴾: في جميع أموري، بل أعبد اللّه مخلصاً له الدين.

﴿١٠٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلِكَ إلَّا رجالاً﴾؛ أي: لم نرسل ملائكةً ولا غيرهم من أصناف الخلق؛ فلأيِّ شيءٍ يَسْتَغْرِبُ قومك رسالتك، ويزعُمون أنه ليس لك عليهم فضلٌ، فلك فيمَنْ قبلك من المرسلين أسوةٌ حسنةٌ.

﴿نوحي إليهم من أهل القُرى﴾؛ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى، الذين هم أكمل عقولاً وأصحُّ آراء، وليتبيَّن أمرهم ويتَّضح شأنهم. ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾: إذا لم يصدِّقوا لقولك، ﴿فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾: كيف أهلكهم اللّهُ بتكذيبهم؛ فاحذروا أن تُقيموا على ما قاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم. ﴿ولَدارُ الآخرة﴾؛ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿خيرٌ للذين اتَّقَوْا﴾: اللّه في امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنَّ نعيم الدُّنيا منغَّصٌ منكَّدٌ منقطعٌ، ونعيم الآخرة تامٌّ كامل لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايدٍ وتواصل. عطاءً غير مجذوذ. ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقولٌ تؤثر الذي هو خير على الأدنى؟

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٠﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذِّبهم القوم المجرمون اللئام، وأن اللّه تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحقِّ، ولا يزال اللّه يمهلهم حتى إنَّه تصلُ الحال إلى غاية الشدَّة منهم على الرسل، حتى إنَّ الرسل على كمال يقينهم وشدَّة تصديقهم بوعد اللّه ووعيده ربَّما أنه يخطُرُ بقلوبهم نوعٌ من الإياس ونوعٌ من ضعف العلم والتصديق؛ فإذا بلغ الأمر هٰذه الحال؛ ﴿جاءهُم نصرُنا فنُجِّي مَن نشاء﴾: وهم الرسل وأتباعهم، ﴿ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القوم المجرمين﴾؛ أي: ولا يُرَدُّ عذابنا عمن اجترم وتجرأ على اللّه؛ فما لهم من قوَّةٍ ولا ناصر.

﴿١١١﴾ ﴿لقد كان في قصصهم﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عبرةٌ لأولي الألباب﴾؛ أي: يعتبرون بها أهل الخير وأهل الشر، وأنَّ مَن فعل مثلَ فعلهم؛ ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً ما للّه من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنَّه اللّه الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له. وقوله: ﴿ما كان حديثاً يُفترى﴾؛ أي: ما كان هٰذا القرآن الذي قصَّ اللّه به عليكم من أنباء الغيب ما قصَّ من الأحاديث المُفتَراة المختَلَقَة. ﴿ولٰكنْ﴾: كان ﴿تصديقَ الذي بين يديه﴾: من الكتب السابقة؛ يوافقها ويشهدُ لها بالصحة،

﴿وتفصيلَ كلِّ شيءٍ﴾: يحتاجُ إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن الأدلَّة والبراهين. ﴿وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾: فإنَّهم بسبب ما يحصُلُ لهم به من العلم بالحقِّ وإيثاره يحصُلُ لهم الهدى، وبما يحصُلُ لهم من الثواب العاجل والآجل تحصُلُ لهم الرحمة.

فصل

في ذِكْر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هٰذه القصَّة العظيمة التي قال اللّه في أولها: ﴿نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص﴾، وقال: ﴿لقد كان في يوسُفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين﴾، وقال في آخرها: ﴿لقد كان في قَصَصِهِم عبرةٌ لأولي الألباب﴾، غير ما تقدَّم في مطاويها من الفوائد.

فمن ذٰلك: أن هٰذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقُّلات: من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذلٍّ إلى عزٍّ، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جَدْب، ومن جدبٍ إلى رخاء، ومن ضيق إلى سَعَة، ومن إنكارٍ إلى إقرار؛ فتبارك من قصَّها فأحسنها، ووضَّحها، وبيَّنها.

ومنها: أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا؛ فإنَّ[1] علم التعبير من العلوم المهمَّة التي يعطيها اللّه من يشاء من عبادِهِ، وإنَّ أغلب ما تُبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة:

فإنَّ رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين وجهُ المناسبة فيها أنَّ هٰذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها؛ فكذٰلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمالٌ، وبهم يُهْتَدى في الظُّلمات كما يُهْتَدى بهٰذه الأنوار، ولأنَّ الأصل أبوه وأمه، وإخوتُه هم الفرع؛ فمن المناسب أن يكون الأصلُ أعظمَ نوراً وجِرْماً لما هو فرعٌ عنه؛ فلذٰلك كانت الشمسَ أمُّه والقمرَ أبوه والكواكبَ إخوتُه. **ومن المناسبة** أنَّ الشمس لفظٌ مؤنثٌ؛ فلذٰلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكَّرات؛ فكانت لأبيه وإخوته. **ومن المناسبة** أنَّ الساجد معظِّمٌ مُحترِمٌ للمسجود له، والمسجودُ له معظَّم مُحترَمٌ؛ فلذٰلك دلَّ ذٰلك على أن يوسف يكون معظَّماً

(١) في (ب): «وإنَّ».

محترماً عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذٰلك أن يكون مجتبى مفضَّلاً في العلم والفضائل الموجبة لذٰلك، ولذٰلك قال له أبوه: ﴿وكذٰلك يَجْتَبيكَ ربُّك ويعلِّمُك من تأويل الأحاديث﴾.

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين: أنَّه أوَّل رؤيا الذي رأى أنَّه يعصِرُ خمراً؛ أنَّ الذي يعصر خمراً في العادة يكون خادماً لغيره، والعصرُ يُقْصَدُ لغيره؛ فلذٰلك أوَّله بما يؤول إليه؛ أنَّه يسقي ربَّه، وذٰلك متضمِّن لخروجه من السجن. وأوَّل الذي رأى أنه يحمِلُ فوق رأسِهِ خبزاً تأكُلُ الطير منه بأنَّ جلدة رأسه ولحمه وما في ذٰلك من المخِّ أنه هو الذي يحمل[1] وأنه سيبرزُ للطيور بمحلٍّ تتمكَّن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنَّه سيُقتل ويُصلب بعد موته فيُبْرَزُ للطيور فتأكل من رأسه، وذٰلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأوَّل رؤيا الملك للبقرات والسُّنبلات بالسنين المخصبة والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أنَّ الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، وكذٰلك السنون بها صلاح أحوال الرَّعية واستقامة أمر المعاش أو عدمه، وأما البقر؛ فإنَّها تُحْرَثُ الأرض عليها ويُسْتَقى عليها الماء وإذا أخصبت السنة؛ سمنت، وإذا أجدبت؛ صارت عجافاً، وكذٰلك السنابل في الخصب تكثر وتخضرُّ، وفي الجدب تقلُّ وتيبس، وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلَّة على صحة نبوة محمد ﷺ؛ حيث قصَّ على قومه هٰذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دارس أحداً يراه قومُهُ بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أميٌّ لا يخطُّ ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشرِّ وكتمانُ ما تُخشى مضرَّته؛ لقول[2] يعقوب ليوسف: ﴿[يا بني] لا تَقْصُصْ رؤياكَ على إخوتِكَ فيكيدوا لك كَيْداً﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾.

ومنها: أنَّ نعمة اللّه على العبد نعمةٌ على من يتعلَّق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنَّه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه؛ كما قال يعقوبُ في

---

(١) في (ب): «يحمله».
(٢) في (ب): «لقوله».

تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وكذٰلك يجتبيك ربُّك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث ويُتِمُّ نعمته عليكَ وعلى آل يعقوب﴾، ولما تمَّت النعمة على يوسف؛ حصل لآل يعقوب من العزِّ والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أنَّ العدل مطلوبٌ في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته، ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبَّة والإيثار وغيره، وأنَّ في الإخلال بذٰلك يختلُّ عليه الأمر وتفسُدُ الأحوال، ولهٰذا لما قدَّم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته؛ جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأنَّ الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعدِّدة، ولا يتمُّ لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه؛ احتالوا لذٰلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مراتٍ، وزوَّروا على أبيهم في القميص والدَّم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعدْ أنَّه قد كَثُرَ البحث فيها في تلك المدَّة، بل لعلَّ ذٰلك اتَّصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث؛ حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهٰذا شؤمُ الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أنَّ العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإنَّ أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبرُ أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرُهم إلى التوبة النصوح والسماح التامِّ من يوسف ومن أبيهم والدُّعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سَمَحَ العبد عن حقِّه؛ فاللّٰه خير الراحمين، ولهٰذا في أصحِّ الأقوال أنهم كانوا أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وأوحَيْنا إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوبَ والأسباطِ﴾، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذرِّيَّتهم، ومما يدلُّ على ذٰلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكبَ نيِّرة، والكواكب فيها النور والهدايةُ، الذي من صفات الأنبياء؛ فإنْ لم يكونوا أنبياء؛ فإنَّهم علماء هداة.

ومنها: ما منَّ اللّٰه به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحِلْم ومكارم الأخلاق والدَّعوة إلى اللّٰه وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادَرَهم به وتمَّم ذٰلك بأن لا يُثَرِّبَ عليهم ولا يعيِّرَهم به، ثم برّه العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشرِّ أهون من بعض، وارتكاب أخفِّ الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإنَّ إخوة يوسف لما اتَّفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً،

وقال قائل منهم: ﴿لا تَقْتُلوا يوسف وألقوه في غيابةِ الجبِّ﴾؛ كان قولُه أحسنَ منهم وأخفَّ، وبسببه خفَّ عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أنَّ الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يُعْلَم أنه كان على غير وجه الشرع؛ أنه لا إثم على مَنْ باشره ببيعٍ أو شراء أو خدمةٍ أو انتفاع أو استعمال؛ فإنَّ يوسف عليه السلام باعه إخوتُه بيعاً حراماً لا يجوز، ثم ذهبتْ به السيَّارة إلى مصر، فباعوه بها، وبقي عند سيِّده غلاماً رقيقاً، وسماه الله سيداً[١]، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يُخشى منهنَّ الفتنة، والحذر أيضاً من المحبَّة التي يُخشى ضررها؛ فإنَّ امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسفَ وحبِّها الشديدِ له، الذي ما تركها حتَّى راودتْه تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسُجِنَ بسببها مدة طويلة.

ومنها: أنَّ الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه للّه مما يرقِّيه[٢] إلى اللّه زُلفى؛ لأنَّ الهمَّ داعٍ من دواعي النفس الأمَّارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخَلْق، فلما قابل بينه وبينَ محبَّة اللّه وخشيته؛ غلبتْ محبَّة اللّه وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن﴿خافَ مقام ربِّه ونهى النفس عن الهوى﴾، ومن السبعة الذين يُظِلُّهم اللّه في ظلِّ عرشه يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: أحدُهم: رجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف اللّه[٣]. وإنَّما الهمُّ الذي يُلام عليه العبد الهمُّ الذي يساكنه، ويصير عزماً ربَّما اقترن به الفعل.

ومنها: أنَّ مَن دَخَلَ الإيمان قلبَه، وكان مخلصاً للّه في جميع أموره؛ فإنَّ اللّه يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاءٌ لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وهمَّ بها لولا أن رأى برهانَ ربِّه وكذٰلك لنصرِفَ عنه السوءَ والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين﴾: على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح؛ فإنَّه من إخلاص اللّه إياه، وهو متضمِّن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله للّه؛ أخلصَه اللّه، وخلَّصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية أن يفرَّ منه ويهربَ

---

(١) في (ب): «شراءً». (٢) في (ب): «يقرِّبُه».

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

غاية ما يمكِنه؛ ليتمكَّن من التخلُّص من المعصية؛ لأنَّ يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها؛ فرَّ هارباً يطلُبُ الباب ليتخلَّص من شرِّها.

ومنها: أنَّ القرائن يُعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجلٌ وامرأته في شيء من أواني الدار؛ فما يصلُح للرجل؛ فإنَّه للرجل، وما يصلُح للمرأة؛ فهو لها، هٰذا إذ لم يكن بيِّنة، وكذا لو تنازع نجارٌ وحدادٌ في آلة حرفتهما من غير بيِّنة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هٰذا الباب؛ فإنَّ شاهد يوسف شهد بالقرينة وحكم بها في قدِّ القميص واستدلَّ بقدِّه من دُبُره على صدق يوسف وكذبها. ومما يدلُّ على هٰذه القاعدة أنَّه استدلَّ بوجود الصُّواع في رَحْل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بيِّنةِ شهادةٍ ولا إقرار؛ فعلى هٰذا إذا وجد المسروقُ في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة؛ فإنَّه يحكم عليه بالسرقة، وهٰذا أبلغ من الشهادة. وكذلك وجود الرجل يتقيَّأ الخمر أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيِّدَ حاملاً؛ فإنَّه يُقام بذٰلك الحدُّ ما لم يقمْ مانعٌ منه، ولهٰذا سمَّى الله هٰذا الحكم شاهداً، فقال: ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها﴾.

ومنها: ما عليه يوسفُ من الجمال الظاهر والباطن؛ فإنَّ جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتْهن حين لُمنَها على ذٰلك أن قطَّعن أيديهنَّ وقلن: ﴿ما هٰذا بشراً إنْ هٰذا إلَّا مَلَكٌ كريمٌ﴾. وأما جماله الباطن؛ فهو العفَّة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذٰلك ببراءته، ولهٰذا قالت امرأة العزيز: ﴿ولقد راودتُه عن نفسه فاستَعْصَمَ﴾، وقالت بعد ذٰلك: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أنا راودتُه عن نفسِهِ وإنَّه لمن الصادقين﴾، وقالت النسوة: ﴿حاشَ لله ما علمنا عليه من سوءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجنَ على المعصية؛ فهٰكذا ينبغي للعبد إذا ابْتُلِيَ بين أمرين: إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيويَّة: أن يختار العقوبة الدنيويَّة على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدُّنيا والآخرة، ولهٰذا من علامات الإيمان أن يكره العبدُ أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكرهُ أنْ يُلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجىء إلى الله ويَحْتَمِي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرَّأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وإلَّا تَصْرِفْ عنِّي كيدَهُنَّ أصبُ إليهنَّ وأكُنْ من الجاهلين﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشرِّ، وأنَّ الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس وإن كان معصية ضارًّا لصاحبه.

ومنها: أنَّه كما على العبد عبوديَّة للّه في الرخاء؛ فعليه عبوديَّة في الشدَّة؛ فيوسف عليه السلام لم يزلْ يدعو إلى اللّه، فلما دَخَلَ السجن؛ استمرَّ على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك. ومن فطنته عليه السلام أنَّه لما رأى فيهما قابليَّة لدعوته حيث ظنَّا فيه الظنَّ الحسن، وقالا له: ﴿إنا نراك من المحسنينَ﴾ وأتَياه لأن يَعْبُرَ لهما رؤياهما، فرآهما متشوِّقَيْنِ لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى اللّه تعالى قبلَ أن يَعْبُرَ رؤياهما؛ ليكون أنجحَ لمقصوده وأقربَ لحصول مطلوبه، وبيَّن لهما أولاً أنَّ الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم إيمانُه وتوحيدُه وتركُه مِلَّةَ مَنْ لا يؤمن باللّه واليوم الآخر، وهذا دعاءٌ لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبيَّن فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنَّه يبدأ بالأهمِّ فالأهمِّ، وأنَّه إذا سُئِلَ المفتي، وكان السائل حاجته من[(١)] غير سؤاله أشد؛ أنَّه ينبغي له أن يعلِّمه ما يحتاجُ إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإنَّ هذا علامةٌ على نصح المعلِّم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإنَّ يوسف لما سأله الفتيان عن الرؤيا؛ قدَّم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى اللّه وحده لا شريك له.

ومنها: أن مَنْ وقع في مكروه وشدَّة؛ لا بأس أن يستعين بمَنْ له قدرةٌ على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأنَّ هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإنَّ هذا من الأمور العاديَّة التي جرى العُرْفُ باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظنَّ أنَّه ناجٍ من الفتيين: ﴿اذكُرْني عند ربِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكَّد على المعلِّم استعمال الإخلاص التامِّ في تعليمه، وأنْ لا يجعل تعليمه وسيلةً لمعاوضة أحدٍ في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائلُ ما كلَّفه به المعلِّم؛ فإنَّ يوسف عليه السلام قد قال، ووصَّى أحد الفتيين أنْ يذكُرَه عند ربِّه، فلم يذكُرْه ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف؛ أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنِّفه يوسف، ولا وبَّخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جواباً تامًّا من كل وجه.

---

(١) في (ب): «في».

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدلَّ السائل على أمر ينفعه مما يتعلَّق بسؤاله ويرشِدَه إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه؛ فإنَّ هٰذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده؛ فإنَّ يوسف عليه السلام لم يقتصِرْ على تعبير رؤيا الملك، بل دلَّهم ـ مع ذٰلك ـ على ما يصنعونَ في تلك السنين المخصبات من كثرة الزَّرْع وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التُّهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يُحْمَدُ على ذٰلك؛ كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبيَّن لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهنَّ.

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف؛ فإنَّ يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العزُّ والرِّفعة والتمكين في الأرض؛ فإنَّ كلَّ خيرٍ في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أنَّ علم التعبير من العلوم الشرعيَّة، وأنَّه يثاب الإنسان على تعلُّمه وتعليمه، وأنَّ تعبير الرؤيا داخلٌ في الفتوى؛ لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان﴾، وقال الملك: ﴿أفتوني في رؤيايَ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أفتِنا في سبع بقراتٍ. . .﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبِرَ الإنسانُ عمَّا في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان في ذٰلك مصلحةٌ، ولم يقصِدْ به العبد الرياء، وسَلِمَ من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿اجعَلْني على خزائن الأرض إنِّي حفيظٌ عليمٌ﴾.

وكذٰلك لا تُذَمُّ الولاية إذا كان المتولِّي فيها يقوم بما يقدِرُ عليه من حقوق اللّه وحقوق عباده، وأنَّه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءةً من غيره، وإنَّما الذي يُذَمُّ إذا لم يكن فيه كفايةٌ، أو كان موجوداً غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يُرِدْ بها إقامة أمر اللّه؛ فبهٰذه الأمور يُنهى عن طلبها والتعرُّض لها.

ومنها: أن اللّه واسعُ الجود والكرم، يجودُ على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأنَّ خير الآخرة له سببان: الإيمانُ، والتقوى، وأنه خيرٌ من ثواب الدُّنيا وملكها، وأنَّ العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوِّقَها لثواب اللّه، ولا يَدَعَها تحزن إذا رأت أهل الدُّنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسلِّيها بثواب اللّه الأخرويِّ وفضلِهِ العظيم؛

لقوله تعالى: ﴿ولأجرُ الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾.

ومنها: أنَّ جباية الأرزاق إذا أريدَ بها التوسعة على الناس من غير ضررٍ يلحقهم؛ لا بأس بها؛ لأنَّ يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات[1] للاستعداد للسنين المجدبة، وأنَّ هٰذا غير مناقضٍ للتوكُّل على اللّه، بل يتوكَّل العبد على اللّه، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لمَّا تولَّى خزائن الأرض حتى كَثُرَتْ عندهم الغلَّات جدًّا، حتى صار أهلُ الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرةِ منها؛ لعلمهم بوفورها فيها، وحتى أنَّه كان لا يَكِيل لأحد إلَّا مقدار الحاجة الخاصَّة، أو أقلَّ لا يزيد كلَّ قادم على كيل بعيرٍ وحملِهِ.

ومنها: مشروعيَّة الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿ألا تَرَوْنَ أنِّي أوفي الكيل وأنا خيرُ المنزِلينَ﴾.

ومنها: أنَّ سوء الظن مع وجود القرائن الدالَّة عليه غير ممنوع ولا محرَّم؛ فإنَّ يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشدَّ المعالجة ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئبَ أكَلَه: ﴿بل سوَّلت لكم أنفسُكم أمراً﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هل آمَنُكم عليه إلَّا كما أمِنتُكم على أخيه من قبل﴾، ثم لما احتبسه يوسفُ عنده، وجاء إخوتُه لأبيهم؛ قال لهم: ﴿بل سوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً﴾؛ فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرِّطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها[2] من المكاره أو الرافعة له بعد نزولها غير ممنوع، بل جائزٌ، وإن كان لا يقع شيءٌ إلَّا بقضاء وقدرٍ؛ فإنَّ الأسباب أيضاً من القضاء والقدر؛ لأمر يعقوب؛ حيث قال لبنيه: ﴿يا بنيَّ لا تدخُلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة﴾.

ومنها: جواز استعمال المكايد التي يُتَوَصَّل بها إلى الحقوق، وأنَّ العلم بالطُّرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يُحمد عليه العبد، وإنَّما الممنوع التحيُّل على إسقاط واجبٍ أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهِمَ غيره بأمرٍ لا يحبُّ أن يطَّلع عليه أن يستعملَ

---

(١) في (ب): «المخصبة».

(٢) في (ب): «أو غيرها».

المعاريض القوليَّة والفعليَّة المانعة له من الكذب؛ كما فعل يوسفُ حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه موهماً أنَّه سارقٌ، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذٰلك: ﴿معاذَ اللّه أن نأخُذَ إلَّا مَن وجدنا متاعنا عنده﴾، ولم يقل: مَنْ سَرَق متاعنا. وكذٰلك لم يقل: إنا وجدنا متاعنا عنده؛ بل أتى بكلام عامٍّ يَصْلُح له ولغيره، وليس في ذٰلك محذورٌ، وإنَّما فيه إيهامٌ أنَّه سارقٌ؛ ليحصُلَ المقصود الحاضر، وأنه يبقى [عند] أخيه، وقد زال عن الأخ هٰذا الإيهام بعدما تبيَّنت الحال.

ومنها: أنَّه لا يجوز للإنسان أن يشهدَ إلَّا بما عَلِمَهُ وتحقَّقهُ [إما][1] بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئنُّ إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وما شَهِدْنا إلا بما علمنا﴾.

ومنها: هٰذه المحنة العظيمة التي امتحنَ اللّه بها نبيَّه وصفيَّه يعقوب عليه السلام؛ حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعةً واحدةً ويحزِنُه ذٰلك أشدَّ الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدةً طويلة لا تقصر عن ثلاثين[2] سنة، ويعقوبُ لم يفارقِ الحزنُ قَلْبَهُ في هذه المدة، ﴿وابيضَّتْ عيناه من الحزنِ فهو كظيمٌ﴾، ثم ازداد به الأمر شدَّة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هٰذا وهو صابرٌ لأمر اللّه محتسبٌ الأجر من اللّه قد وَعَدَ من نفسه الصبر الجميل، ولا شكَّ أنه وفى بما وعد به، ولا ينافي ذٰلك قوله: ﴿إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى اللّه﴾؛ فإنَّ الشكوى إلى اللّه لا تُنافي الصبر، وإنَّما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسراً؛ فإنَّه لما طال الحزن على يعقوب واشتدَّ به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسَّهم الضرُّ؛ أذِنَ اللّه حينئذٍ بالفرج، فحصل التلاقي في أشدِّ الأوقات إليه حاجة واضطراراً، فتمَّ بذٰلك الأجر وحصل السرورُ وعُلِمَ مِن ذٰلك أنَّ اللّه يبتلي أولياءه بالشدَّة والرَّخاء والعسر واليسر؛ ليمتحنَ صبرهم وشكرهم، ويزداد بذٰلك إيمانُهم ويقينُهم وعِرْفانُهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرضٍ أو فقرٍ ونحوهما على

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «إلاّ» والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): «خمسة عشر». وصوّبها الشيخ في هامش (أ) كما هو مثبت.

غير وجه التسخُّط؛ لأنَّ إخوة يوسف قالوا: ﴿يا أيُّها العزيز مسَّنا وأهلَنا الضرُّ﴾، ولم يُنْكِرْ عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأنَّ كلَّ خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأنَّ عاقبة أهلهما أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قد منَّ اللّه علينا إنَّه من يتَّقِ ويَصْبِرْ فإنَّ اللّه لا يضيع أجر المحسنين﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم اللّه عليه بنعمةٍ بعد شدَّة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة اللّه عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى؛ ليحدث لذٰلك شكراً كلَّما ذكرها؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وقد أحسنَ بي إذ أخرَجَني من السجن وجاء بكم من البَدْوِ﴾.

ومنها: لطف اللّه العظيم بيوسف؛ حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن؛ ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أنْ يتملَّقَ إلى اللّه دائماً في تثبيت إيمانه، ويُعْمِلَ الأسباب الموجبة لذٰلك، ويسأل اللّه حسنَ الخاتمة وتمام النِّعمة؛ لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ربِّي قد آتَيْتَني من الملك وعلَّمْتني من تأويل الأحاديث فاطر السمٰواتِ والأرض أنتَ وليِّي في الدُّنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحقْني بالصَّالحين﴾.

فهٰذا ما يسَّر اللّه من الفوائد والعبر في هٰذه القصة المباركة، ولا بدَّ أنْ يظهر للمتدبِّر المتفكِّر غير ذٰلك؛ فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً متقبَّلاً إنه جوادٌ كريمٌ.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام.
والحمد للّه رب العالمين.

❀ ❀ ❀

تفسير سورة الرعد

وهي مدنية ـ وقيل مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أنَّ هٰذا القرآن هو آيات الكتاب الدالَّة على كلِّ ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أُنزلَ إلى الرسول من ربِّه هو الحقُّ المُبين؛ لأنَّ أخباره صدق وأوامره ونواهيه عدلٌ مؤيَّدة بالأدلَّة والبراهين القاطعة؛

فمن أقبل عليه وعلى علمه؛ كان من أهل العلم بالحقِّ الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب اللّه. ﴿ولكنَّ أكثر الناس [لا يؤمنون]﴾: بهذا القرآن: إمّا جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً؛ فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به؛ لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير والعظمة والسلطان الدالِّ على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له، فقال: ﴿اللّه الذي رفعَ السمٰوتِ﴾: على عظمها واتِّساعها بقدرته العظيمة، ﴿بغير عَمَدٍ تَرَوْنها﴾؛ أي: ليس لها عَمَدٌ من تحتها؛ فإنَّه لو كان لها عَمَدٌ؛ لرأيتُموها، ﴿ثم﴾: بعدما خلق السماواتِ والأرض، ﴿استوى على العرش﴾: العظيم، الذي هو أعلى المخلوقات، استواءً يَليق بجلاله ويناسب كماله. ﴿وسخَّر الشمس والقمر﴾: لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم. ﴿كلٌّ﴾: من الشمس والقمر، ﴿يَجْري﴾: بتدبير العزيز العليم ﴿إلى أجل مسمّى﴾: بسير منتظم لا يفتُران ولا يَنِيان حتى يجيء الأجل المسمَّى، وهو طيُّ اللّه هٰذا العالم ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار؛ فعند ذٰلك يطوي اللّه السماواتِ ويبدِّلها ويُغيِّر الأرض ويبدِّلها، فتكوَّر الشمس والقمر و[يُجمع][1] بينهما فيلقيانِ في النار؛ ليرى من عبدهما أنَّهما غير أهل للعبادة، فيتحسَّر بذٰلك أشدَّ الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين. وقوله: ﴿يدبِّر الأمر يفصِّل الآياتِ﴾: هٰذا جمعٌ بين الخلق والأمر؛ أي: قد استوى اللّه العظيم على سرير الملك؛ يدبِّر الأمور في العالم العلويِّ والسفليِّ، فيخلق ويرزق، ويغني ويُفْقِر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويعزُّ ويذلُّ، ويَخْفِضُ ويرفعُ، ويَقيلُ العثراتِ،

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تجمع».

ويفرِّجُ الكربات، وينفذُ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمهُ وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيرِهِ، وينزِّل الكتب الإلٰهية على رسله، ويبين ما يحتاجُ إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصِّلها غايةَ التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها. ﴿لعلَّكم﴾: بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقيَّة والآيات القرآنيَّة، ﴿بلقاء ربِّكم توقنون﴾: فإنَّ كثرة الأدلَّة وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلٰهيَّة، خصوصاً في العقائد الكبار؛ كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً؛ فقد عُلم أنَّ اللّه تعالى حكيمٌ؛ لا يخلُق الخلق سدىً، ولا يتركهم عبثاً؛ فكما أنَّه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيهم؛ فلا بدَّ أن ينقلَهم إلى دار يحلُّ فيهم جزاؤه؛ فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم.

﴿٣﴾ ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾؛ أي: خلقها للعباد ووسَّعها وبارك فيها ومهَّدَها للعباد وأودعَ فيها من مصالحهم ما أودع، ﴿وجعل فيها رواسيَ﴾؛ أي: جبالاً عظاماً؛ لئلاَّ تميدَ بالخلق؛ فإنَّه لولا الجبال؛ لمادت بأهلها؛ لأنها على تيار ماء لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرَّواسي التي جعلها اللّه أوتاداً لها. ﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم؛ فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيراً كثيراً، ولهٰذا قال: ﴿ومن كلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنينِ﴾؛ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد. ﴿يُغشي الليل النهار﴾: فتظلم الآفاق، فيسكن كلُّ حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قَضَوْا مآربهم من النوم؛ غشي النهارُ الليلَ؛ فإذا هم مصبحون [منتشرون][1] في مصالحهم وأعمالهم في النهار، ﴿ومن رحمتِهِ جعل لكم الليلَ والنَّهار لتسكُنوا فيه ولِتَبْتَغوا من فضلِهِ ولعلَّكم تشكُرون﴾. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ﴾: على المطالب الإلٰهيَّة ﴿لقوم يتفكَّرون﴾: فيها وينظرون فيها نظر اعتبارٍ دالَّة على أن الذي خلقها ودبَّرها وصرَّفها هو اللّه الذي لا إله إلَّا هو، ولا معبود سواه، وأنَّه عالم الغيب والشهادة الرحمٰن الرحيم، وأنَّه القادر على كل شيء، الحكيم في كلِّ شيء، المحمود على ما خَلَقَه وأمر به، تبارك وتعالى.

﴿٤﴾ ﴿و﴾ من الآيات على كمال قدرتِهِ وبديع صنعته أن جعل ﴿في الأرض

---

(١) في (أ): «منتشرين». وما أثبت من (ب).

قِطَعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ﴾: فيها أنواع الأشجار: من الأعنابِ والنخل والزَرْع، وغير ذٰلك، والنخيل التي بعضها ﴿صنوان﴾؛ أي: عدة أشجار في أصل واحدٍ. ﴿وغيرُ صِنْوانٍ﴾: بأن كان كل شجرة على حدتها، والجميع ﴿يُسْقى بماء واحدٍ﴾: وأرضُه واحدةٌ. ﴿ونُفضِّل بعضَها على بعضٍ في الأُكُل﴾: لوناً وطعماً ونفعاً ولذَّةً؛ فهٰذه أرض طيِّبة تنبت الكلأ والعشب الكثير والأشجار والزروع، وهٰذه أرضٌ تلاصِقُها لا تنبتُ كلأً ولا تمسك ماءً، وهٰذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، وهٰذه تنبِتُ [الزروع][1] والأشجار ولا تنبِتُ الكلأ، وهٰذه الثمرةُ حلوةٌ وهٰذه مرَّةٌ وهٰذه بين ذٰلك؛ فهل هٰذا التنوُّع في ذاتها وطبيعتها أم ذٰلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقوم يعقلونَ﴾؛ أي: لقوم لهم عقولٌ تهديهم إلى ما ينفعُهم وتقودهم إلى ما يرشدون ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهلُ الإعراض وأهلِ البلادة؛ فهم في ظُلُماتهم يعمَهون وفي غيِّهم يتردَّدون، لا يهتدون إلى ربِّهم سبيلاً ولا يعون له قيلاً.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ يحتمل أنَّ معنى قوله: ﴿وإن تَعْجَبْ﴾: من عظمة الله تعالى وكثرة أدلَّة التوحيد؛ فإنَّ العجب مع هٰذا إنكار المكذِّبين وتكذيبهم بالبعث وقولهم: ﴿أإذا كُنَّا تراباً أإنَّا لفي خلقٍ جديدٍ﴾؛ أي: هٰذا بعيدٌ في غاية الامتناع بزعمهم أنَّهم بعدما كانوا تراباً أن الله يُعيدهم؛ فإنَّهم من جهلهم قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فلما رأوا هٰذا ممتنعاً في قدرة المخلوق، ظنُّوا أنه ممتنعٌ على قدرة الخالق، ونسوا أنَّ الله خلقهم أول مرَّة ولم يكونوا شيئاً. **ويُحتمل** أنَّ معناه: وإنْ تعجَبْ من قولهم وتكذيبهم للبعث؛ فإنَّ ذٰلك من العجائب؛ فإنَّ الذي تُوَضَّح له الآيات ويرى منها[2] الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشكَّ والريبَ ثم ينكِرُ ذٰلك؛ فإنَّ قوله من العجائب، ولٰكن ذٰلك لا يُستغرب على ﴿الذين كفروا بربهم﴾: وجَحَدوا وحدانيَّته، وهي أظهرُ الأشياء وأجلاها. ﴿وأولٰئك الأغلالُ﴾: المانعة لهم من الهدى ﴿في أعناقِهِم﴾: حيث دُعُوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعُرِضَ عليهم الهدى فلم يهتدوا،

(١) في (أ): «الزرع». وما أثبت من (ب).

(٢) في (ب): «من».

فقلِبَت قلوبهم وأفئدتهم عقوبةً على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة. ﴿وأولٰئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾: لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ يخبر تعالى عن جهلِ المكذِّبين لرسوله، المشركين به، الذين وُعظوا فلم يتَّعظوا، وأُقيمت عليهم الأدلَّة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلُّوا بحِلْم اللّه الواحد القهار عنهم وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حقٍّ، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللهمَّ إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندِكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتِنا بعذابٍ أليم﴾! ﴿و﴾ الحال أنَّه ﴿قد خلَتْ من قبلهم المَثُلاتُ﴾؛ أي: وقائع اللّه وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكَّرون في حالهم ويتركون جهلهم؟! ﴿وإنَّ ربَّك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمِهِم﴾؛ أي: لا يزال خيره إليهم وإحسانُه وبرُّه وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شِرْكهم[1] وعصيانهم إليه صاعداً؛ يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرِمُهم خيره وإحسانه؛ فإنْ تابوا إليه؛ فهو حبيبُهم؛ لأنَّه يحبُّ التوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين، وإن لم يتوبوا؛ فهو طبيبُهم؛ يبتليهم بالمصائب ليطهِّرهم من المعايب: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنَطوا من رحمةِ اللّه إنَّ اللّه يغفرُ الذُّنوب جميعاً إنَّه هو الغفور الرحيم﴾. ﴿وإنَّ ربَّك لشديدُ العقابِ﴾: على من لم يزلْ مصرًّا على الذُّنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار؛ فليحذرِ العبادُ عقوباتِهِ بأهل الجرائم؛ فإنَّ أخذَه أليم شديدٌ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: ويقترح الكفارُ عليك من الآيات التي يُعَيِّنُونَها ويقولون: ﴿لولا أنزلَ عليه آيةٌ من ربِّه﴾، ويجعلون هٰذا القول منهم عُذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنَّه منذرٌ، ليس له من الأمر شيءٌ، واللّه هو الذي ينزِّل الآيات، وقد أيَّده بالأدلَّة البيِّنات التي لا تخفى على أولي الألباب، وبها يهتدي من قصدَهُ الحقُّ، وأما الكافر الذي مِنْ ظلمه وجهله يقترح على اللّه الآيات؛ فهٰذا اقتراحٌ منه

(١) في (ب): «وهم لا يزال شرهم».

باطلٌ وكذبٌ وافتراءٌ[١]؛ فإنَّه لو جاءته أيُّ آية كانت؛ لم يؤمن ولم ينقد؛ لأنَّه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدلُّه على صحته، وإنَّما ذٰلك لهوى نفسه واتِّباع شهوته. ﴿ولكلِّ قوم هادٍ﴾؛ أي: داعٍ يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلَّة والبراهين ما يدلُّ على صحَّة ما معهم من الهدى.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿٨ ـ ٩﴾ يخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطِّلاعه وإحاطته بكلِّ شيء، فقال: ﴿اللّٰه يعلمُ ما تحمِلُ كلُّ أنثى﴾: من بني آدم وغيرهم، ﴿وما تَغيضُ الأرحامُ﴾؛ أي: تَنْقُصُ مما فيها، إما أن يَهْلِكَ الحمل أو يتضاءل أو يضمحلَّ، ﴿وما تزدادُ﴾: الأرحام وتكبر الأجنَّة التي فيها. ﴿وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ﴾: لا يتقدَّم عليه ولا يتأخَّر ولا يزيد ولا يَنْقُص إلَّا بما تقتضيه حكمته وعلمه؛ فإنَّه ﴿عالمُ الغيب والشهادةِ الكبيرُ﴾: في ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿المتعالِ﴾: على جميع خلقه بذاتِهِ وقدرته وقهره.

﴿١٠﴾ ﴿سواءٌ منكم﴾: في علمه وسمعه وبصره، ﴿مَنْ أسرَّ القول ومن جَهَرَ به ومن هو مستخفٍ بالليل﴾؛ أي: مستقرٌّ بمكان خفي فيه، ﴿وساربٌ بالنهار﴾؛ أي: داخل سربه في النهار، والسربُ هو ما يستخفي[٢] فيه الإنسان: إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذٰلك.

﴿١١﴾ ﴿له﴾؛ أي: للإنسان ﴿معقباتٌ﴾: من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار، ﴿من بين يديهِ ومن خلفِهِ يحفظونه من أمر اللّٰه﴾؛ أي: يحفظون بدنه وروحه من كلِّ مَن يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً؛ فكما أنَّ علم اللّٰه محيطٌ به؛ فاللّٰه قد أرسل هٰؤلاء الحفظة على العباد بحيث لا تَخفى أحوالهم ولا أعمالهم ولا يُنسَى منها شيء. ﴿إنَّ اللّٰه لا يغيِّر ما بقوم﴾: من

(١) في (ب): «وافتراه».

(٢) في (ب): «ما يختفي».

النعمة والإحسان ورَغَدِ العيش، ﴿حتَّى يغيِّروا ما بأنفسِهم﴾: بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم اللّه إلى البطر بها، فيسلُبُهم اللّه عند ذٰلك إياها، وكذٰلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة اللّه؛ غيَّر اللّه عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة. ﴿وإذا أراد اللّه بقوم سوءاً﴾؛ أي: عذاباً وشدَّة وأمراً يكرهونه؛ فإنَّ إرادته لا بدَّ أن تنفذ فيهم، فإنه ﴿لا مردَّ له﴾، ولا أحد يمنعهم منه، ﴿وما لهم من دونِهِ من والٍ﴾: يتولَّى أمورهم، فيجلب لهم المحبوبَ، ويدفع عنهم المكروهَ. فَلْيَحْذروا من الإقامة على ما يكره اللّه؛ خشية أن يحلَّ بهم من العقاب ما لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى: ﴿هو الذي يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً﴾؛ أي: يُخاف منه الصواعق والهدم وأنواع الضَّرر على بعض الثمار ونحوها، ويُطمع في خيره ونفعه، ﴿ويُنشِىء السَّحاب الثِّقال﴾: بالمطر الغزير الذي به نفعُ العباد والبلاد.

﴿١٣﴾ ﴿ويسبِّح الرعدُ بحمده﴾: وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب المزعج للعباد؛ فهو خاضعٌ لربِّه، مسبِّح بحمده، ﴿و﴾ تسبِّح ﴿الملائكةُ من خِيفتِهِ﴾؛ أي: خُشَّعاً لربهم خائفين من سطوتِهِ، ﴿ويرسل الصواعقَ﴾: وهي هٰذه النار التي تخرج من السحاب. ﴿فيصيبُ بها مَن يشاءُ﴾: من عباده بحسب ما شاءه وأراده. ﴿وهو شديدُ المحال﴾؛ أي: شديد الحَوْل والقوَّة؛ فلا يريد شيئاً إلَّا فعله، ولا يتعاصى عليه شيءٌ، ولا يفوتُه هاربٌ. فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبِّر الأمور وتخضع له المخلوقاتُ العظام التي يُخاف منها وتزعِجُ العباد، وهو شديد القوة؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ وحده لا شريك له، ولهٰذا قال:

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: للّه وحده ﴿دعوةُ الحقِّ﴾: وهي عبادته وحده لا شريك له،

وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى؛ أي: هو الذي ينبغي أن يُصرف له الدعاء والخوف والرجاء والحبُّ والرغبة والرهبة والإنابة؛ لأنَّ ألوهيَّته هي الحقُّ، وألوهيَّة غيره باطلة. فـ﴿الذينَ يدعونَ من دونه﴾: من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله، ﴿لا يستجيبون لهم﴾؛ أي: لمن يَدْعوها ويعبُدها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدُّنيا ولا من أمور الآخرة. ﴿إلَّا كباسط كفَّيه إلى الماء﴾: الذي لا تناله كفَّاه لبعدِهِ؛ ﴿ليبلغَ﴾: ببسط كفَّيه إلى الماء ﴿فاه﴾؛ فإنَّه عطشان، ومن شدَّة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه؛ فلا يصلُ إليه؛ كذٰلك الكفار الذين يدعون معه آلهةً لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشدِّ الأوقات إليهم حاجةً؛ لأنَّهم فقراء؛ كما أنَّ من دعوهم فقراء ﴿لا يملكون مثقال ذرَّة في السمٰوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِرْك وما له منهم من ظهير﴾، ﴿وما دعاءُ الكافرين إلَّا في ضلال﴾: لبطلان ما يَدْعون من دون الله، فبطلت عبادتُهم ودعاؤهم؛ لأنَّ الوسيلة تَبْطُلُ ببطلان غايتها، ولما كان اللهُ تعالى هو الملك الحق المبين؛ كانت عبادتُه حقًّا متَّصلة النفع بصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفَّيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإنَّ ذٰلك تشبيهٌ بأمرٍ مُحال؛ فكما أن هٰذا محالٌ؛ فالمشبَّه به محالٌ، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماء ولا يدخلونَ الجنَّةَ حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلُّها خاضعةٌ لربِّها، تسجد له ﴿طوعاً وكرهاً﴾: فالطَّوْع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالمؤمنين، والكَرْهُ لمن يستكبر عن عبادة ربِّه، وحالُه وفطرتُه تكذِّبه في ذٰلك. ﴿وظلالُهم بالغُدوِّ والآصال﴾؛ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أوَّلَ النهار وآخره، وسجودُ كلِّ شيء بحسب حاله؛ كما قال تعالى: ﴿وإن مِن شيءٍ إلَّا يسبِّحُ بحمدِهِ ولٰكن لا تفقهونَ تسبيحَهم﴾؛ فإذا كانت المخلوقات كلُّها تسجد لربِّها طوعاً وكرهاً؛ كان هو الإلٰه حقًّا، المعبود المحمود حقًّا، وإلٰهيَّة غيره باطلة، ولهٰذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ أي: قل لهٰؤلاء المشركين به أوثاناً وأنداداً؛ يحبُّونها كما يحبُّون اللّه، ويبذُلون لها أنواع التقرُّبات والعبادات: أفتاهتْ عقولكم حتى اتَّخذتم من دونه أولياء تتولَّونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذٰلك؛ فإنَّهم ﴿لا يملِكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا﴾، وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخَلْق والتدبير والنفع والضُّرُّ؛ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا ﴿تستوي الظلماتُ والنور﴾: فإنْ كان عندهم شكٌّ واشتباهٌ وجعلوا له شركاء، زعموا أنَّهم خلقوا كخَلْقه، وفعلوا كفعله؛ فأزِلْ عنهم هٰذا الاشتباه واللَّبس بالبرهان الدالِّ على تَوَحُّدِ الإله بالوحدانيَّة، فقل لهم: اللّهُ خالقُ كلِّ شيء؛ فإنه من المحال أن يَخْلُقَ شيءٌ من الأشياء نفسَه، ومن المحال أيضاً أن يوجدَ مِن دون خالقٍ، فتعيَّن أنَّ لـهـا إلٰهاً خالقاً لا شريك له في خلقه؛ لأنَّه الواحدُ القهَّارُ؛ فإنَّه لا توجد الوحدة والقهر إلَّا للّه وحده؛ فالمخلوقات كلُّ مخلوق فوقه مخلوقٌ يقهره، ثم فوق ذٰلك القاهر قاهرٌ أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار؛ فالقهر والتوحيد متلازمان متعيِّنان للّه وحده، فتبيَّن بالدليل العقليِّ القاهر أنَّ ما يُدعى من دون اللّه ليس له شيء من خَلْق المخلوقات، وبذٰلك كانت عبادته باطلة.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٧﴾ شبَّه تعالى الهدى الذي أنزل[1] على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح. وشبَّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطرُّ إليه العباد بما في المطر من النفع العامِّ الضروريِّ. وشبَّه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فَوادٍ كبيرٌ يَسَعُ ماءً كثيراً كقلبٍ كبيرٍ يسعُ علماً كثيراً، ووادٍ صغيرٌ يأخذ ماءً قليلاً كقلبٍ صغيرٍ يسعُ علماً

(١) في (ب): «أنزله».

قليلاً. . . وهٰكذا. وشبَّه ما يكون في القلوب من الشهوات والشُّبهات عند وصول الحقِّ إليها بالزَّبد الذي يعلو الماءَ ويعلو ما يوقَدُ عليه النار من الحلية التي يُراد تخليصُها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافيةً مكدِّرةً له حتى تذهب وتضمحلَّ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة، كذٰلك الشبهاتُ والشَّهوات لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحلَّ ويبقى القلبُ خالصاً صافياً ليس فيه إلَّا ما ينفعُ الناس من العلم بالحقِّ وإيثاره والرغبة فيه؛ فالباطل يذهبُ ويَمْحَقُهُ الحقُّ؛ ﴿إنَّ الباطل كان زهوقاً﴾، وقال هنا: ﴿كذٰلك يضرِبُ الله الأمثال﴾: ليتَّضح الحقُّ من الباطل والهدى من الضلال.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٨﴾ لما بيَّن تعالى الحقَّ من الباطل؛ ذَكَرَ أنَّ الناس على قسمين: مستجيب لربِّه فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه، فقال: ﴿للذين استجابوا لربِّهم﴾؛ أي: انقادت قلوبُهم للعلم والإيمان، وجوارحُهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربِّهم فيما يريده منهم؛ فلهم ﴿الحسنى﴾؛ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن؛ فلهم من الصفات أجلُّها، ومن المناقب أفضلُها، ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾: بعدما ضَرَبَ لهم الأمثال وبيَّن لهم الحقَّ لهم الحالةُ غير الحسنة. فـ﴿لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً﴾: من ذهب وفضةٍ وغيرهما، ﴿ومثلَه معه لافتَدَوْا به﴾: من عذاب يوم القيامة؛ ما تُقُبِّلَ منهم. وأنَّى لهم ذٰلك؟! ﴿أولٰئك لهم سوء الحساب﴾: وهو الحساب الذي يأتي على كلِّ ما أسلفوه من عمل سيىء وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده، قد كُتِبَ ذٰلك وسُطِرَ عليهم: ﴿وقالوا يا وَيْلَتَنا مالِ هٰذا الكتابِ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووَجَدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلمُ ربُّك أحداً﴾. ﴿و﴾ بعد هٰذا الحساب السيىء، ﴿مأواهم جهنَّم﴾: الجامعة لكلِّ عذابٍ من الجوع الشديد والعطش الوجيع والنار الحامية والزقُّوم والزمهرير والضَّريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب. ﴿وبئس المهادُ﴾؛ أي: المَقَرُّ والمسكن مسكنهم.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ

بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ يقول تعالى: مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدِّهم: ﴿أفَمَن يعلمُ أنَّما أنزلَ إليك من ربِّك الحقُّ﴾: ففهم ذٰلك وعمل به. ﴿كَمَنْ هو أعمى﴾: لا يعلم الحقَّ ولا يعمل به؛ فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض؛ فحقيقٌ بالعبد أن يتذكَّر ويتفكَّر، أيُّ الفريقين أحسن حالاً وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كلُّ أحدٍ يتذكَّر ما ينفعه ويضره. ﴿إنَّما يتذكَّر أولو الألباب﴾؛ أي: أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة، الذين هم لبُّ العالم وصفوةُ بني آدم. فإن سألتَ عن وصفِهم؛ فلا تجدُ أحسن من وصف الله لهم بقوله: ﴿الذين يُوفونَ بعهدِ اللهِ﴾: الذي عَهِدَهُ إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة؛ فالوفاء بها توفيتها حقَّها من التتميم لها والنصح فيها، **ومن تمام** الوفاء بها أنَّهم ﴿لا ينقُضون الميثاقَ﴾؛ أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه[1]، فدخل في ذٰلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنُّذور التي يعقِدُها العباد، فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملةً وعدم نقضها وبخسها.

﴿٢١﴾ ﴿والذين يصِلونَ ما أمرَ اللهُ به أن يوصَلَ﴾: **وهٰذا عامٌّ في** كلِّ ما أمر الله بوصله من الإيمان به وبرسوله ومحبَّته ومحبَّة رسوله والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرِّهم بالقول والفعل وعدم عقوقهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وفعلاً، ويصلون ما بينَهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك بأداء حقِّهم كاملاً موفَّراً من الحقوق الدينيَّة والدنيويَّة. والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصَلَ خشيةُ الله وخوفُ يوم الحساب، **ولهٰذا** قال: ﴿ويَخشَونَ ربَّهم﴾؛ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفُهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجرَّؤوا على معاصي الله أو يقصروا

(١) في (ب): «عاهدوا عليه الله».

في شيء ممَّا أمر اللّه به؛ خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب.

﴿٢٢﴾ ﴿والذين صبروا﴾: على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيَّات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار اللّه المؤلمة بعدم تسخُّطها، ولٰكن بشرط أن يكون ذٰلك الصبر ﴿ابتغاءَ وجهِ ربِّهم﴾: لا لغير ذٰلك من المقاصد والأغراض الفاسدة؛ فإنَّ هٰذا الصبر النافع، الذي يَحْبِسُ به العبد نفسه طلباً لمرضاة ربِّه ورجاءً للقرب منه والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايتُهُ التجلُّد ومنتهاه الفخر؛ فهٰذا يصدُرُ من البَرِّ والفاجر والمؤمن والكافر؛ فليس هو الممدوح على الحقيقة. ﴿وأقاموا الصَّلاة﴾: بأركانها وشروطها ومكمِّلاتها ظاهراً وباطناً. ﴿وأنفقوا مما رزقْناهم سرًّا وعلانية﴾: دخل في ذٰلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقات[1] المستحبَّة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجةُ إلى النفقة سرًّا وعلانيةً. ﴿ويدرؤونَ بالحسنةِ السيئةَ﴾؛ أي: مَن أساء إليهم بقول أو فعل؛ لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، فيعطون من حَرَمَهم، ويعفون عمَّن ظَلَمهم، ويصِلون من قَطَعهم، ويحسِنون إلى مَن أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان؛ فما ظنُّك بغير المسيء. ﴿أولٰئك﴾: الذين وُصِفَتْ صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة؛ ﴿لهم عُقبى الدار﴾.

﴿٢٣ ـ ٢٤﴾ فسَّرها بقوله: ﴿جناتُ عدنٍ﴾؛ أي: إقامةٍ لا يزولون عنها ولا يبغون عنها حِوَلاً؛ لأنَّهم لا يرون فوقها غايةً؛ لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات، ومن تمام نعيمهم وقرَّة أعينهم أنَّهم ﴿يدخُلونها ومَن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرِّيَّاتهم﴾: من الذكور والإناث وأزواجهم؛ أي: الزوج أو الزوجة، وكذٰلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب؛ فإنَّهم من أزواجهم وذُرِّيَّاتهم. ﴿والملائكةُ يدخُلون عليهم من كلِّ بابٍ﴾: يهنونهم بالسلامة وكرامة اللّه لهم، ويقولون: ﴿سلامٌ عليكم﴾؛ أي: حلَّت عليكم السلامة والتحيَّة من اللّه وحَصَلَت لكم، وذٰلك متضمِّنٌ لزوال كلِّ مكروه ومستلزمٌ لحصول كل محبوب ﴿بما صبرتُم﴾؛ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هٰذه المنازل العالية والجنان الغالية. ﴿فنعم عُقبى الدار﴾: فحقيقٌ بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة أن يجاهِدَها لعلَّها تأخُذُ من أوصاف أولي الألباب بنصيب،

(١) في النسختين: «والنفقات» مكرّرة مرتين.

ولعلها تحظى بهٰذه الدار التي هي مُنْيَةُ النفوسِ وسرورُ الأرواحِ الجامعة لجميع اللَّذَّات والأفراح؛ فلمِثْلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ لما ذكر حال أهل الجنة؛ ذكر أنَّ أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: ﴿**والذين ينقُضون عهد الله من بعد ميثاقِهِ**﴾؛ أي: من بعدما أكَّده عليهم على أيدي رسله وغلَّظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض. ﴿**ويقطَعون ما أمر الله به أن يوصَلَ**﴾: فلم يَصِلوا ما بينهم وبين ربِّهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدَّوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي والصدِّ عن سبيل الله وابتغائها عوجاً. ﴿**أولئك لهم اللعنةُ**﴾؛ أي: البعد والذمُّ من الله وملائكته وعباده المؤمنين. ﴿**ولهم سوء الدار**﴾: وهي الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ أي: هو وحده يوسِّع الرزق ويبسُطه على من يشاء ويَقْدِره ويضيِّقه على مَن يشاء. ﴿**وفرحوا**﴾؛ أي: الكفار ﴿**بالحياة الدنيا**﴾: فرحاً أوجب لهم أن يطمئنُّوا بها ويغفلوا عن الآخرة، وذٰلك لنقصان عقولهم. ﴿**وما الحياة الدُّنيا في الآخرة إلَّا متاعٌ**﴾؛ أي: شيء حقيرٌ يُتَمَتَّع به قليلاً ويفارق أهله وأصحابه ويُعْقِبُهم وَيلاً طويلاً.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أنَّ الذين كفروا بآيات الله يتعنَّتون على رسول الله ويقترحون ويقولون: ﴿**لولا أنزلَ عليه آيةٌ من ربِّه**﴾: وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿**قل إنَّ الله يُضِلُّ مَن يشاء ويهدي إليه من أنابَ**﴾؛ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذٰلك متوقِّفاً على الآيات، ومع ذٰلك؛ فهم كاذبون فـ ﴿لو أننا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلَّمهم الموتى وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤمنوا إلَّا أنْ يشاء الله ولٰكنَّ أكثرهم يجهلونَ﴾.

ولا يلزمُ أن يأتي الرسولُ بالآية التي يعيِّنونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآيةٍ تبيِّنُ ما جاء به من الحقِّ؛ كفى ذٰلك وحصل المقصودُ وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعيِّنونها؛ فإنَّها لو جاءتهم طِبْقَ ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها؛ لعاجلهم العذاب.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر اللّه﴾؛ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضُرُها أفراحها ولذَّاتها. ﴿ألا بذكرِ اللّه تطمئنُّ القلوب﴾؛ أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئنَّ لشيءٍ سوى ذكره؛ فإنَّه لا شيء ألذُّ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قَدْرِ معرفتها باللّه ومحبَّتها له يكون ذِكْرُها له، هٰذا على القول بأنَّ ذكرَ اللّه ذِكْرُ العبد لربِّه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك، وقيل: إن المراد بذِكْر اللّه كتابُه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين؛ فعلى هٰذا معنى طمأنينة القلب بذكر اللّه أنها حين تَعْرِفُ معاني القرآن وأحكامه تطمئنُّ لها؛ فإنَّها تدل على الحقِّ المبين المؤيَّد بالأدلة والبراهين، وبذٰلك تطمئنُّ القلوب؛ فإنَّها لا تطمئنُّ إلا باليقين والعلم، وذٰلك في كتاب اللّه مضمونٌ على أتمِّ الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجِعُ إليه؛ فلا تطمئنُّ بها، بل لا تزال قلقةً من تعارض الأدلَّة وتضادِّ الأحكام، ﴿ولو كان من عندِ غيرِ اللّه لَوَجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾، وهٰذا إنما يعرفه من خَبَرَ كتابَ اللّه، وتدبَّره، وتدبَّر غيره من أنواع العلوم؛ فإنَّه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً.

﴿٢٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: آمنوا بقلوبهم باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدَّقوا هٰذا الإيمان بالأعمال الصالحة؛ أعمال القلوب كمحبة اللّه وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها. ﴿طوبى لهم وحسنُ مآب﴾؛ أي: لهم حالةٌ طيبةٌ ومرجع حسنٌ، وذٰلك بما ينالون من رضوان اللّه وكرامته في الدنيا والآخرة، وإنَّ لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذٰلك شجرةُ طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلِّها مائة عام ما يقطعُها؛ كما وردت بها الأحاديث الصحيحة[1].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ

(١) رواية: أن طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام عند الإمام أحمد (٣/ ٧١)، وأبي يعلى (١٣٧٤)، وابن حبان (٧٤١٣)، وقد جاء الحديث عند البخاري (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦) وغيرهما دون ذكر اسم الشجرة (طوبى)، وانظر «الصحيحة» (١٩٨٥). والله أعلم.

يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿كذٰلك أرسلناك﴾: إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿قد خَلَتْ من قبلها أممٌ﴾: أرسلنا فيهم رسلنا، فلستَ ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك، ولستَ تقول من تلقاءِ نفسك، بل تتلو عليهم آياتِ اللّه، التي أوْحاها اللّه إليك، التي تطهِّر القلوب وتزكِّي النفوس، والحال أنَّ قومك يكفرون بالرحمٰن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه ـ التي أعظمها أنْ أرسلناك إليهم رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً ـ بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والردِّ؛ أفلا يعتبرون بمَنْ خلا من قبلهم من القرون المكذِّبة كيف أخذهم اللّه بذنوبهم؟ ﴿قل هو ربِّي لا إلٰه إلَّا هو﴾: وهٰذا متضمِّن [للتوحيدين]: توحيد الألوهيَّة وتوحيد الربوبيَّة؛ فهو ربي الذي ربَّاني بنعمِهِ منذ أوجدني، وهو إلٰهي الذي ﴿عليه توكلتُ﴾ في جميع أموري وإليه أنيب[1]؛ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ يقول تعالى مبيِّناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزَّلة: ﴿ولو أنَّ قرآناً﴾: من الكتب الإلـهيَّة، ﴿سُيِّرتْ به الجبال﴾: عن أماكنها، و﴿قُطِّعت به الأرضُ﴾: جناناً وأنهاراً، و﴿كُلِّم به الموتى﴾: لكان هٰذا القرآن. ﴿بل للّه الأمرُ جميعاً﴾: فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته؛ فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟! فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء؟! ﴿أفلم ييأسِ الذين آمنوا أن لو يشاءُ اللّه لهدى الناسَ جميعاً﴾: فليعلموا أنَّه قادرٌ على هدايتهم جميعاً، ولٰكنه لا يشاء ذٰلك، بل يهدي مَنْ يشاء ويُضِلُّ من يشاء. ﴿ولا يزالُ الذين كفروا﴾: على كفرهم لا يعتبرون ولا يتَّعظون، واللّه تعالى يوالي عليهم القوارعَ التي تصيبُهم في ديارهم أو تَحُلُّ قريباً منها وهم مصرُّون على كفرهم. ﴿حتى يأتي وعدُ اللّه﴾: الذي وَعَدَهم به لنزول العذاب المتَّصل الذي لا يمكن رفعُه. ﴿إنَّ اللّه

(١) كذا في النسختين وتمام الآية: ﴿وإليه متاب﴾.

لا يخلِفُ الميعاد﴾: وهذا تهديدٌ لهم وتخويفٌ من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لرسوله مثبِّتاً له ومسلياً: ﴿ولقد استُهزِىء برسل من قبلِكَ﴾: فلستَ أوَّلَ رسول كُذِّب وأوذِيَ. ﴿فأمليتُ للذين كفروا﴾: برسلهم؛ أي: أمهلتهم مدة حتى ظنُّوا أنَّهم غيرُ معذَّبين، ﴿ثم أخذتُهم﴾: بأنواع العذاب. ﴿فكيف كان عقابِ﴾: كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً؛ فلا يغترَّ هؤلاء الذين كذَّبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا؛ فلهم أسوةٌ فيمن قبلهم من الأمم، فليحذَروا أن يُفْعَلَ بهم كما فُعِلَ بأولئك.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبتْ﴾: بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى؛ كمن ليس كذلك. ولهذا قال: ﴿وجعلوا للهِ شركاءَ﴾: وهو اللهُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لا شريك له ولا ندَّ ولا نظير. ﴿قل﴾: لهم إن كانوا صادقين: ﴿سموهم﴾: لِتَعْلَمَ حالَهم. ﴿أم تنبِّئونه بما لا يعلم في الأرض﴾: فإنَّه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً؛ عُلِمَ بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنَّكم بمنزلة الذي يُعْلِمُ اللهَ أنَّ له شريكاً وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون! ولهذا قال: ﴿أم بظاهرٍ من القول﴾؛ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم، وأما في الحقيقة؛ فلا إله إلا الله، وليس أحدٌ من الخلق يستحقُّ شيئاً من العبادة. ولكن ﴿زُيِّنَ للذين كفروا مكرُهم﴾: الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله. ﴿وصدُّوا عن السبيل﴾؛ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته. ﴿ومن يُضْلِلِ الله فما له من هادٍ﴾: لأنه ليس لأحدٍ من الأمر شيءٌ.

﴿٣٤﴾ ﴿لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ولعذابُ الآخرة أشقُّ﴾: من عذاب الدُّنيا؛

لشدَّته ودوامه. ﴿وما لهم من الله من واقٍ﴾: يقيهم من عذابِ [اللّهِ]؛ فعذابُهُ إذا وجَّهه إليهم لا مانع منه.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتَّقون﴾: الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصِّروا فيما أمرهم به؛ أي: صفتها وحقيقتها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾: أنهار العسل وأنهار الخمر وأنهار اللبن وأنهار الماء التي تجري في غير أخدودٍ، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار. ﴿أُكُلُها دائمٌ وظلُّها﴾: دائمٌ أيضاً. ﴿تلك عُقبى الذين اتَّقوا﴾؛ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون. ﴿وعُقبى الكافرين النار﴾: فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتابَ﴾؛ أي: منَنًّا عليهم به وبمعرفته، ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾: فيؤمنون به ويصدِّقونه ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض وتصديق بعضها بعضاً، وهٰذه حال مَنْ آمن مِنْ أهل الكتابين. ﴿ومن الأحزاب مَن ينكِرُ بعضه﴾؛ أي: ومن طوائف الكفار المتحربين على الحقِّ من ينكر بعض هٰذا القرآن ولا يصدقه؛ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ؛ فإنما يضلُّ عليها، إنما أنت يا محمد منذرٌ تدعو إلى اللّه. ﴿قل إنَّما أمِرْتُ أن أعبدَ اللّه ولا أشرك به﴾؛ أي: بإخلاص الدين للّه وحده. ﴿إليه أدعو وإليه مآبِ﴾؛ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمتُ به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ أي: ولقد أنزلنا هٰذا القرآن والكتاب ﴿حُكْماً عربيًا﴾؛ أي: محكماً متقناً بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلَّا يقع فيه شكٌّ واشتباهٌ، وليوجب أن يُتَّبع وحدَه ولا يُداهن فيه ولا يتَّبع ما يضادُّه ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون، ولهٰذا توعَّد رسوله ـ مع أنه معصومٌ ـ ليمتنَّ عليه بعصمته، ولتكون أمَّته أسوتَه في الأحكام،

فقال: ﴿ولئن اتَّبعتَ أهواءهم بعدما جاءك من العلم﴾: البيِّن، الذي ينهاك عن اتِّباع أهوائهم. ﴿ما لك من اللّه من وليٍّ﴾: يتولَّاك فيحصل لك الأمر المحبوب. ﴿ولا واقٍ﴾: يقيك من الأمر المكروه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك. فقد ﴿أرسلْنا رسلاً من قبلِكَ وجعَلْنا لهم أزواجاً وذُرِّيَّة﴾: فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواجٌ وذُرِّيَّة كما كان لإخوانك المرسلين؛ فلأيِّ شيء يقدحون فيك بذٰلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذٰلك إلَّا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم، وإن طلبوا منك آيةً اقترحوها؛ فليس لك من الأمر شيء. فما ﴿كان لرسول أن يأتي بآيةٍ إلَّا بإذنِ اللّه﴾: واللّه لا يأذن فيها إلَّا في وقتها الذي قدَّره وقضاه. ﴿لكلِّ أجل كتابٌ﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخَّر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجباً لأنْ يقدِّم اللّه ما كتب أنه يؤخِّر، مع أنَّه تعالى فعَّالٌ لما يريد.

﴿٣٩﴾ ﴿يمحو اللّه ما يشاءُ﴾: من الأقدار، ﴿ويُثْبِتُ﴾: ما يشاء منها، وهٰذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمُه وكَتَبَه قلمُه؛ فإنَّ هٰذا لا يقع فيه تبديلٌ ولا تغييرٌ؛ لأنَّ ذٰلك محالٌ على اللّه أن يقع في علمِهِ نقصٌ أو خللٌ، ولهٰذا قال: ﴿وعنده أمُّ الكتاب﴾؛ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجِعُ إليه سائر الأشياء؛ فهو أصلها، وهي فروعٌ [له] وشعبٌ؛ فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب؛ كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ويجعل اللّه لثبوتها أسباباً ولمحوها أسباباً، لا تتعدَّى تلك الأسباب ما رُسِم في اللوح المحفوظ؛ كما جعل اللّه البرَّ والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة، وجعل التعرُّض لذٰلك سبباً للعطب؛ فهو الذي يدبِّر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبِّره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعَدون [به] من

العذاب؛ فهم إن استمرُّوا على طغيانهم وكفرهم؛ فلا بدَّ أن يصيبَهم ما وُعِدوا به: إما أنْ نرينَّك إيَّاه في الدنيا فتَقَرَّ بذٰلك عينك، أو نتوفَّيَنَّكَ قبل إصابتهم؛ فليس ذٰلك شغلاً لك. ﴿فإنما عليك البلاغ﴾: والتبيين للخلق، ﴿وعلينا الحسابُ﴾: فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيَّعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

﴿٤١﴾ ثم قال متوعِّداً للمكذبين: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرضَ ننقُصُها من أطرافها﴾: قيل: بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذٰلك من الأقوال. والظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ المراد بذٰلك أنَّ أراضي هٰؤلاء المكذِّبين جعل الله يفتحها ويجتاحها ويُحِلُّ القوارع بأطرافها تنبيهاً لهم قبل أن يجتاحهم النقص ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يردُّه أحدٌ، ولهٰذا قال: ﴿والله يحكم لا مُعَقِّبَ لحكمِهِ﴾: ويدخل في هٰذا حكمه الشرعيُّ والقدريُّ والجزائيُّ؛ فهٰذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنيَّة على القسط والعدل والحمد؛ فلا يتعقَّبها أحدٌ، ولا سبيل إلى القدح فيها؛ بخلاف حكم غيره؛ فإنَّه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه. ﴿وهو سريع الحساب﴾؛ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب؛ فإنَّ كل ما هو آتٍ فهو قريبٌ.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾: برسلهم وبالحقِّ الذي جاءت به الرسل، فلم يُغْنِ عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً؛ فإنَّهم يحاربون الله ويبارزونه. ﴿فلله المكرُ جميعاً﴾؛ أي: لا يقدر أحدٌ أن يمكر مكراً إلَّا بإذنه وتحت قضائه وقدره؛ فإذا كانوا يمكرون بدينه؛ فإنَّ مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم؛ فإنَّ الله ﴿يعلم ما تكسِبُ كلُّ نفسٍ﴾؛ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة، والمكر لا بدَّ أن يكون من كسبها؛ فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكراً يضرُّ الحقَّ وأهله ويفيدهم شيئاً. ﴿وسيعلم الكفَّار لمن عُقبى الدار﴾؛ أي: أَلَهُمْ أَوْ لِرُسُلِه؟ ومن المعلوم أنَّ العاقبةَ للمتَّقِينَ لِلْكُفرِ، وَأَعْمَالِه.

﴿٤٣﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لستَ مرسلاً﴾؛ أي: يكذِّبونك ويكذِّبون ما أرسلت

به. ﴿قل﴾ لهم إن طلبوا على ذٰلك شهيداً: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينَكم﴾: وشهادته بقوله وبفعله وإقراره: أما قوله؛ فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يُثْبِتُ به رسالته. وأما فعله؛ فلأنَّ الله تعالى أيَّد رسوله ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهٰذا شهادةٌ منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره؛ فإنَّه أخبر الرسول عنه أنه رسول[1]، وأنه أمر الناس باتباعه؛ فمن اتَّبعه؛ فله رضوانُ الله وكرامته، ومن لم يتَّبعه؛ فله النار والسخط، وحلَّ له مالُه ودمه، والله يقرُّه على ذٰلك؛ فلو تقوَّل عليه بعض الأقاويل؛ لعاجله بالعقوبة.

﴿ومَنْ عندَه علمُ الكتاب﴾: وهٰذا شاملٌ لكلِّ علماء أهل الكتابين؛ فإنَّهم يشهدون للرسول، من آمن واتَّبع الحقَّ، صرَّح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذٰلك؛ فإخبار الله عنه أنَّ عنده شهادةً أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادةٌ؛ لردَّ استشهاده بالبرهان؛ فسكوته يدلُّ على أن عنده شهادةً مكتومةً، وإنَّما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنَّهم أهل هٰذا الشأن، وكلُّ أمر إنما يُستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم؛ بخلاف مَنْ هو أجنبيٌّ عنه؛ كالأميِّين من مشركي العرب وغيرهم؛ فلا فائدة في استشهادهم؛ لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) في (ب): «رسوله».

﴿١ ـ ٢﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ؛ لنفع الخلق؛ ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيِّئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة. وقوله: ﴿بإذن ربِّهم﴾؛ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب للّه إلا بإرادةٍ من اللّه ومعونة؛ ففيه حثٌّ للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسَّر النور الذي يهديهم إليه هٰذا الكتاب، فقال: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾؛ أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحقِّ والعمل به. وفي ذكر العزيز الحميد بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أنَّ مَنْ سَلَكه؛ فهو عزيزٌ بعزِّ اللّه، قويٌّ ولو لم يكن له أنصار إلَّا اللّه، محمودٌ في أموره، حسن العاقبة، وليدلَّ ذٰلك على أنَّ صراطَ اللّه من أكبر الأدلَّة على ما للّه من صفات الكمال ونعوت الجلال، وأنَّ الذي نصبه لعباده عزيزُ السلطان حميدٌ في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوهٌ معبودٌ بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتدبيراً؛ فله الحكم على عباده بأحكامه الدينيَّة؛ لأنَّهم ملكه، ولا يَليق به أن يترُكَهم سدىً. فلما بيَّن الدليل والبرهان؛ توعَّد مَن لم يَنْقَدْ لذٰلك، فقال: ﴿وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديدٍ﴾: لا يقدَّر قَدْره، ولا يوصَفُ أمره.

﴿٣﴾ ثم وصفهم بأنهم الذين استحبوا ﴿الحياة الدُّنيا على الآخرة﴾: فرضوا بها واطمأنوا وغفلوا عن الدار الآخرة. ﴿ويصدُّون﴾ الناس ﴿عن سبيل اللّه﴾: التي نَصَبها لعباده وبيَّنها في كتبه وعلى ألسنة رسله؛ فهٰؤلاء قد نابَذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة. ﴿ويَبْغونها﴾؛ أي: سبيل اللّه ﴿عوجاً﴾؛ أي: يحرصون على تهجينها وتقبيحها للتنفير عنها، ولٰكن يأبى اللّه إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون. ﴿أولئك﴾: الذين ذُكِر وصفهم ﴿في ضلال بعيد﴾: لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا وشاقُّوا اللّهَ ورسولَهُ وحاربوهما؛ فأيُّ ضلال أبعدُ من هٰذا؟! وأما أهل الإيمان؛ فبعكس هٰؤلاء؛ يؤمنون باللّه وآياته، ويستحبُّون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل اللّه، ويحسِّنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ وهٰذا من لطفه بعباده أنَّه ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه؛ ليبيِّن لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكَّنون من تعلُّم ما أتى به، بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم؛

فإنهم يحتاجون إلى تعلُّم[١] تلك اللغة التي يتكلَّم بها، ثم يفهمون عنه. فإذا بيَّن [لهم] الرسول ما أمروا به ونُهوا عنه وقامت عليهم حجَّة اللّه؛ ﴿فيضلُّ اللّه مَن يشاء﴾: ممَّن لم ينقذ للهدى، ﴿ويَهْدي من يشاء﴾: ممَّن اختصَّه برحمته. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾: الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهٰذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيُّن كلامه وكلام رسوله أمورٌ مطلوبةٌ محبوبةٌ للّه؛ لأنَّه لا يتمُّ معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في حالة[٢] لا يحتاجون إليها، وذٰلك إذا تمرَّنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصار طبيعةً لهم؛ فحينئذٍ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا على أن[٣] يَتلقَّوا عن اللّه وعن رسوله ابتداءً، كما تلقَّى عنهم الصحابة رضي اللّه عنهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالَّة على صدق ما جاء به وصحَّته، وأمره بما أمر اللّه به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم: ﴿أن أخرِجْ قومك من الظلمات إلى النور﴾؛ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه. ﴿وذكِّرْهم بأيام اللّه﴾؛ أي: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبأيَّامه في الأمم المكذِّبين ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه. ﴿إنَّ في ذٰلك﴾؛ أي: في أيام اللّه على العباد، ﴿لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شكور﴾؛ أي: صبار في الضرَّاء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة؛ فإنَّه يستدلُّ بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه وتمام عدله وحكمته.

---

(١) في (ب): «إلى أن يتعلموا».
(٢) في (ب): «بحالة».
(٣) في (ب): «وصلحوا لأن».

﴿٦﴾ ولهٰذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربِّه، فذكَّرهم نعم اللّه، فقال: ﴿اذكروا نعمة اللّه عليكم﴾؛ أي: بقلوبكم وألسنتكم، ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم﴾؛ أي: يُولُونكم، ﴿سوء العذاب﴾؛ أي: أشده. وفسَّر ذٰلك بقوله: ﴿ويذبِّحون أبناءكم ويَسْتَحْيون نساءكم﴾؛ أي: يبقونهنَّ فلا يقتلونهنَّ. ﴿وفي ذٰلكم﴾: الانجاء ﴿بلاءٌ من ربِّكم عظيمٌ﴾؛ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذٰلكم العذاب الذي ابتُليتم به من فرعون وملئه ابتلاءٌ من اللّه عظيمٌ لكم لينظر هل تصبرون أم لا.

﴿٧﴾ وقال لهم حاثًّا على شكر نعم اللّه: ﴿وإذ تأذَّن ربُّكم﴾؛ أي: أعلم ووعد، ﴿لئن شكرتُم لأزيدنَّكم﴾: من نعمي، ﴿ولئن كفرتُم إن عذابي لشديدٌ﴾: ومن ذٰلك أنْ يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكرُ: هو اعتراف القلب بنعم اللّه، والثناء على اللّه بها، وصرفها في مرضاة اللّه تعالى. وكفر النعمة ضدُّ ذٰلك.

﴿٨﴾ ﴿وقال موسى إن تكفُروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾: فلن تضرُّوا اللّه شيئاً، فإنَّ اللّه غنيٌّ حميدٌ، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميدٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلاّ كل صفة حمدٍ وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلَّا كل فعل جميل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ
أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ
فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى مخوِّفاً عباده ما أحلَّه بالأمم المكذِّبة حين جاءتهم الرسل فكذَّبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال: ﴿ألم يأتِكم نبأ الذين من قبلكم قومُ نوح وعادٍ وثمودَ﴾: وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها. ﴿والذين من بعدِهم لا يعلمُهم إلَّا الله﴾: من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست؛ فهٰؤلاء كلُّهم ﴿جاءتهم رسلُهم بالبيناتِ﴾؛ أي: بالأدلة الدالَّة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمِنُ على مثلِهِ البشرُ؛ فحين أتتهم رسلُهم بالبينات؛ لم ينقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿فردُّوا أيدِيَهم في أفواههم﴾؛ أي: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يتفوَّهوا بشيء مما يدلُّ على الإيمان؛ كقوله: ﴿جعلوا أصابِعَهم في آذانهم من الصواعِقِ حَذَرَ الموت﴾. ﴿وقالوا﴾ صريحاً لرسلهم: ﴿إنَّا كَفَرْنا بما أرسِلْتم به وإنا لفي شكٍّ مما تدعوننا إليه مريبٍ﴾؛ أي: موقع في الريبة.

﴿١٠﴾ وقد كذبوا في ذٰلك وظلموا، ولهٰذا ﴿قالتْ﴾ لهم ﴿رسُلُهم أفي الله شكٌّ﴾؛ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها؛ فمن شَكَّ في الله ﴿فاطرِ السمٰواتِ والأرضِ﴾: الذي وجود الأشياء مستندٌ إلى وجوده؛ لم يكن عنده ثقةٌ بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة. ولهٰذا خاطبتهم الرسل خطابَ من لا يشكُّ فيه، ولا يصلح الريب فيه. ﴿يدعوكم﴾: إلى منافعكم ومصالحكم، ﴿ليغفرَ لكم من ذنوبكم ويؤخِّرَكم إلى أجل مسمًّى﴾؛ أي: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعُكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم. فردُّوا على رسلهم ردَّ السفهاء الجاهلين، ﴿وقالوا﴾ لهم: ﴿إنْ أنتم إلَّا بشرٌ مثلُنا﴾؛ أي: فكيف تَفْضُلوننا بالنبوة والرسالة؟ ﴿تريدون أن تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا﴾: فكيف نترُكُ رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟! وكيف نطيعكم وأنتم بشرٌ مثلنا؟! ﴿فأتونا بسلطانٍ مبينٍ﴾؛ أي: بحجَّة وبيِّنة ظاهرة، ومرادهم بيِّنة يقترحونها هم، وإلَّا؛ فقد تقدَّم أنَّ رسلَهم جاءتهم بالبينات.

﴿١١﴾ ﴿قالت لهم رسلهم﴾ مجيبين لاقتراحهم[1] واعتراضهم: ﴿إن نحن إلَّا بشرٌ مثلُكم﴾؛ أي: صحيح وحقيقة أنَّا بشرٌ مثلكم. ﴿ولٰكن﴾ ليس في ذٰلك ما يدفعُ ما جئنا به من الحقِّ؛ فإنَّ ﴿الله يَمُنُّ على مَن يشاء من عبادِهِ﴾؛ فإذا منَّ الله علينا بوحيه ورسالته؛ فذٰلك فضله وإحسانه، وليس لأحدٍ أن يَحْجُرَ على الله فضله

(١) في (ب): «عن اقتراحهم».

ويمنعه من تفضله؛ فانظروا ما جئناكم به؛ فإنْ كان حقًّا؛ فاقبلوه، وإن كان غير ذٰلك؛ فردُّوه، ولا تجعلوا حالنا حجَّة لكم على ردِّ ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فائتونا بسلطانٍ مبين﴾، فإنَّ هٰذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء. ﴿وما كان لنا أن نأتِيَكم بسلطانٍ إلَّا بإذن اللّه﴾: فهو الذي إن شاء جاءكم به وإن شاء لم يأتِكُم به، وهو لا يفعل إلَّا ما هو مقتضى حكمته ورحمته. ﴿وعلى اللّه﴾: لا على غيره، ﴿فليتوكَّل المؤمنون﴾: فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارِّهم؛ لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرتِهِ وعميم إحسانه، ويثقون به في تيسير ذٰلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكونُ توكُّلهم. فعُلم بهٰذا وجوب التوكُّل وأنَّه من لوازم الإيمان ومن العبادات الكبار التي يحبُّها اللّه ويرضاها لتوقُّف سائر العبادات عليه.

﴿١٢﴾ ﴿وما لنا أن لا نتوكَّل على اللّه وقد هدانا سُبُلَنا﴾؛ أي: أيُّ شيء يمنعنا من التوكُّل على اللّه والحال أننا على الحقِّ والهدى، ومن كان على الحقِّ والهدى؛ فإنَّ هداه يوجب له تمام التوكُّل، وكذٰلك ما يُعْلَمُ من أنَّ اللّه متكفِّل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذٰلك؛ بخلاف من لم يكن على الحقِّ والهدى؛ فإنَّه ليس ضامناً على اللّه؛ فإنَّ حاله مناقضةٌ لحال المتوكِّل؟! وفي هٰذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآيةٍ عظيمةٍ، وهو أنَّ قومهم في الغالب أنَّ لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدَّتهم رسلُهم بأنَّهم متوكِّلون على اللّه في دفع كيدهم ومكرهم، وجازمون بكفايته إيَّاهم، وقد كفاهم اللّه شرَّهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحقِّ، فيكون هٰذا كقول نوح لقومِهِ: ﴿يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات اللّه فعلى اللّه توكَّلْتُ فأجمِعوا أمرَكم وشُركاءَكم ثمَّ لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إليَّ ولا تُنظِرونِ...﴾ الآيات، وقول هود عليه السلام: ﴿قالَ إنِّي أُشهِدُ اللّه واشهَدوا أني بريءٌ مما تشرِكونَ من دونِهِ فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرونِ﴾. ﴿ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتُمونا﴾: ولنستمرنَّ على دعوتِكم ووعظِكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى؛ فإنَّا سنوطِّن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى؛ احتساباً للأجر ونصحاً لكم، لعلَّ اللّه أن يهدِيَكم مع كثرة التذكير. ﴿وعلى اللّه﴾: وحدَه لا على غيره، ﴿فليتوكَّل المتوكِّلون﴾: فإنَّ التوكُّل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكُّلهم في أعلى المطالب وأشرف

المراتب، وهي التوكُّل على اللّه في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضَّلال عنهم. وهٰذا أكمل ما يكون من التوكُّل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٣﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذٰلك وعدم مللهم؛ ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم﴾: متوعِّدين لهم: ﴿لَنُخرِجَنَّكم من أرضِنا أو لَتعودُنَّ في مِلَّتنا﴾: وهٰذا أبلغ ما يكون من الردِّ، وليس بعد هٰذا فيهم مطمع؛ لأنَّه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعَّدوهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوها إلى أنفسهم، وزعموا أنَّ الرسل لا حقَّ لهم فيها، وهٰذا من أعظم الظُّلم؛ فإنَّ اللّه أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخَّر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته؛ فمن استعان بذٰلك على عبادة اللّه؛ حلَّ له ذٰلك وخرج من التَّبِعة، ومن استعان بذٰلك على الكفر وأنواع المعاصي؛ لم يكن ذٰلك خالصاً له ولم يحلَّ له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي تَوَعَّدوا الرسل بإخراجهم منها. وإن رجَعْنا إلى مجرَّد العادة؛ فإنَّ الرسل من جملة أهل بلادهم وأفراد منهم؛ فلأيِّ شيء يمنعونهم حقًّا لهم صريحاً واضحاً؟! هل هٰذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟! **ولهٰذا** لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هٰذه الحال؛ ما بقي حينئذٍ إلَّا أن يُمضي اللّه أمره وينصر أولياءه. ﴿فأوحى إليهم ربُّهم لَنُهلِكَنَّ الظالمين﴾: بأنواع العقوبات.

﴿١٤﴾ ﴿ولَنُسكِنَنَّكُمُ الأرض من بعدهم ذٰلك﴾؛ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها اللّه للرسل ومَنْ تَبِعَهم جزاء، ﴿لِمَنْ خاف مقامي﴾: عليه في الدنيا، وراقب اللّه مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيدِ﴾؛ أي: ما توعَّدت به مَنْ عصاني؛ فأوجب له ذٰلك الانكفاف عمَّا يكرهُهُ اللّه والمبادرة إلى ما يحبُّه اللّه.

﴿١٥﴾ ﴿واستفتحوا﴾؛ أي: الكفار؛ أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فَتْحَ اللّه وفرقانَهُ بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلَّا؛ فاللّه حليمٌ، لا يعاجِل

من عصاه بالعقوبة. ﴿وخابَ كلُّ جبارٍ عنيدٍ﴾؛ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبَّر على الله وعلى الحقِّ وعلى عباد الله، [واستكبر][(١)] في الأرض، وعاند الرسل، وشاقَّهم.

﴿١٦﴾ ﴿من ورائه جهنَّمُ﴾؛ أي: جهنَّم لهٰذا الجبار العنيد بالمرصاد؛ فلا بدَّ له من ورودها، فيذاق حينئذٍ العذاب الشديد. ﴿ويُسْقى من ماءٍ صديدٍ﴾: في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿١٧﴾ ﴿يَتَجَرَّعُه﴾: من العطش الشديد، ﴿ولا يكادُ يُسيغُهُ﴾: فإنه إذا قرب إلى وجهه؛ شواه، وإذا وصل إلى بطنه؛ قطع ما أتى عليه من الأمعاء، ﴿ويأتيه الموتُ من كلِّ مكان وما هو بميِّتٍ﴾؛ أي: يأتيه العذاب الشديد من كلِّ نوع من أنواع العذاب، وكلُّ نوع منه من شدَّته يبلغ إلى الموت، ولٰكنَّ الله قضى أن لا يموتوا؛ كما قال تعالى: ﴿لا يُقْضى عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها كذٰلك نَجْزي كلَّ كفورٍ﴾. وهم يصطرخون فيها، ﴿ومن ورائِه﴾؛ أي: الجبار العنيد ﴿عذابٌ غليظٌ﴾؛ أي: قويٌّ شديدٌ لا يعلم بوصفه وشدَّته إلا الله تعالى.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبِّر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله بأنَّها في ذَهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدقُّ الأشياء وأخفها إذا اشتدَّت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب؛ فإنَّه لا يُبقي منه شيئاً ولا يُقْدَرُ منه على شيء يذهب ويضمحلُّ؛ فكذٰلك أعمال الكفار، ﴿لا يقدِرونَ ممَّا كسبوا على شيء﴾، ولا على مثقال ذرَّة منه؛ لأنَّه مبنيٌّ على الكفر والتكذيب. ﴿ذٰلك هو الضلال البعيد﴾: حيث بَطَلَ سعيُهم واضمحلَّ عملُهم. **وإمَّا** أنَّ المراد بذٰلك أعمال الكفار التي عملوها لِيَكيدوا بها الحقَّ؛ فإنَّهم يسعون ويكدحون في ذٰلك، ومكرهم عائدٌ عليهم، ولن يضرُّوا الله ورسله وجنده وما معهم من الحقِّ شيئاً.

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «استكبروا».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٩﴾ ينبِّه تعالى عباده بأنه ﴿خلَقَ السمٰوات والأرض بالحقِّ﴾؛ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أنَّ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ـ على عظمهما وسعتهما ـ قادرٌ على أن يعيدَهم خلقاً جديداً؛ ليجازِيَهم بإحسانهم وإساءتهم، وأنَّ قدرته ومشيئته لا تَقْصُرُ عن ذٰلك.

ولهٰذا قال: ﴿إنْ يَشأ يُذهِبْكم ويأتِ بخَلْقٍ جديدٍ﴾: **يُحتمل** أنَّ المعنى: إنْ يشأ يُذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوعَ للّٰه منكم. **ويُحتمل** أنَّ المراد: إنْ يشأ يُفْنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقاً جديداً. ويدلُّ على هٰذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

﴿٢٠﴾ ﴿وما ذٰلك على الله بعزيزٍ﴾؛ أي: بممتنع، بل هو سهلٌ عليه جدًّا، ﴿ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكم إلا كنفس واحدةٍ وهو الذي يبدأ الخَلْق ثم يعيدُه وهو أهونُ عليه﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وبرزوا﴾؛ أي: الخلائق ﴿للّه جميعاً﴾: حين يُنفخُ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربِّهم، فيقفون في أرض مستوية، قاع صفصفٍ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ويبرُزون له لايخفى عليه منهم خافيةٌ؛ فإذا برزوا؛ صاروا يتحاجُّون، وكلٌّ يدفع عن نفسه ويدافع ما يقدر عليه، ولٰكن أنَّى لهم ذٰلك؟! فيقول ﴿الضعفاء﴾؛ أي: التابعون والمقلِّدون، ﴿للذين استكبروا﴾: وهم المتبوعون الذين هم قادة في الضَّلال: ﴿إنَّا كنَّا لكم تَبعاً﴾؛ أي: في الدنيا أمرتمونا بالضلال وزيَّنتموه لنا فأغويتمونا. ﴿فهل أنتم﴾ اليوم ﴿مُغنون عنَّا من عذاب الله من شيء﴾؛ أي: ولو مثقال ذرَّة فلو ﴿قالوا﴾؛ أي: المتبوعون والرؤساء: أغويناكم كما غوينا، فَـ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾؛ فلا يُغني أحدٌ أحداً. ﴿سواءٌ علينا أجزِعْنا﴾: من العذاب، ﴿أم صَبَرْنا﴾: عليه. ﴿ما لنا من مَحيصٍ﴾؛ أي: [من] ملجأ نلجأ إليه، ولا مَهْرَبَ لنا من عذاب الله.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: ﴿وقال الشيطان﴾: الذي هو سببٌ لكلِّ شرٍّ يقع ووقع في العالم خاطباً لأهل النار ومتبرئاً منهم، ﴿لمَّا قُضِيَ الأمر﴾: ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ: ﴿إنَّ الله وَعَدَكم وعدَ الحقِّ﴾: على ألسنة رسله فلم تطيعوه؛ فلو أطعتموه؛ لأدركتم الفوز العظيم. ﴿ووعدتُكم﴾: الخير، ﴿فأخلفتُكم﴾؛ أي: لم يحصُلْ ولن يحصُلَ لكم ما منَّيتكم به من الأماني الباطلة. ﴿وما كان لي عليكُم من سلطانٍ﴾؛ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إلَّا أن دعوتُكم فاستجبتُم لي﴾؛ أي: هٰذه نهاية ما عندي أني دعوتُكم إلى مُرادي وزيَّنته لكم فاستجبتُم لي اتِّباعاً لأهوائكم وشهواتكم؛ فإذا كانت الحال بهٰذه الصورة؛ ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾: فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب. ﴿ما أنا بمصرِخِكم﴾؛ أي: بمغيثكم من الشدَّة التي أنتم بها، ﴿وما أنتم بمصرخيَّ﴾: كلٌّ له قسطٌ من العذاب. ﴿إنِّي كفرتُ بما أشركتمونِ من قبلُ﴾؛ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله، ولا تجب طاعتي. ﴿إنَّ الظالمين﴾: لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لهم عذابٌ أليمٌ﴾: خالدين فيه أبداً. وهٰذا من لطف الله بعباده أن حذَّرهم من طاعة الشيطان، وأخبر بمداخلِهِ التي يدخل منها على الإنسان ومقاصدِهِ فيه، وأنه يقصدُ أن يدخله النيران.

وهنا بيَّن لنا أنَّه إذا دخل النار وجندُه[1]؛ أنَّه يتبرَّأ منهم هٰذه البراءة، ويكفُر بشركِهِم، ولا ينبِّئك مثل خبير. واعلم أن الله ذكر في هٰذه الآية أنه ليس له سلطانٌ، وقال في آية أخرى: ﴿إنَّما سُلطانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هم به مشركونَ﴾؛ فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجَّة والدليل، فليس له حجَّة أصلاً على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذٰلك أن يُقيم لهم من الشُّبَه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي، وأما السلطان الذي أثبته؛ فهو التسلُّط بالإغراء على

---

(١) في (ب): «وحزبه».

المعاصي لأوليائه يؤزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وهم الذين سلَّطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، **ولهٰذا** ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر عقاب الظالمين؛ ذكر ثواب الطائعين، فقال: **﴿وأُدْخِلَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**؛ أي: قاموا بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً، **﴿جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾**: فيها من اللَّذَّات والشَّهَوات ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشرٍ. **﴿خالدين فيها بإذنِ ربِّهم﴾**؛ أي: لا بحولهم وقوَّتهم، بل بحول الله وقوته. **﴿تحيَّتُهم فيها سلامٌ﴾**؛ أي: يحيِّي بعضُهم بعضاً بالسلام والتحية والكلام الطيب.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: **﴿ألم تَرَ كيف ضَرَبَ الله مثلاً كلمةً طيبةً﴾**: وهي شهادة أن لا إلٰه إلا الله وفروعها **﴿كشجرةٍ طيبةٍ﴾**: وهي النخلة **﴿أصلُها ثابتٌ﴾**: في الأرض. **﴿وفرعُها﴾**: منتشرٌ **﴿في السماء﴾**: وهي كثيرة النفع دائماً.

﴿٢٥﴾ **﴿تؤتي أكُلَها﴾**؛ أي: ثمرتها، **﴿كلَّ حين بإذن ربِّها﴾**: فكذٰلك شجرة الإيمان أصلُها ثابتٌ في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، وفرعُها من الكلم الطيِّب والعمل الصالح والأخلاق المرضيَّة والآداب الحسنة في السماء دائماً، يصعَدُ إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرِجُها شجرة الإيمان، ما ينتفعُ به المؤمن وينتفع غيره، **﴿ويضرِبُ الله الأمثالَ للناس لعلَّهم يتذكَّرون﴾**: ما أمرهم به ونهاهم عنه؛ فإنَّ في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبيَّن المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتَّضح غاية الوضوح، **وهٰذا** من رحمته وحسن تعليمه؛ فللَّه أتمُّ الحمد وأكمله وأعمُّه. فهٰذه صفة كلمة التوحيد، وثباتُها في قلب المؤمن.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر ضدَّها، وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: **﴿ومَثَلُ كلمةٍ خبيثة كشجرةٍ خبيثةٍ﴾**: المأكل والمطعم، وهي شجرة الحنظل ونحوها. **﴿اجتُثَّت﴾**: هٰذه الشجرة **﴿من فوق الأرض ما لها من قرارٍ﴾**؛ أي: [من] ثبوت؛ فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتِجُها، بل إنْ وُجِدَ فيها ثمرةٌ؛ فهي ثمرةٌ خبيثة، كذٰلك

كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوتٌ نافعٌ في القلب، ولا تثمِرُ إلا كلَّ قولٍ خبيثٍ وعملٍ خبيثٍ يستضر به صاحبه، ولا ينتفعُ، ولا[1] يصعدُ إلى اللّه منه عملٌ صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أنه يثبِّت عباده المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبيِّ التامِّ، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمِّرها، فيثبتهم اللّه: في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبُّه اللّه على هوى النفس ومرادها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلاميِّ والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟[2] هداهم للجواب الصحيح بأن يقولَ المؤمن: اللّهُ ربِّي، والإسلامُ ديني، ومحمدٌ نبيِّي. ﴿ويضِلُّ اللّه الظالمين﴾: عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم اللّه ولٰكنَّهم ظلموا أنفسهم.

وفي هٰذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه؛ كما تواترت بذٰلك النصوص عن النبيِّ ﷺ في الفتنة وصفتها ونعيم القبر وعذابه.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبيناً حال المكذِّبين لرسوله من كفار قريش وما آلَ إليه أمرُهم: ﴿ألم تَرَ إلى الذين بدَّلوا نعمة اللّه كفراً﴾: ونعمة اللّه هي إرسال

---

(١) في (ب): «فلا».

(٢) كما في حديث البراء بن عازب في قصة خروجه مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار: أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبي، ووافقهما الألباني في «أحكام الجنائز» ص(١٥٩).

محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدُّنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدُّنيا والآخرة، فبدَّلوا هٰذه النعمة بردِّها والكفر بها والصدِّ عنها بأنفسهم وصدِّهم غيرهم حتى ﴿أحلُّوا قومَهم دار البوارِ﴾: وهي النار؛ حيث تسبَّبوا لإضلالهم، فصاروا وبالاً على قومهم من حيث يُظَنُّ نفعهم، ومن ذٰلك أنهم زيَّنوا لهم الخروج يوم بدر ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقُتِلَ كثيرٌ من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة.

﴿٢٩﴾ ﴿جهنم يَصْلَوْنها﴾؛ أي: يحيط بهم حرُّها من جميع جوانبهم. ﴿وبئس القرارُ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾؛ أي: نظراء وشركاء، ﴿ليُضِلُّوا عن سبيله﴾؛ أي: ليضلُّوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودَعْوِهم إلى عبادتها. ﴿قل﴾ لهم متوعِّداً: ﴿تمتَّعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً؛ فليس ذٰلك بنافعكم، ﴿فإنَّ مصيركم إلى النار﴾؛ أي: مآلكم ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غايةُ صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصةَ قبل أن لا يمكنهم ذٰلك، ﴿يُقيموا الصلاة﴾: ظاهراً وباطناً، ﴿وينفِقوا مما رَزَقْناهم﴾؛ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلاً أو كثيراً، ﴿سرًّا وعلانيةً﴾: وهٰذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبَّة كالصدقات ونحوها. ﴿مِن قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خِلالٌ﴾؛ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات؛ لا بمعاوضة بيع وشراءٍ، ولا بهبة خليل وصديق؛ فكل امرىءٍ له شأنٌ يغنيه؛ فليقدِّم العبد لنفسه، ولينظرْ ما قدَّمه لغدٍ، وليتفقدْ أعماله، ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يخبر تعالى أنَّه وحده ﴿الذي خلق السمٰواتِ والأرضَ﴾: على اتِّساعهما وعظمهما، ﴿وأنزل من السماء ماءً﴾: وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب، فأخرج بذٰلك الماء ﴿من الثمراتِ﴾: المختلفة الأنواع، ﴿رزقاً لكم﴾: ورزقاً لأنعامكم. ﴿وسخَّر لكم الفُلْكَ﴾؛ أي: السفن والمراكب، ﴿لتجرِيَ في البحر بأمرِهِ﴾: فهو الذي يسَّر لكم صنعتها وأقْدَرَكم عليها وحَفِظَها على تيار الماء لتحمِلَكم وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم إلى بلدٍ تقصدونه. ﴿وسخَّرَ لكم الأنهارَ﴾: لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿٣٣﴾ ﴿وسخَّر لكم الشمسَ والقمر دائِبَيْنِ﴾: لا يفتران ولا يَنيان، يسعَيان لمصالحكم من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم وحيواناتكم وزروعكم وثماركم. ﴿وسخَّر لكم الليل﴾: لتسكُنوا فيه، ﴿والنهار﴾ مبصراً لتبتغوا من فضله.

﴿٣٤﴾ ﴿وآتاكم من كلِّ ما سألتُموه﴾؛ أي: أعطاكم من كلِّ ما تعلَّقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إيَّاه بلسان الحال أو بلسان المقال من أنعام وآلاتٍ وصناعاتٍ وغير ذٰلك. ﴿وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تُحْصوها﴾: فضلاً عن قيامكم بشكرها. ﴿إنَّ الإنسان لظلومٌ كفَّارٌ﴾؛ أي: هٰذه طبيعة الإنسان من حيثُ هو ظالمٌ متجرِّئٌ على المعاصي مقصِّرٌ في حقوق ربِّه، كفَّار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترفُ بها؛ إلَّا مَن هداه الله فشكَرَ نِعَمَهُ، وعَرَفَ حقَّ ربِّه وقام به.

ففي هٰذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيءٌ عظيمٌ مجملٌ ومفصَّلٌ يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثُّهم على ذٰلك، ويرغِّبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار؛ كما أنَّ نعمته تتكرَّر عليهم في جميع الأوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ
أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ
وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ
إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا

وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ] ﴿٤١﴾﴾[1].

﴿٣٥﴾ أي: ﴿و﴾ اذكرْ إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هٰذه الحالة الجميلة. ﴿إذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هٰذا البلد﴾؛ أي: الحرم ﴿آمناً﴾: فاستجاب اللّه دعاءه شرعاً وقدراً، فحرمه اللّه في الشرع، ويسَّر من أسباب حرمته قَدَراً ما هو معلوم، حتى إنه لم يرِدْه ظالمٌ بسوءٍ إلَّا قصمه اللّه؛ كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم. ولما دعا له بالأمن؛ دعا له ولبنيه بالأمن، فقال: ﴿واجْنُبْني وبَنِيَّ أن نعبُدَ الأصنام﴾؛ أي: اجعلني وإيَّاهم جانباً بعيداً عن عبادتها والإلمام بها.

﴿٣٦﴾ ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة مَن افتتن وابتُلِيَ بعبادتها. فقال: ﴿ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من الناس﴾؛ أي: ضلوا بسببها، ﴿فمن تَبِعَني﴾: على ما جئتُ به من التوحيد والإخلاص للّه ربِّ العالمين ﴿فإنَّه منِّي﴾: لتمام الموافقة، ومن أحبَّ قوماً وتبعهم؛ التحق بهم. ﴿ومَنْ عصاني فإنَّك غفورٌ رحيم﴾: وهٰذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من اللّه، واللّه تبارك وتعالى أرحمُ منه بعباده، لا يعذِّب إلَّا من تمرَّد عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿ربَّنا إني أسكنتُ من ذُرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتِكَ المحرَّم﴾: وذٰلك أنَّه أتى بهاجر أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرَّضاع من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي إذ ذاك ليس فيها سكنٌ ولا داعٍ ولا مجيب، فلما وضعهما؛ دعا ربَّه بهٰذا الدعاء، فقال متضرِّعاً متوكِّلاً على ربِّه: رب ﴿إني أسكنتُ من ذُرِّيَّتي﴾؛ أي: لا كل ذُرِّيَّتي؛ لأنَّ إسحاق في الشام وباقي بنيه كذٰلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته. وقوله: ﴿بواد غير ذي زَرْع﴾؛ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة. ﴿ربَّنا لِيقيموا الصلاةَ﴾؛ أي: اجعلهم موحِّدين مقيمين الصلاة؛ لأنَّ إقامة الصلاة من أخصِّ وأفضل العبادات الدينيَّة؛ فمنْ أقامها كان مقيماً لدينه. ﴿فاجْعَلْ أفئدةً من الناس تَهْوي إليهم﴾؛ أي: تحبُّهم وتحبُّ الموضع الذي هم ساكنون فيه. فأجاب اللّه دعاءه، فأخرج من ذريَّة إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذرِّيَّته إلى الدين الإسلاميِّ وإلى ملَّة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة. وافترض اللّه حجَّ هٰذا البيت الذي أسكن به ذريَّته

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

إبراهيم، وجعل فيه سرًّا عجيباً جاذباً للقلوب؛ فهي تحجُّه ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلَّما أكثر العبدُ التردُّد إليه؛ ازداد شوقُه وعظُم وَلَعُه وتَوْقُه، وهٰذا سرُّ إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة. ﴿وارزُقْهم من الثمرات لعلَّهم يشكرون﴾: فأجاب اللّه دعاءه، فصار يُجبى إليه ثمرات كل شيء؛ فإنك ترى مكة المشرفة كلَّ وقت، والثمارُ فيها متوفِّرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿ربَّنا إنك تعلم ما نُخفي وما نُعْلِنُ﴾؛ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسِّر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها ما هو مُقتضى علمك ورحمتك. ﴿وما يخفى على اللّهِ من شيءٍ في الأرض ولا في السماء﴾: ومن ذٰلك هٰذا الدعاء الذي لم يَقْصِدْ به الخليل إلا الخير وكثرة الشكر للّه ربِّ العالمين.

﴿٣٩﴾ ﴿الحمد للّه الذي وَهَبَ لي على الكِبَرِ إسماعيل وإسحاقَ﴾: فَهِبَتُهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمةٌ أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجلُّ وأفضل. ﴿إنَّ ربِّي لسميع الدعاء﴾؛ أي: لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوتُه فلم يخيِّبْ رجائي.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ ثم دعا لنفسه ولذرِّيَّته، فقال: ﴿ربِّ اجعلني مقيم الصَّلاة ومن ذُرِّيَّتي ربَّنا وتقبَّل دُعاء. ربَّنا اغفِرْ لي ولوالديَّ وللمؤمنين يومَ يقومُ الحساب﴾: فاستجاب اللّه له في ذٰلك كلِّه؛ إلَّا أنَّ دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدةٍ وعدها إيَّاه، فلما تبيَّن له أنه عدوٌّ للّه؛ تبرَّأ منه.

ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ هٰذا وعيدٌ شديد للظالمين وتسلية للمظلومين؛ يقول تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ اللّه غافلاً عما يعملُ الظالمون﴾: حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق وتركَهم يتقلَّبون في البلاد آمنين مطمئنِّين؛ فليس في هٰذا ما يدلُّ على حسن حالهم؛ فإنَّ اللّه يُملي للظالم ويُمْهِلُه ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه؛ لم يُفْلِتْه، ﴿وكذٰلك أخْذُ ربِّك إذا أَخَذَ القُرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ﴾. والظلم ها هنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربِّه وظلمه لعباد اللّه. ﴿إنما يؤخِّرُهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار﴾؛

أي: لا تطرف من شدَّة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿٤٣﴾ ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناعَ لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقنعي رؤوسهم﴾؛ أي: رافعيها، قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذٰلك رؤوسهم، ﴿لا يرتدُّ إليهم طرفُهم وأفئِدَتُهم هواء﴾؛ أي: أفئدتهم فارغةٌ من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنَّها مملوءةٌ من كل همٍّ وغمٍّ وحزن وقلق.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿وأنذِرِ الناس يوم يأتيهم العذابُ﴾؛ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذِّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله، فيقول الذين ظلموا بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿ربَّنا أخِّرنا إلى أجل قريبٍ﴾؛ أي: رُدَّنا إلى الدُّنيا؛ فإنَّا قد أبصرنا؛ ﴿نُجِبْ دعوتَكَ﴾: والله يدعو إلى دار السلام، ﴿ونتَّبع الرُّسل﴾: وهٰذا كلُّه لأجل التخلُّص من العذاب الأليم، وإلَّا؛ فهم كَذَبَةٌ في هٰذا الوعد؛ فلو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه، ولهٰذا يوبَّخون ويُقال لهم: ﴿أولم تكونوا أقسمتُمْ من قبلُ ما لكم من زوالٍ﴾: عن الدُّنيا وانتقال إلى الآخرة؛ فها قد تبيَّن لكم حنثكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدَّعون.

﴿٤٥﴾ ﴿و﴾ ليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿سكنتُم في مساكن الذين ظلموا أنفُسَهم وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم﴾: من أنواع العقوبات، وكيف أحلَّ الله بهم العقوبات حين كذَّبوا بالآيات البينات، ﴿وضَرَبْنا لكم الأمثالَ﴾: الواضحة التي لا تَدَعُ أدنى شكٍّ في القلب إلا أزالته، فلم تنفعْ فيكم تلك الآيات، بل أعرضتُم ودمتُم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتُم إلى هٰذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذارُ مَنِ اعتذر بباطل.

﴿٤٦﴾ ﴿وقد مكروا﴾؛ أي: المكذِّبون للرسل ﴿مكرَهم﴾: الذي وصلت

إراداتهم وقدرهم عليه، ﴿وعند الله مكرُهم﴾؛ أي: هو محيطٌ به علماً وقدرةً، فإنه عاد مكرُهم عليهم، ولا يَحيق المكر السيىء إلَّا بأهله. ﴿وإنْ كان مكرُهم لِتزول منه الجبالُ﴾؛ أي: ولقد كان مكرُ الكفار المكذِّبين للرسل بالحقِّ وبمن جاء به من عظمه لِتزولَ الجبالُ الراسيات بسببه عن أماكنها؛ أي: مكروا مكراً كُبَّاراً لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولٰكن الله ردَّ كيدهم في نحورهم. ويدخل في هٰذا كلُّ مَنْ مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلاً أو يبطل حقًّا، والقصد أنَّ مكرهم لم يغنِ عنهم شيئاً ولم يضرُّوا الله شيئاً، وإنَّما ضروا أنفسهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى: ﴿فلا تحسبنَّ الله مُخْلِفَ وعدِهِ رسلَه﴾: بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة؛ فهٰذا لا بدَّ من وقوعه؛ لأنَّه وعد به الصادقُ قولاً على ألسنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهٰذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابقٌ للحكمة الإلٰهيَّة والسنن الربانيَّة وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيءٌ؛ فإنَّه ﴿عزيزٌ ذو انتقام﴾؛ أي: إذا أراد أن ينتقم من أحدٍ؛ فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذٰلك في يوم القيامة.

﴿٤٨﴾ ﴿يوم تُبدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسمٰوات﴾: تُبدَّلُ غيرَ السماوات، وهٰذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات؛ فإنَّ الأرض يوم القيامة تُسوَّى وتُمَدُّ كمدِّ الأديم، ويُلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلَم، فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتكونُ السماء كالمهل من شدَّة أهوال ذٰلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه. ﴿وبرزوا﴾؛ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم في محلٍّ لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿لله الواحد القهار﴾؛ أي: المنفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكلِّ العوالم؛ فكلُّها تحت تصرُّفه وتدبيره؛ فلا يتحرَّك منها متحرِّك، ولا يسكنُ ساكنٌ إلَّا بإذنِهِ.

﴿٤٩﴾ ﴿وترى المجرمين﴾؛ أي: الذين وصفُهم الإجرامُ وكثرة الذنوب في

ذٰلك اليوم، ﴿مقرَّنين في الأصفادِ﴾؛ أي: يُسَلْسَلُ كلُّ أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نارٍ، فيُقادون إلى العذاب في أذلِّ صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿٥٠﴾ ﴿سرابيلُهم﴾؛ أي: ثيابهم ﴿من قَطِرانٍ﴾: وذٰلك لشدَّة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها، ﴿وتَغْشى وجوهَهم﴾: التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿النارُ﴾؛ أي: تحيط بها، وتَصلاها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى.

﴿٥١﴾ وليس هٰذا ظلماً من اللّه [لهم]، وإنما هو جزاءٌ لما قدَّموا وكسبوا، ولهٰذا قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللّه كلَّ نفس ما كَسَبَتْ﴾: من خير وشرٍّ بالعدل والقِسْط الذي لا جَوْر فيه بوجه من الوجوه. ﴿إنَّ اللّه سريعُ الحساب﴾؛ كقوله تعالى: ﴿اقتربَ للناس حسابُهم وهم في غفلةٍ معرضونَ﴾، ويُحتمل أن معناه سريع المحاسبة؛ فيحاسِبُ الخلق في ساعة واحدةٍ كما يرزقهم ويدبِّرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدةٍ، لا يشغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، وليس ذٰلك بعسير عليه.

﴿٥٢﴾ فلما بيَّن البيان المبين في هٰذا القرآن؛ قال في مدحه: ﴿هٰذا بلاغٌ للناس﴾؛ أي: يتبلَّغون به ويتزوَّدون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات؛ لما اشتمل عليه من الأصول والفروع وجميع العلوم التي يحتاجها العباد، ﴿ولِيُنْذَروا به﴾: لما فيه من الترهيب من أعمال الشرِّ وما أعدَّ اللّه لأهلها من العقاب، ﴿ولِيَعْلموا أنَّما هو إلٰهٌ واحدٌ﴾: حيث صرف فيه من الأدلَّة والبراهين على ألوهيَّته ووحدانيَّته ما صار ذٰلك حق اليقين، ﴿ولِيَذَّكَّرَ أولو الألباب﴾؛ أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرُّهم فيتركونه، وبذٰلك صاروا أولي الألباب والبصائر؛ إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنوَّرت أفكارهم لَمَّا أخذوه غضًّا طريًّا؛ فإنَّه لا يدعو إلَّا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدلُّ على ذٰلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها، وهٰذه القاعدة إذا تدرَّب بها العبد الذكيُّ؛ لم يزل في صعود ورقيٍّ على الدوام في كلِّ خصلة حميدة. والحمد للّه رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

❀ ❀ ❀

تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى معظِّماً لكتابه مادحاً له: ﴿تلك آياتُ الكتابِ﴾؛ أي: الآيات الدالَّة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، ﴿وقرآنٍ مُبينٍ﴾: للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدلِّه على المقصود.

﴿٢﴾ وهٰذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه والتسليم لحكمه وتلقِّيه بالقَبول والفرح والسرور، فأما من قابل هٰذه النعمة العظيمة بردِّها والكفر بها؛ فإنَّه من المكذِّبين الضالِّين، الذين سيأتي عليهم وقتٌ يتمنَّوْن أنهم مسلمون؛ أي: منقادون لأحكامه، وذٰلك حين ينكشف الغطاء وتظهرُ أوائل الآخرة ومقدِّمات الموت؛ فإنهم في أحوال الآخرة كلِّها يتمنَّون أنهم مسلمون، وقد فات وقتُ الإمكان، ولٰكنَّهم في هٰذه الدُّنيا مغترُّون.

﴿٣﴾ فـ﴿ذَرهم يأكلوا ويتمتَّعوا﴾: بلذاتهم، ﴿ويلههم الأمل﴾؛ أي: يؤمِّلون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فسوف يعلمونَ﴾: أنَّ ما هم عليه باطلٌ، وأنَّ أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم، ولا يغترُّوا بإمهال الله تعالى؛ فإنَّ هٰذه سنته في الأمم.

﴿٤﴾ ﴿وما أهلكْنا من قريةٍ﴾: كانت مستحقةً للعذاب، ﴿إلَّا ولها كتابٌ معلوم﴾: مقدَّر لإهلاكها.

﴿٥﴾ ﴿ما تسبقُ من أمَّةٍ أجلَها وما يستأخِرون﴾: وإلَّا؛ فالذنوب لا بدَّ من وقوع أثرها وإن تأخَّر.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

﴿٦﴾ أي: وقال المكذبون لمحمَّد ﷺ استهزاءً وسخريةً: ﴿يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذِّكر﴾: على زعمك، ﴿إنَّك لمجنون﴾: إذ تظنُّ أنا سنتَّبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرَّد قولك.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿لو ما تأتينا بالملائكةِ﴾: يشهدون لك بصحَّة ما جئت به، ﴿إن كنتَ من الصادقين﴾: فلما لم تأت بالملائكةِ؛ فلستَ بصادق. وهٰذا من أعظم الظُّلم والجهل: أما الظُّلم؛ فظاهر؛ فإنَّ هٰذا تجرؤ على الله وتعنُّت بتعيين الآيات التي لم يخترْها، وحَصَلَ المقصودُ والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالَّة على صحَّة ما جاء به. وأما الجهلُ؛ فإنَّهم جهلوا مصلحتهم من مضرَّتهم؛ فليس في إنزال الملائكة خيرٌ لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلَّا بالحقِّ الذي لا إمهال على مَنْ لم يتَّبعه وينقد له. ﴿وما كانوا إذاً﴾؛ أي: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا ولن يؤمنوا، ﴿مُنظَرين﴾؛ أي: بمُمْهَلينَ، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار؛ فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿ولو أنَّنا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلَّمهم الموتى وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيء قُبُلاً ما كانوا لِيؤمنوا إلَّا أن يشاء الله، ولٰكنَّ أكثرَهم يجهلونَ﴾.

﴿٩﴾ ويكفيهم من الآيات إنْ كانوا صادقين هٰذا القرآن العظيم، ولهٰذا قال هنا: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلْنا الذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكلِّ شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكَّر مَنْ أراد التذكُّر. ﴿وإنَّا له لحافظونَ﴾؛ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كلِّ شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسولِهِ واستَوْدَعَهُ في قلوب أمَّته وحفظَ الله ألفاظَه من التغيير فيها والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل؛ فلا يحرِّفُ محرِّفٌ معنى من معانيه إلَّا وقيَّض الله له من يبيِّن الحقَّ المبين، وهٰذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أنَّ الله يحفظُ أهله من أعدائهم، ولا يسلِّط عليهم عدوًّا يجتاحُهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى لنبيِّه إذ كذبه المشركون: لم يزلْ هٰذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية، فقد أرسَلْنا ﴿قبلك في شيع الأولين﴾؛ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿١١﴾ ﴿وما يأتيهم من رسول﴾: يدعوهم إلى الحقِّ والهدى، ﴿إلَّا كانوا به يستهزئون﴾.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ ﴿كذٰلك نَسْلُكه﴾؛ أي: ندخل التكذيب ﴿في قلوب المجرمين﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم والبَهْت، عاقبناهم لما تشابهت قلوبُهم بالكفر والتكذيب تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهٰذا قال: ﴿لا يؤمنون بِهِ وقد خَلَتْ سنَّةُ الأولين﴾؛ أي: عادة الله فيهم بإهلاك مَنْ لم يؤمنْ بآيات الله.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ أي: ولو جاءتهم كلُّ آية عظيمة؛ لم يؤمنوا وكابروها، فـ﴿لو فَتَحْنا عليهم باباً من السماء﴾: فصاروا يعرجون فيه ويشاهدونه عياناً بأنفسهم؛ لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكِرين لهٰذه الآية: ﴿إنَّما سُكِّرَتْ أبصارُنا﴾؛ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نَرَ. ﴿بل نحنُ قومٌ مسحورون﴾؛ أي: ليس هٰذا بحقيقة، بل هٰذا سحرٌ. وقوم وصلت بهم الحال إلى هٰذا الإنكار؛ فإنَّهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿ولقد جَعَلْنا في السماء بروجاً﴾؛ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يُهتدى بها في ظُلمات البرِّ والبحر، ﴿وزيَّنَّاها للناظرين﴾: فإنَّه لولا النجوم؛ لما كان للسماء هٰذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهٰذا مما يدعو الناظرين إلى التأمُّل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها.

﴿١٧﴾ ﴿وحَفِظْناها من كلِّ شيطان رجيم﴾: إذا استرق السمع؛ اتَّبعته الشهبُ الثواقب، فبقيت السماء ظاهرها مجمّلٌ بالنجوم النيرات، وباطنها محروسٌ ممنوعٌ من الآفات.

﴿١٨﴾ ﴿إلا من استرق السمع﴾؛ أي: [إلّا] في بعض الأوقات قد يسترق بعضُ الشياطين السمع بخفية واختلاس. ﴿فأتبَعَهُ شهابٌ مبينٌ﴾؛ أي: بيِّن منير يقتله أو يخبله؛ فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصِلَها الشيطان إلى وليِّه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربَّما ألقاها إلى وليِّه قبل أن يدرِكَه الشهاب، فيضمُّها، ويكذبُ معها مائة كذبة، ويستدلُّ بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

﴿١٩﴾ ﴿والأرض مددناها﴾؛ أي: وسعناها سعة يتمكَّن الآدميون والحيوانات كلُّها من الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكونِ في نواحيها. ﴿وألقَيْنا فيها رواسيَ﴾؛ أي: جبالاً عظاماً تحفظ الأرض بإذن اللّه أن تميدَ وتثبِّتها أن تزول. ﴿وأنبَتْنا فيها من كلِّ شيءٍ موزونٍ﴾؛ أي: نافع متقوَّم يضطرُّ إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات والمعادن.

﴿٢٠﴾ ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾: من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المَكاسب والحِرَف، ﴿ومَنْ لستم له برازِقين﴾؛ أي: أنعمنا عليكم بعبيدٍ وإماءٍ وأنعامٍ لنفعكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقُها، بل خوَّلكم اللّه إيَّاها، وتكفَّل بأرزاقها.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملِكُها أحدٌ إلَّا اللّه؛ فخزائِنُها بيده، يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة. ﴿وما ننزِّلُه﴾؛ أي: المقدَّر من كلِّ شيء من مطر وغيره، ﴿إلَّا بقدرٍ معلوم﴾: فلا يزيدُ على ما قدَّره اللّه، ولا ينقص منه.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: وسخَّرنا الرياح رياح الرحمة تُلْقِحُ السحاب كما يُلْقِحُ الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن اللّه، فيسقيه اللّه العبادَ ومواشيَهم وأرضَهم، ويُبقي في الأرض مدَّخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته. ﴿وما أنتم له بخازِنينَ﴾؛ أي: لا قدرة لكم على خزنِهِ وادِّخاره، ولكن اللّه يخزِنُه لكم ويَسْلُكُه ينابيع في الأرض رحمةً بكم وإحساناً إليكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٣ ـ ٢٥﴾ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويميتهم لآجالهم التي قدرها، ﴿ونحن الوارثون﴾؛ كقوله: ﴿إنا نحنُ نَرثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعون﴾: وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله؛ فإنه تعالى يعلم المستقدِمين من الخلق والمستأخِرين منهم، ويعلم ما تَنْقُصُ الأرض منهم وما تفرَّقُ من أجزائهم، وهو الذي قدرتُه لا يعجزُها معجزٌ، فيعيد عباده خلقاً جديداً، ويحشرُهم إليه. ﴿إنَّه حكيمٌ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزِلُها منازِلَها، ويجازي كلَّ عامل بعمله: إن خيراً؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوِّه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شرِّه وفتنته، فقال تعالى:

﴿٢٦﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾؛ أي: آدم عليه السلام ﴿من صَلْصال من حَمَإٍ مسنونٍ﴾؛ أي: من طين قد يبس بعدما خُمِّرَ حتى صار له صَلْصَلَةٌ وصوتٌ كصوت الفخار. والحمأ المسنون: الطينُ المتغيِّر لونه وريحه من طول مكثه.

﴿٢٧﴾ ﴿والجانَّ﴾: وهو أبو الجنِّ؛ أي: إبليس، ﴿خلَقْناه من قبل﴾: خَلْقِ آدم، ﴿من نار السَّموم﴾؛ أي: من النار الشديدة الحرارة.

﴿٢٨ ـ ٢٩﴾ فلما أراد الله خَلْقَ آدم؛ قال للملائكة: ﴿إنِّي خالقٌ بشراً من صَلْصال من حمإٍ مَسْنونٍ. فإذا سوَّيْتُه﴾: جسداً تامًّا، ﴿ونفختُ فيه من روحي فقَعُوا له ساجدينَ﴾.

﴿٣٠ ـ ٣١﴾ فامتثلوا أمرَ ربِّهم، ﴿فسجد الملائكةُ كلُّهم أجمعون﴾: تأكيدٌ بعد تأكيدٍ؛ ليدلَّ على أنه لم يتخلَّف منهم أحدٌ، وذلك تعظيماً لأمر اللّه وإكراماً لآدم حيث عَلِمَ ما لم يعلموا. ﴿إلَّا إبليسَ أبى أن يكونَ مع الساجدين﴾: وهذه أول عداوته لآدم وذرِّيَّته.

﴿٣٢ ـ ٣٣﴾ ﴿قال﴾: اللّه: ﴿يا إبليسُ ما لك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكنْ لأسجدَ لبشرٍ خلقتَه من صلصال من حمإٍ مسنونٍ﴾: فاستكبر على أمر اللّه، وأبدى العداوة لآدم وذرِّيَّته، وأعجِبَ بعنصره، وقال: أنا خيرٌ من آدم.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ﴿قال﴾ اللّه معاقباً له على كفره واستكباره: ﴿فاخْرُجْ منها فإنَّك رجيمٌ﴾؛ أي: مطرود ومبعدٌ من كل خير، ﴿وإنَّ عليك اللعنةَ﴾؛ أي: الذمَّ والعيب والبعد عن رحمة اللّه ﴿إلى يوم الدين﴾. ففيها وما أشبهها دليلٌ على أنَّه سيستمرُّ على كفره وبعده من الخير.

﴿٣٦ ـ ٣٨﴾ ﴿قال ربِّ فأنظِرْني﴾؛ أي: أمهِلْني ﴿إلى يوم يُبْعَثونَ. قال فإنَّك من المُنْظَرينَ. إلى يوم الوقتِ المعلوم﴾: وليس إجابةُ اللّه لدعائِهِ كرامةً في حقِّه، وإنما ذلك امتحانٌ وابتلاءٌ من اللّه له وللعباد؛ ليتبيَّن الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذَّرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده منَّا.

﴿٣٩﴾ ﴿قال ربِّ بما أغويتني لأزيِّنَنَّ لهم في الأرض﴾؛ أي: أزيِّن لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكلِّ معصيةٍ، ﴿ولأغوِيَنَّهم أجمعين﴾؛ أي: أصدُّهم كلَّهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلَّا عبادَك منهم المخلَصين﴾؛ أي: الذين أخلصتهم، واجتبيتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

﴿٤٠﴾ قال اللّه: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ﴾؛ أي: معتدلٌ موصلٌ إليَّ وإلى دار كرامتي.

﴿٤١﴾ ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ﴾: تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضَّلالات بسبب عبوديَّتهم لربِّهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم اللّه وعصمهم من الشيطان.

﴿٤٢﴾ ﴿إلَّا من اتَّبعك﴾: فرضي بولايتك وطاعتك بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوينَ﴾: والغاوي ضدُّ الراشد؛ فهو الذي عرف الحقَّ وتركه، والضالُّ الذي تركه من غير علم منه به.

﴿٤٣﴾ ﴿وإنَّ جهنَّم لَمَوْعِدُهم أجمعين﴾؛ أي: إبليس وجنوده.

﴿٤٤﴾ ﴿لها سبعةُ أبوابٍ﴾: كل باب أسفل من الآخر. ﴿لكلِّ باب منهم﴾؛ أي: من أتباع إبليس ﴿جزءٌ مقسومٌ﴾: بحسب أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبوا فيها هم والغاوونَ وجنودُ إبليسَ أجمعونَ﴾.

ولما ذكر تعالى ما أعدَّ لأعدائِهِ أتباع إبليس من النَّكال والعذاب الشديد؛ ذكر ما أعدَّ لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّ المتَّقين﴾: الذين اتَّقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان، ﴿في جنَّاتٍ وعيون﴾: قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميعُ الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

﴿٤٦﴾ ويقال لهم حال دخولها: ﴿ادخُلوها بسلام آمنينَ﴾: من الموت والنوم والنَّصَب واللُّغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض والحزن والهمِّ وسائر المكدرات.

﴿٤٧﴾ ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ﴾: فتبقى قلوبُهم سالمةً من كلِّ غلٍّ[1] وحسدٍ متصافية متحابَّة، ﴿إخواناً على سُرُر متقابلين﴾: دلَّ ذٰلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كلٍّ منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكئين على تلك السُّرر المزيَّنة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿٤٨﴾ ﴿لا يَمَسُّهم فيها نصبٌ﴾: لا ظاهرٌ ولا باطنٌ، وذٰلك لأنَّ اللّٰه يُنشئهم نشأةً وحياةً كاملةً لا تقبل شيئاً من الآفات. ﴿وما هم منها بمُخْرَجين﴾: على سائر الأوقات.

﴿٤٩﴾ ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات اللّٰه من الجنة والنار؛ ذكر ما يوجب ذٰلك من أوصافه تعالى، فقال: ﴿نبِّىء عبادي﴾؛ أي: أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلَّة، ﴿أني أنا الغفورُ الرحيم﴾: فإنَّهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته؛ سعوا بالأسباب[2] الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذُّنوب وتابوا منها؛ لينالوا مغفرتَهُ.

(١) في (ب): «دغل».

(٢) في (ب): «في الأسباب».

﴿٥٠﴾ ومع هٰذا؛ فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاءُ إلى حال الأمن والإدلال؛ فنبئهم ﴿أنَّ عذابي هو العذابُ الأليمُ﴾؛ أي: لا عذاب في الحقيقة إلَّا عذابُ اللّه الذي لا يقادَرُ قَدْره ولا يُبْلَغ كُنْهه، نعوذ به من عذابه؛ فإنهم إذا عرفوا أن[1] لا يعذِّبَ عذابَه أحدٌ ولا يوثِقُ وَثاقَهُ أحدٌ؛ حذروا وأبعدوا عن كلِّ سبب يوجب لهم العقاب.

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة؛ فإذا نظر إلى رحمة ربِّه ومغفرته وجوده وإحسانه؛ أحدث له ذٰلك الرجاءَ والرغبةَ، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربِّه؛ أحدث له الخوفَ والرهبة والإقلاع عنها.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿ونبِّئهم عن ضيفِ إبراهيم﴾؛ أي: عن تلك القصَّة العجيبة؛ فإنَّ في قصِّك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرةَ والاقتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا اللّهُ أن نتَّبعَ ملَّته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكْرَمَهُ اللّه بأنْ جعَلَهم أضيافه.

﴿٥٢﴾ ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾؛ أي: سلَّموا عليه فردَّ عليهم، ﴿قال إنَّا منكم وَجِلونَ﴾؛ أي: خائفون؛ لأنَّه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوفاً؛ ذهب مسرعاً إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم عجلاً حنيذاً، فقدَّمه إليهم، فلما رأى أيدِيَهم لا تصِلُ إليه؛ خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم فقالوا له:

﴿٥٣﴾ ﴿لا توْجَلْ إنَّا نبشِّرك بغلام عليم﴾: وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام. تضمنت هٰذه البشارة بأنَّه ذكرٌ لا أنثى. ﴿عليم﴾؛ أي: كثير العلم. وفي الآية الأخرى: ﴿وبشَّرْناه بإسحاقَ نبيًّا من الصَّالحينَ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿قال﴾ لهم متعجِّباً من هٰذه البشارة: ﴿أبشَّرتُموني﴾: بالولد ﴿على أن مَسَّنِيَ الكِبَرُ﴾: وصار نوع إياس منه. ﴿فبم تبشِّرونِ﴾؛ أي: على أيِّ وجهٍ تبشِّرون وقد عدمت الأسباب؟!

(١) في (ب): «أنه».

﴿٥٥﴾ ﴿قالوا بشَّرْناك بالحقِّ﴾: الذي لا شكَّ فيه؛ لأنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنتم بالخصوص يا أهل هٰذا البيت، رحمة اللّه وبركاته عليكم؛ فلا يُسْتَغْرَبُ فضل اللّه وإحسانُه إليكم. ﴿فلا تَكُنْ من القانطينَ﴾: الذين يستبعدون وجودَ الخير، بل لا تزال راجياً لفضل اللّه وإحسانِهِ وبرِّه وامتنانه.

﴿٥٦﴾ فأجابهم إبراهيمُ بقوله: ﴿ومَن يَقْنَطُ من رحمةِ ربِّه إلَّا الضَّالُّون﴾: الذين لا علم لهم بربِّهم وكمال اقتداره، وأما مَنْ أنعم اللّه عليه بالهداية والعلم العظيم؛ فلا سبيل إلى القنوط إليه؛ لأنَّه يعرف من كَثْرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة اللّه شيئاً كثيراً.

ثم لما بشَّروه بهٰذه البشارة؛ عَرَفَ أنَّهم مرسلون لأمرٍ مهمٍّ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾
وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ
أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ
﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ
إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٥٧﴾ أي: ﴿قال﴾ الخليلُ عليه السلام للملائكة: ﴿فما خطبكُم أيُّها المرسلون﴾؛ أي: ما شأنكم؟ ولأيِّ شيءٍ أرسِلْتُم؟!

﴿٥٨﴾ ﴿قالوا إنَّا أرسِلْنا إلى قوم مجرِمين﴾؛ أي: كثر فسادُهم وعَظُم شرُّهم لنعذِّبَهم ونعاقبهم.

﴿٥٩ ـ ٦٠﴾ ﴿إلَّا آلَ لوطٍ﴾؛ أي: إلَّا لوطاً وأهله، ﴿إلَّا امرأتَهُ قدَّرْنا أنَّها لَمِنَ الغابرين﴾؛ أي: الباقين بالعذاب، وأما لوطٌ؛ فَسَنُخْرِجَنَّه وأهله وننجِّيهم منها. فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم، فقيل له: ﴿يا إبراهيمُ أعْرِضْ

عن هٰذا إنَّه قد جاء أمْر ربِّك وإنَّهم آتيهم عذابٌ غير مردودٍ﴾. فذهبوا منه.

﴿٦١ ـ ٦٢﴾ ﴿فلما جاء آلَ لوطٍ المرسلونَ قال﴾ لهم لوط: ﴿إنَّكم قوم مُنْكَرونَ﴾؛ أي: لا أعرفكم، ولا أدري من أنتم.

﴿٦٣﴾ فَـ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يَمْتَرون﴾؛ أي: جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكُّون فيه ويكذِّبونك حين تَعِدُهم به.

﴿٦٤﴾ ﴿وأتيناك بالحقِّ﴾: الذي ليس بالهزل. ﴿وإنَّا لصادقونَ﴾: فيما قلنا لك.

﴿٦٥﴾ ﴿فأسْرِ بأهلك بقِطْع من الليل﴾؛ أي: في أثنائه حين تنام العيون ولا يدري أحدٌ عن مَسْراك. ﴿ولا يَلْتَفِتْ منكم أحدٌ﴾؛ أي: بل بادروا وأسرعوا، ﴿وامْضوا حيثُ تُؤْمَرون﴾: كأنَّ معهم دليلاً يدلُّهم على أين يتوجَّهون.

﴿٦٦﴾ ﴿وقضَينا إليه ذٰلك﴾؛ أي: أخبرناه خبراً لا مَثْنَوِيَّة فيه، ﴿أنَّ دابرَ هٰؤلاء مقطوعٌ مصبحينَ﴾؛ أي: سيصبِّحهم العذابُ الذي يجتاحهم، ويستأصلهم.

﴿٦٧ ـ ٦٩﴾ ﴿وجاء أهلُ المدينة﴾؛ أي: المدينة التي فيها لوطٌ، ﴿يستبشرونَ﴾؛ أي: يبشِّر بعضُهم بعضاً بأضياف لوطٍ وصباحةِ وجوههم واقتدارهم عليهم، وذٰلك لقصدِهِم فعلَ الفاحشة فيهم، فجاؤوا حتى وصلوا إلى بيت لوطٍ، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوطٌ يستعيذُ منهم ويقولُ: ﴿إنَّ هٰؤلاء ضَيْفي فلا تَفْضَحونِ. واتَّقوا الله ولا تُخْزُونِ﴾؛ أي: راقبوا الله أول ذٰلك، وإن كان ليس فيكم خوفٌ من الله؛ فلا تفضحوني في أضيافي، وتنتَهِكوا منهم الأمر الشنيع.

﴿٧٠﴾ فَـ﴿قالوا﴾ له جواباً عن قوله: ﴿ولا تخزونِ﴾ فقط: ﴿أولم نَنْهَكَ عنِ العالمين﴾: أن تضيِّفهم، فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر؛ فقد أعذر.

﴿٧١ ـ ٧٢﴾ فَـ﴿قال﴾ لهم لوطٌ من شدَّة الأمر الذي أصابه: ﴿هٰؤلاء بناتي إن كنتُم فاعلينَ﴾: فلم يبالوا بقوله، ولهٰذا قال الله لرسوله محمدٍ ﷺ: ﴿لَعَمْرُك إنَّهم لفي سكرتِهِم يعمهونَ﴾: وهٰذه السكرة هي سكرة محبَّة الفاحشة التي لا يُبالون معها بعذل ولا لوم.

﴿٧٣﴾ فلما بينت له الرسل حالَهم؛ زال عن لوطٍ ما كان يَجِدُه من الضيق والكرب، فامتثل أمر ربِّه، وسرى بأهله ليلاً، فنجوا. وأما أهل القرية؛ ﴿فأخذَتْهُمُ الصيحةُ مشرقينَ﴾؛ أي: وقت شروق الشمس؛ حين كانت العقوبة عليهم أشدّ.

﴿٧٤﴾ ﴿فجعَلْنا عالِيَها سافِلَها﴾؛ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿وأمطَرْنا عليهم

حجارةً من سجِّيل﴾: تتبع فيها من شذَّ من البلد منهم.

﴿٧٥﴾ ﴿إن في ذٰلك لآيات للمتوسِّمين﴾؛ أي: المتأمِّلين المتفكِّرين الذين لهم فكرٌ ورويَّة وفراسةٌ يفهمون بها ما أريد بذٰلك مِن أنَّ من تجرّأ على معاصي اللّه، خصوصاً هٰذه الفاحشة العظيمة، وأنَّ اللّه سيعاقِبُهم بأشنع العقوباتِ؛ كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿٧٦﴾ ﴿وإنَّها﴾؛ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَبسبيل مُقيم﴾: للسالكين، يعرفه كلُّ مَنْ تردَّد في تلك الدِّيار.

﴿٧٧﴾ ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً للمؤمنين﴾: **وفي هٰذه القصة** من العبر: عنايتُه تعالى بخليله إبراهيم؛ فإنَّ لوطاً عليه السلام من أتباعه وممَّن آمن به، فكأنه تـلـميذٌ له؛ فحين أراد اللّه إهلاك قوم لوطٍ حين استحقُّوا ذٰلك؛ أمر رسله أن يمرُّوا على إبراهيم عليه السلام كي يبشِّروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنَّه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسُه، وكذٰلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهلَ وطَنِهِ؛ فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم؛ قدَّر اللّه من الأسباب ما به يشتدُّ غيظُه وحِنقُهُ عليهم، حتَّى استبطأ إهلاكَهم لمَّا قيل له: ﴿إنَّ موعِدَهم الصبحُ أليس الصبحُ بقريبٍ﴾.

ومنها: أن اللّه تعالى إذا أراد أن يُهْلِكَ قرية ازداد شرُّهم وطغيانهم؛ فإذا انتهى؛ أوقع بهم من العقوبات ما يستحقُّونه.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٧٨﴾ وهٰؤلاء قوم شعيبٍ، نَعَتَهُم اللّه وأضافهم إلى الأيكَة، وهو البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيُّهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وتَرْك ظُلْم الناس في المكاييل والموازين، وعالَجهم على ذٰلك أشدَّ المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حقِّ الخالق وفي حقِّ الخلق، ولهٰذا وصفهم هنا بالظُّلم.

﴿٧٩﴾ ﴿فانتَقَمْنا منهم﴾: فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّةِ؛ إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وإنَّهما﴾؛ أي: ديار قوم لوطٍ وأصحاب الأيكَة، ﴿لبإمام مُبينٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح يمرُّ بهم المسافرون كلَّ وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهَدٌ بالأبصار، فيعتبر بذٰلك أولو الألباب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٠﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الذين يسكنون الحجرَ المعروف في أرض الحجاز: أنَّهم كذَّبوا المرسلين؛ أي: كذَّبوا صالحاً، ومن كذَّب رسولاً؛ فقد كذَّب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصِهِ، بل لما جاء به من الحقِّ، الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

﴿٨١﴾ ﴿وآتيناهم آياتنا﴾: الدالَّة على صحَّة ما جاءهم به صالح من الحق التي من جملتها تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة. ﴿فكانوا عنها معرضين﴾: كِبْراً وتجبُّراً على الله.

﴿٨٢﴾ ﴿وكانوا﴾: من كثرة إنعام الله عليهم، ﴿يَنْحِتون من الجبال بيوتاً آمنينَ﴾: من المخاوف، مطمئنين في ديارهم؛ فلو شكروا النعمة وصدَّقوا نبيَّهم صالحاً عليه السلام؛ لأدرَّ الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولٰكنَّهم لما كذَّبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمرِ ربِّهم وقالوا: ﴿يا صالحُ ائتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصَّادقين﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَيحَةُ مُصْبِحِينَ﴾: فتقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذٰلك من الخزي واللعنة المستمرة.

﴿٨٤﴾ ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يَكْسبونَ﴾: لأنَّ أمر الله إذا جاء لا يردُّه كَثْرة جنودٍ ولا قوَّة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٥﴾ أي: ما خلقناهما عَبَثاً باطلاً كما يظنُّ ذٰلك أعداء الله، بل ما خلقناهما ﴿إلَّا بالحقِّ﴾: الذي منه أن يكونا بما فيهما دالَّتين على كمال خالقهما واقتداره وسعة رحمتِهِ وحكمتِهِ وعلمِهِ المحيط، وأنَّه الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له وحدَه لا شريك له. ﴿وإنَّ الساعة لآتيةٌ﴾: لا ريبَ فيها؛ لَخَلْقُ السماوات والأرض أكبرُ من خَلْق الناس. ﴿فاصفح الصَّفْح الجميلَ﴾: وهو الصفح الذي لا أذيَّة فيه، بل يقابل

إساءة المسيء بالإحسان وذنبه بالغفران؛ لتنال من ربِّك جزيل الأجر والثواب؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ فهو قريبٌ.

وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرتُ هنا، وهو أنَّ المأمور به هو الصفح الجميل؛ أي: الحسن الذي قد سَلِمَ من الحقد والأذيَّة القوليَّة والفعليَّة، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محلِّه؛ فلا يُصْفَح حيث اقتضى المقام العقوبة؛ كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفعُ فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿٨٦﴾ ﴿إنَّ ربَّك هو الخلاَّق﴾: لكل مخلوق، ﴿العليمُ﴾: بكل شيءٍ؛ فلا يعجِزُه أحدٌ من جميع ما أحاط به علمُه، وجرى عليه خلقُه، وذلك سائر الموجودات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾][1]﴾.

﴿٨٧﴾ يقول تعالى ممتنًّا على رسوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾: وهنَّ على الصحيح السور السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة. أو أنَّها فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات. فيكون عطف ﴿القرآن العظيم﴾ على ذلك من باب عطف العامِّ على الخاصِّ؛ لكثرة ما في المثاني من التوحيد وعلوم الغيب والأحكام الجليلة وتثنيتها فيها. وعلى القول بأن الفاتحة هي السبع المثاني معناها أنَّها سبعُ آياتٍ تُثنى في كلِّ ركعة.

﴿٨٨﴾ وإذ كان اللّهُ قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني؛ كان قد أعطاه أفضلَ ما يتنافسُ فيه المتنافسون وأعظمَ ما فرح به المؤمنون، ﴿قُلْ بفضل اللّهِ وبرحمتِهِ فبذلك فَلْيَفْرحوا هو خيرٌ مما يجمعونَ﴾، ولذلك قال بعده: ﴿لا تمدَّنَّ

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم﴾؛ أي: لا تعجب إعجاباً يحمِلُك على إشغال فكرك بشهوات الدُّنيا التي تمتَّع بها المترفون واغترَّ بها الجاهلون، واستغْنِ بما آتاك اللّه من المثاني والقرآن العظيم. ﴿ولا تحزَنْ عليهم﴾: فإنَّهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يُرتَقَب؛ فلك في المؤمنين عنهم أحسنُ البدل وأفضلِ العوض. ﴿واخفِضْ جناحك للمؤمنين﴾؛ أي: ألِنْ لهم جانبك وحسِّنْ لهم خُلُقَك محبةً وإكراماً وتودُّداً.

﴿٨٩﴾ ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾؛ أي: قم بما عليك من النذارة وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدوِّ والصديق؛ فإنَّك إذا فعلت ذٰلك؛ فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

﴿٩٠﴾ وقوله: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾؛ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئتَ به، الساعين لصدِّ الناس عن سبيل اللّه.

﴿٩١﴾ ﴿الذين جَعلوا القرآنَ عِضِين﴾؛ أي: أصنافاً وأعضاءً وأجزاءً يصرِّفونه بحسب ما يهوونه؛ فمنهم من يقولُ: سحرٌ، ومنهم من يقول: كهانةٌ، ومنهم من يقول: مفترىً... إلى غير ذٰلك من أقوال الكفرة المكذِّبين به، الذين جعلوا قدحَهم فيه؛ ليصدُّوا الناس عن الهدى.

﴿٩٢ ـ ٩٣﴾ ﴿فوربِّك لنسألنَّهم أجمعين﴾؛ أي: جميع من قدح فيه وعابه وحرَّفه وبدله، ﴿عمَّا كانوا يعملون﴾: وفي هٰذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون[١].

﴿٩٤﴾ ثم أمر اللّه رسوله أن لا يبالي بهم ولا بغيرهم، وأن يَصْدَعَ بما أمر اللّه ويعلنَ بذٰلك لكلِّ أحدٍ ولا يعوقنَّه عن أمره عائقٌ ولا تصدُّه أقوال المتهوِّكين. ﴿وأعرض عن المشركينَ﴾: أي؛ لا تبال بهم، واترك مشاتَمَتَهم ومسابَّتهم مقبلاً على شأنك.

﴿٩٥﴾ ﴿إنَّا كفيناك المستهزئين﴾: بك وبما جئت به. وهٰذا وعدٌ من اللّه لرسوله أن لا يضرُّه المستهزئون، وأن يكفيه اللّه إيَّاهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى: فإنَّه ما تظاهر أحدٌ بالاستهزاء برسول اللّه ﷺ وبما جاء به؛ إلا أهلَكه اللّه وقَتَلَهُ شرَّ قِتْلَةٍ.

---

(١) في (ب): «على ما كانوا عليه».

﴿٩٦﴾ ثم ذكر وصفهم، وأنهم كما يؤذونك يا رسول اللّه؛ فإنَّهم أيضاً يؤذون اللّه، ﴿الذين يجعلون[1] مع اللّه إلهاً آخر﴾: وهو ربُّهم وخالقهم ومدبرهم. ﴿فسوف يعلمون﴾: غِبَّ أفعالهم إذا وردوا القيامة.

﴿٩٧﴾ ﴿ولقد نعلمُ أنك يضيقُ صدرُكَ بما يقولون﴾: لك من التكذيب والاستهزاء؛ فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب والتَّعجيل لهم بما يستحقُّونه، ولكنَّ اللّه يمهِلُهم، ولا يهملُهم.

﴿٩٨﴾ فأنت يا محمدُ، ﴿سبِّحْ[2] بحمد ربِّك وكن من الساجدين﴾؛ أي: أكثر من ذكر اللّه وتسبيحه وتحميده والصلاة؛ فإنَّ ذلك يوسع الصدر ويشرَحُه ويُعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿واعبُدْ ربَّك حتى يأتِيَكَ اليقينُ﴾؛ أي: الموت؛ أي: استمرَّ في جميع الأوقات على التقرُّب إلى اللّه بأنواع العبادات. فامتثل ﷺ أمر ربِّه، فلم يزل دائباً في العبادة حتى أتاه اليقين من ربِّه، ﷺ تسليماً كثيراً.

تم تفسير سورة الحجر. والحمد للّه رب العالمين آمين.

* * *

تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مقرِّباً لما وعد به محققاً لوقوعه: ﴿أتى أمرُ اللّه فلا تستعجلوه﴾: فإنه آتٍ، وما هو آتٍ فإنَّه قريبٌ. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾: من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفؤ وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله.

---

(١) في (ب): «يؤذون الله ويجعلون».
(٢) في (ب): «فسبِّح».

﴿٢﴾ ولما نزَّه نفسَه عما وَصَفَهُ به أعداؤه؛ ذَكَرَ الوحي الذي ينزِّله على أنبيائه مما يجب اتباعه في ذكر ما يُنسب للّه من صفات الكمال، فقال: ﴿ينزِّلُ الملائكة بالرُّوح من أمره﴾؛ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح، ﴿على مَن يشاءُ من عبادِهِ﴾: ممَّن يعلمه صالحاً لتحمُّل رسالته. وزبدة دعوة الرسل[1] كلِّهم ومدارها على قوله: ﴿أنْ أنذروا أنَّه لا إله إلَّا أنا﴾[2]؛ أي: على معرفة اللّه تعالى، وتوحُّده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهيَّة، وعبادته وحده لا شريك له؛ فهي التي أنزل بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحثُّ، وتجاهد مَنْ حاربها، وقام بضدِّها.

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

هٰذه السورة تسمى سورة النعم؛ فإن اللّه ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمِّماتها ومكمِّلاتها.

﴿٣﴾ فأخبر أنه ﴿خلق السمٰوات والأرض بالحقِّ﴾؛ ليستدلَّ بهما العبادُ على عظمة خالقهما وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهٰذا نزَّه نفسه عن شرك المشركين به، فقال: ﴿تعالى عما يشركون﴾، أي: تنزَّه وتعاظم عن شركهم؛ فإنه الإلٰه حقًّا، الذي لا تنبغي العبادة والحبُّ والذُّلُّ إلا له تعالى.

﴿٤﴾ ولما ذكر خلق السماوات [والأرض][3]؛ ذكر خَلْقَ ما فيهما، وبدأ بأشرف ذلك، وهو الإنسان، فقال: ﴿خلق الإنسان من نُطفة﴾: لم يزل يدبِّرها ويرقيها وينمِّيها حتى صارت بشراً تامًّا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه

---

(١) في (ب): «المرسلين».
(٢) في (ب): «لا إله إلاّ أنا فاتقون».
(٣) زيادة لا توجد في النسختين.

الغزيرة، حتى إذا استتمَّ فَخَرَ بنفسه وأُعْجِب بها. ﴿فإذا هو خصيمٌ مبينٌ﴾: يُحتمل أن المراد: فإذا هو خصيمٌ لربِّه؛ يكفر به، ويجادل رسلَه، ويكذِّب بآياته، ونسي خلقَه الأوَّل، وما أنعم اللّه عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه.

ويُحتمل أنَّ المعنى أنَّ اللّه أنشأ الآدميَّ من نطفةٍ، ثم لم يزل ينقله من طَوْرٍ إلى طَوْرٍ، حتى صار عاقلاً، متكلِّماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل؛ فليشكرِ العبدُ ربَّه الذي أوصله إلى هٰذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿٥﴾ ﴿والأنعامَ خلقها لكم﴾؛ أي: لأجلكم ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة، أنَّ ﴿لكم فيها دفءٌ﴾: مما تتَّخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودِها من الثياب والفرش والبيوت. ﴿و﴾ لكم فيها ﴿منافعُ﴾: غيرُ ذٰلك، ﴿ومنها تأكلون﴾.

﴿٦﴾ ﴿ولكُم فيها جمالٌ حين تُريحونَ وحين تَسْرَحون﴾؛ أي: في وقت رواحها وراحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذٰلك أنَّ جمالها لا يعود إليها منه شيءٌ؛ فإنَّكم أنتم الذين تتجمَّلون بها كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم وتُعْجَبون بذٰلك[1].

﴿٧﴾ ﴿وتحملُ أثقالَكم﴾: من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم، ﴿إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلَّا بِشِقِّ الأنفس﴾: ولٰكن اللّه ذلَّلها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة. ﴿إنَّ ربَّكم لرءوفٌ رحيمٌ﴾: إذ سخَّر لكم ما تضطرُّون إليه وتحتاجونه؛ فله الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وسعة جوده وبرِّه.

﴿٨﴾ ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ﴾: سخَّرناها لكم؛ ﴿لتَرْكَبوها وزينةً﴾؛ أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأنَّ البغال والحمير محرَّم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب للأكل، بل يُنهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفاً من انقطاعها، وإلَّا؛ فقد ثبت في «الصحيحين» أنَّ النبيَّ ﷺ أذن في لحوم الخيل[2]. ﴿ويخلق ما لا تعلمونَ﴾: مما يكون بعد

(١) جاء في هامش (ب): «المشهور في التفسير أن قوله: ﴿حين تريحون﴾ أي إذا راحت الأنعام على أهلها وعادت من مسارحها»، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلقُ في البَرِّ والبحرِ والجوِّ ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم؛ فإنَّه لم يذكُرْها بأعيانها؛ لأنَّ الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفُهُ العباد أو يعرفون نظيرَه، وأمَّا ما ليس له نظيرٌ؛ فإنَّه لو ذُكِرَ؛ لم يعرِفوه ولم يفهموا المراد منه، فيَذْكُرُ أصلاً جامعاً يدخُلُ فيه ما يعلمون وما لا يعلمون؛ كما ذكر نعيم الجنة، وسمَّى منه ما نعلم ونشاهد نظيره؛ كالنخل والأعناب، والرمَّان وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجانِ﴾؛ فكذٰلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب؛ كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿ويَخْلُقُ ما لا تعلمون﴾.

﴿٩﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسيَّ، وأنَّ الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها؛ ذكر الطريق المعنويَّ الموصل إليه، فقال: ﴿وعلى الله قَصْدُ السبيل﴾؛ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله وإلى كرامته، وأما الطريقُ الجائر في عقائده وأعماله، وهو كلُّ ما خالف الصراط المستقيم؛ فهو قاطعٌ عن الله، موصلٌ إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربِّهم، وضلَّ الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة. ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾: ولٰكنه هدى بعضاً كرماً وفضلاً، ولم يهدِ آخرين حكمةً منه وعدلاً.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ ـ ١١﴾ بذٰلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هٰذا الماء من السحابِ الرقيق اللطيف ورحمته، حيث جعل فيه ماء غزيراً منه يشربون، وتشربُ مواشيهم، ويسقون منه حروثَهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ أي: سخَّر لكم هٰذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم؛ بحيث لا تستغنون عنها أبداً؛ فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايِشِكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق

وإصلاح الأشجار والثمار والنبات وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارَّة للأرض وللأبدان وغير ذٰلك من الضروريَّات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر، وفيهما وفي النُّجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البرِّ والبحر ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوَّع دلالاتها وتتصرَّف آياتها، ولهٰذا جمعها في قوله: ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقوم يعقلونَ﴾؛ أي: لمن لهم عقولٌ يستعملونها في التدبُّر والتفكُّر فيما هي مهيئة له مستعدَّة، تعقِل ما تراه وتسمعُه، لا كنظر الغافلين الذين حظُّهم من النظر حظُّ البهائم التي لا عقل لها.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: فيما ذرأ اللّٰه ونشر للعباد من كلِّ ما على وجه الأرض من حيوان وأشجار ونبات وغير ذٰلك مما تختلفُ ألوانه وتختلف منافعه آيةٌ على كمال قدرة اللّٰه وعميم إحسانِهِ وسَعَةِ برِّه وأنَّه الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحدَه لا شريك له. ﴿لقوم يذكرونَ﴾؛ أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعُهم من العلم النافع ويتأمَّلون ما دعاهم اللّٰه إلى التأمُّل فيه حتى يتذكَّروا بذٰلك ما هو دليل عليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: [و]هو وحده لا شريك له ﴿الذي سخَّر البحر﴾: وهيَّأه لمنافعكم المتنوِّعة؛ ﴿لتأكلوا منه لحماً طريًّا﴾: وهو السمك والحوتُ الذي يصطادونه منه، ﴿وتستخرِجوا منه حِلْيَةً تلبسَونها﴾: فتزيدُكم جمالاً وحُسناً إلى حسنكم. ﴿وترى الفُلْكَ﴾؛ أي: السفن والمراكب ﴿مواخِرَ فيه﴾؛ أي: تَمْخَرُ البحر العجاجَ الهائلَ بمقدَّمها حتى تسلك فيه من قطرٍ إلى آخر تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل اللّٰه عليهم. ﴿ولعلَّكم تشكُرون﴾: الذي يسَّر لكم هٰذه الأشياء وهيَّأها وتُثنون على اللّٰه الذي مَنَّ بها؛ فللّٰه تعالى الحمدُ والشكر والثناء؛ حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون وأعلى مما يتمنَّوْن وآتاهم من كلِّ ما سألوه لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ أي: ﴿وألقى﴾: اللّه تعالى لأجل عباده ﴿في الأرض رواسيَ﴾: وهي الجبال العظام؛ لئلاَّ تميدَ بهم وتضطربَ بالخلق، فيتمكَّنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أنْ جعل فيها أنهاراً يسوقها من أرض بعيدةٍ إلى أرض مضطرَّة إليها؛ لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم؛ أنهاراً على وجه الأرض وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخَّر اللّه لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أنْ جعلَ في الأرض سُبُلاً؛ أي: طرقاً توصِلُ إلى الديار المتنائية. ﴿لعلَّكم تهتدونَ﴾: السبيل إليها، حتى إنك تجدُ أرضاً مشتبكةً بالجبال مسلسلةً فيها، وقد جعل اللّه فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى ما خَلَقَهُ من المخلوقات العظيمة وما أنعم به من النعم العميمة؛ ذكر أنه لا يشبهه أحدٌ، ولا كفء له ولا ندَّ له، فقال: ﴿أفمن يَخْلُقُ﴾: جميع المخلوقات، وهو الفعَّال لما يريد، ﴿كمن لا يَخْلُقُ﴾: شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً. ﴿أفلا تَذَكَّرونَ﴾: فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحقُّ بالعبادة كلِّها؛ فكما أنه واحدٌ في خلقه وتدبيره؛ فإنَّه واحدٌ في إلٰهيَّته وتوحيده وعبادته، وكما أنَّه ليس له مشاركٌ إذ أنشأكم وأنشأ غيركم؛ فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل أخلصوا له الدين.

﴿١٨﴾ ﴿وإن تَعُدُّوا نعمة اللّه﴾: عدداً مجرداً عن الشكر، ﴿لا تُحصوها﴾: فضلاً عن كونكم تشكُرونها؛ فإنَّ نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم؛ فأكثر من أن تحصى. ﴿إنَّ اللّه لغفورٌ رحيمٌ﴾: يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ وكما أن رحمته واسعةٌ وجوده عميمٌ ومغفرته شاملةٌ للعباد؛ فعلمه

محيطٌ بهم، يعلم ما يسرُّون وما يعلنون بخلاف مَنْ عُبِد من دونه فإنهم ﴿لا يَخْلُقون شيئاً﴾: قليلاً ولا كثيراً. ﴿وهم يُخْلَقون﴾؛ فكيف يَخْلُقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟!

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ومع هٰذا؛ ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علمٌ ولا غيره. ﴿أمواتٌ غير أحياء﴾: فلا تسمع ولا تُبْصِر ولا تَعْقِلُ شيئاً، أفتُتَّخذُ هٰذه آلهة من دون ربِّ العالمين؟! فتبًّا لعقول المشركين ما أضلَّها وأفسدَها؛ حيث ضلَّت في أظهر الأشياء فساداً، وسوَّوا بين الناقص من جميع الوجوه؛ فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال! وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كلُّ صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها؛ فله العلم المحيطُ بكلِّ الأشياء والقدرةُ العامَّة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم والحمدُ والمجدُ والكبرياء والعظمة التي لا يقدر أحدٌ من الخلق أن يحيطَ ببعض أوصافه، ولهٰذا قال: ﴿إلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلدْ، ولم يولدْ، ولم يكنْ له كفواً أحدٌ؛ فأهل الإيمان والعقول أجلَّته قلوبُهم، وعظَّمته، وأحبَّته حبًّا عظيماً، وصرفوا له كلَّ ما استطاعوا من القربات البدنيَّة والماليَّة وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنَوْا عليه بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ وأفعاله المقدسة.

و﴿الذين لا يؤمنونَ بالآخرة قلوبُهُم مُنْكِرَةٌ﴾: لهٰذا الأمر العظيم، الذي لا ينكِرُه إلَّا أعظم الخَلْق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله. ﴿وهم مستكبرونَ﴾: عن عبادته.

﴿٢٣﴾ ﴿لا جَرَمَ﴾؛ أي: حقًّا لا بدَّ ﴿أنَّ الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعْلِنون﴾: من الأعمال القبيحة. ﴿إنَّه لا يحبُّ المستكبرين﴾: بل يبغضهم أشدَّ البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم. ﴿إنَّ الذين يستكبِرون عن عبادتي سيدخلون جهنَّم داخرين﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى مخبراً عن شدَّة تكذيب المشركين بآيات اللَّه: ﴿وإذا قيلَ لهم ماذا أنزَلَ ربُّكم﴾؛ أي: إذا سئلوا عن القرآنِ والوحي الذي هو أكبر نعمةٍ أنعم اللَّه بها على العباد؛ فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هٰذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبحَ جواب وأسمجه، فيقولون عنه: إنَّه ﴿أساطيرُ الأولين﴾؛ أي: كذبٌ اختلقه محمدٌ على اللَّه، وما هو إلَّا قَصَصُ الأوَّلين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

﴿٢٥﴾ فقالوا هٰذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحَمَلوا وِزْرهم ووِزْرَ من انقاد لهم إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿ومِنْ أوزار الذين يُضِلُّونهم بغير علم﴾؛ أي: من أوزار المقلِّدين الذين لا علم عندهم إلَّا ما دَعَوْهم إليه، فيحملون إثم ما دَعَوْهم إليه وأما الذين يعلمون؛ فكلٌّ مستقلٌّ بِجُرمه؛ لأنَّه عرف ما عرفوا. ﴿ألا ساء ما يَزِرونَ﴾؛ أي: بئس ما حملوا من الوزر المثقِلِ لظهورهم من وِزْرهم ووِزْر من أضلُّوه.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ ﴿قد مَكَرَ الذين من قبلهم﴾: برسلهم، واحتالوا بأنواع الحيل على ردِّ ما جاؤوهم به، وبنوا من مكرهم قصوراً هائلةً، ﴿فأتى اللَّه بنيانَهم من القواعِدِ﴾؛ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فخرَّ عليهم السقفُ من فوقِهِم﴾: فصار ما بَنَوْه عذاباً عُذِّبوا به. ﴿وأتاهُمُ العذابُ من حيثُ لا يشعرونَ﴾: وذٰلك أنَّهم ظنُّوا أن هٰذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابُهم فيما بَنَوْه وأصَّلوه. وهٰذا من أحسن الأمثال في إبطال اللَّه مَكْرَ أعدائه؛ فإنَّهم فكَّروا وقدَّروا فيما جاءت به الرسل لما كذَّبوه وجعلوا لهم أصولاً وقواعدَ من الباطل يرجعون إليها ويردُّون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومَنْ تَبِعَهم، فصار مكرُهم وبالاً عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، ذٰلك لأنَّ مكرهم سيِّىءٌ، ولا يَحيق المكر السيِّىء إلَّا بأهله. هٰذا في الدُّنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ولهٰذا قال: ﴿ثم يوم القيامةِ يُخزيهم﴾؛ أي: يفضحُهم على رؤوس الخلائق ويبيِّن لهم كَذِبَهم وافتراءهم على اللَّه. ﴿ويقول أين شركائيَ الذين كنتم تُشاقُّون فيهم﴾؛ أي: تحاربون وتعادون اللَّه وحِزْبه لأجلهم تزعمون أنَّهم شركاء للَّه؛ فإذا سألهم هٰذا السؤال؛ لم يكن لهم جواب إلَّا الإقرار بضلالهم

والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿ضَلُّوا عنَّا وَشَهِدوا على أنفسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ﴾: ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾؛ أي: العلماء الربانيُّون: ﴿إنَّ الخِزْيَ اليومَ﴾؛ أي: يوم القيامة، [﴿والسوء﴾؛ أي]: العذاب ﴿على الكافرين﴾. وفي هٰذا فضيلة أهل العلم، وأنَّهم الناطقون بالحقِّ في هٰذه الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأنَّ لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاةِ وفي القيامة، فقال: ﴿الذين تتوفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهِم﴾؛ أي: تتوفَّاهم في هٰذه الحال التي كَثُر فيها ظلمُهم وغيُّهم، وقد علم ما يلقى الظلمة في ذٰلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. ﴿فألقَوُا السَّلَم﴾؛ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبُدونهم من دون الله، وقالوا: ﴿ما كُنَّا نعملُ مِنْ سوءٍ﴾: فيُقال لهم: ﴿بلى﴾: كنتُم تعملون السوءَ. فَـ﴿إنَّ الله عليم بما كنتُم تعملون﴾: فلا يُفيدكم الجحود شيئاً. وهٰذا في بعض مواقف القيامة؛ ينكرون ما كانوا عليه في الدُّنيا؛ ظنًّا أنه ينفعهم؛ فإذا شهدت عليهم جوارِحُهم، وتبيَّن ما كانوا عليه؛ أقرُّوا واعترفوا، ولهٰذا لا يدخلون النار حتى يعترِفوا بذُنوبهم.

﴿٢٩﴾ فإذا دخلوا[1] أبواب جهنَّم، كلُّ أهل عمل يدخُلون من الباب اللائق بحالهم؛ فبئسَ ﴿مثوى المتكبِّرين﴾: نار جهنم؛ فإنَّها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحلُّ الهموم والغموم، وموضعُ السَّخط من الحيِّ القيُّوم، لا يُفتَّر عنهم من عذابها، ولا يُرفَع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الربُّ الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما ذَكَرَ الله قيل المكذبين بما أنزل الله؛ ذَكَرَ ما قاله المتَّقون، وأنَّهم اعترفوا وأقرُّوا بأنَّ ما أنزل الله نعمةٌ عظيمةٌ وخيرٌ عظيمٌ امتنَّ الله به على العباد،

---

(١) في (ب): «ودخلوا».

فقبلوا تلك النعمة، وتلقَّوْها بالقَبول والانقياد، وشكروا اللّه عليها، فعَلِموها وعملوا بها. ﴿للذين أحسنوا﴾: في عبادة اللّه تعالى وأحسنوا إلى عباد اللّه؛ فلهم ﴿في هٰذه الدُّنيا حسنةٌ﴾: رزقٌ واسعٌ وعيشةٌ هنيَّةٌ وطمأنينةُ قلبٍ وأمنٌ وسرورٌ. ﴿ولدار الآخرة خيرٌ﴾: من هٰذه الدار وما فيها من أنواع اللذَّات والمشتهيات؛ فإنَّ هٰذه نعيمها قليلٌ محشوٌّ بالآفات منقطع؛ بخلاف نعيم الآخرة، ولهٰذا قال: ﴿ولنعم دارُ المتَّقين﴾.

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ **﴿جناتُ عَدْنٍ يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾**؛ أي: مهما تمنَّته أنفسهم وتعلَّقت به إراداتهم؛ حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمِّها؛ فلا يمكنُ أن يطلُبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لَذَّةُ القلوب وسرور الأرواح؛ إلَّا وهو حاضرٌ لديهم، ولهٰذا يُعطي اللّه أهل الجنة كلَّ ما تمنَّوْه عليه، حتى إنَّه يذكِّرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم؛ فتبارك الذي لا نهاية لكرمِهِ ولا حدَّ لجوده، الذي ليس كمثله شيءٌ في صفات ذاته وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت وعظمةِ الملك والملكوت. ﴿كذٰلك يَجزي اللّه المتَّقين﴾: لِسَخَطِ اللّه وعذابِهِ؛ بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقِّه وحقِّ عباده، وترك ما نهاهم اللّه عنه. ﴿الذين تتوفَّاهم الملائكةُ﴾: مستمرِّين على تقواهم، ﴿طيبين﴾؛ أي: طاهرين مطهَّرين من كل نقص ودنَس يتطرَّق إليهم ويُخِلُّ في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة اللّه ومحبَّته، وألسنتهم بذكرِهِ والثناء عليه، وجوارِحُهم بطاعته والإقبال عليه. ﴿يقولون سلامٌ عليكم﴾؛ أي: التحية الكاملة حاصلةٌ لكم، والسلامة من كلِّ آفة، وقد سلمتُم من كلِّ ما تكرهون. ﴿ادخُلوا الجنَّة بما كنتُم تعملونَ﴾: من الإيمان باللّه والانقياد لأمرِهِ؛ فإنَّ العمل هو السبب والمادة والأصلُ في دخول الجنة والنجاة من النار، وذٰلك العمل حصل لهم برحمة اللّه ومنَّته، لا بحولهم وقوَّتهم.

ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: هل ينظرُ هٰؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا وذُكِّروا فلم يتذكَّروا، ﴿إلَّا أن تأتِيَهُم الملائكةُ﴾: لقبض أرواحهم، ﴿أو يأتي أمرُ ربِّك﴾:

بالعذاب الذي سيحِلُّ بهم؛ فإنَّهم قد استحقُّوا لوقوعه فيهم. ﴿كذٰلك فَعَلَ الذين من قبلهم﴾: كذَّبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا، حتى نزل بهم العذاب. ﴿وما ظلمهم الله﴾؛ إذ عذَّبهم، ﴿ولٰكن كانوا أنفسَهم يظلِمونَ﴾؛ فإنَّها مخلوقةٌ لعبادة الله؛ ليكونَ مآلُها إلى كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خُلِقَتْ له وعرَّضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿٣٤﴾ ﴿فأصابهم سيِّئاتُ ما عملوا﴾؛ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وحاق بهم﴾؛ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾: فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلُهم بالعذاب؛ استهزؤوا به، وسخروا ممَّن أخبر به، فحلَّ بهم ذٰلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ أي: احتجَّ المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأنَّ الله لو شاء ما أشركوا ولا حرَّموا شيئاً من الأنعام التي أحلَّها؛ كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهٰذه حجَّةٌ باطلةٌ؛ فإنَّها لو كانت حقًّا؛ ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشدَّ العقاب؛ فلو كان يحبُّ ذٰلك منهم؛ لما عذَّبهم. وليس قصدهم بذٰلك إلَّا ردَّ الحقِّ الذي جاءت به الرسل، وإلَّا؛ فعندهم علمٌ أنه لا حجَّة لهم على الله؛ فإنَّ الله أمرهم ونهاهم، ومكَّنهم من[1] القيام بما كلَّفهم، وجعل لهم قوَّة ومشيئة تصدُر عنها أفعالهم؛ فاحتجاجُهم بالقضاء والقَدَر من أبطل الباطل، هٰذا وكل أحدٍ يعلم بالحسِّ قدرة الإنسان على كُلِّ فعلٍ يريده من غير أن ينازِعَه منازعٌ؛ فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسُلِهِ وتكذيب الأمور العقليَّة والحسيَّة. ﴿فهل على الرُّسل إلَّا البلاغُ المبين﴾؛ أي: البيِّن الظاهر الذي يَصِلُ إلى القلوب ولا يبقى لأحدٍ على الله حجَّة؛ فإذا بَلَّغَتْهُمُ الرسل أمرَ ربِّهم ونهيَه ـ واحتجُّوا عليهم بالقَدَر ـ؛ فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابُهم على الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى

(١) في (ب): «على».

ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٣٦﴾ يخبر تعالى أن حجَّته قامت على جميع الأمم، وأنَّه ما من أمَّة متقدِّمة أو متأخِّرة إلَّا وبعث اللّه فيها رسولاً، وكلُّهم متَّفقون على دعوةٍ واحدةٍ ودينٍ واحدٍ، وهو عبادةُ اللّه وحدَه لا شريك له. ﴿أنِ اعبُدوا اللّه واجتَنِبوا الطاغوت﴾: فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين: ﴿فمنهم مَنْ هَدى اللّه﴾: فاتَّبعوا المرسَلين علماً وعملاً، ﴿ومنهم مَنْ حَقَّتْ عليه الضَّلالة﴾: فاتَّبع سبيل الغيِّ. ﴿فسيروا في الأرض﴾: بأبدانِكم وقلوبِكم، ﴿فانظُروا كيف كانَ عاقبةُ المكذِّبين﴾: فإنَّكم سترون من ذٰلك العجائب؛ فلا تجدُ[1] مكذِّباً إلَّا كان عاقبته الهلاك.

﴿٣٧﴾ ﴿إن تحرِصْ على هداهم﴾: وتبذل جهدك في ذٰلك، ﴿فإنَّ اللّه لا يَهْدي من يُضِلُّ﴾: ولو فعل كلَّ سببٍ؛ لم يهده إلَّا اللّه. ﴿وما لهم من ناصرينَ﴾: ينصُرونهم من عذاب اللّه، ويقونَهم بأسَه.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٣٨﴾ يخبر تعالى عن المشركين المكذِّبين لرسوله أنَّهم ﴿أقسموا باللّه جَهْدَ أيمانِهِم﴾؛ أي: حلفوا أيماناً مؤكَّدة مغلَّظة على تكذيب اللّه وأن اللّه لا يَبْعَثُ الأموات ولا يقدِرُ على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً. قال تعالى مكذِّباً لهم: ﴿بلى﴾ سيبعثُهم ويجمعُهم ليوم لا ريبَ فيه. ﴿وعداً عليه حقًّا﴾: لا يُخْلِفُه ولا يغيِّره. ﴿ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ﴾: ومن جهلهم العظيم إنكارُهم البعث والجزاء.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿ليبيِّنَ لهم الذي يختلفونَ فيه﴾: من المسائل الكبار والصغار، فيبيِّن حقائقها ويوضِّحها، ﴿وليَعْلَمَ الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين﴾: [حين][2] يَرَوْن أعمالهم حَسَراتٍ عليهم، وما نفعتهم آلهتُهم التي يَدْعون مع اللّه من شيء لمَّا جاء أمرُ ربِّك، وحين يَرَوْنَ ما

(١) في (ب): «فلا تجدون».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «حتى».

يعبُدون حطباً لجهنَّم، وتكوَّر الشمس والقمر، وتتناثر النُّجوم، ويتَّضح لمن يعبُدُها أنها عبيدٌ مسخَّرات، وأنهنَّ مفتقراتٌ إلى الله في جميع الحالات، وليس ذٰلك على الله بصعبٍ ولا شديدٍ؛ فإنَّه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون من غير منازعةٍ ولا امتناع، بل يكون على طِبْقِ ما أراده وشاءه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين، ﴿الذين هاجروا في الله﴾؛ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿من بعدِ ما ظُلِموا﴾: بالأذيَّة والمحنة من قومهم، الذين يفتِنونَهم ليردُّوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخُلَّان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمٰن، فذكر لهم ثوابين: ثواباً عاجلاً في الدُّنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء الذي رأوه عياناً بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان وغَنِموا منها الغنائم العظيمة فتموَّلوا وآتاهم الله في الدُّنيا حسنةً. ﴿ولأجرُ الآخرة﴾: الذي وَعَدَهم على لسان رسوله خيرٌ و ﴿أكبرُ﴾ من أجر الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيل الله أعظمُ درجةً عند الله وأولٰئك هم الفائزونَ. يبشِّرُهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيم مقيمٌ. خالدينَ فيها أبداً إنَّ الله عندَه أجرٌ عظيمٌ﴾. وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾؛ أي: لو كان لهم علمٌ ويقينٌ بما عند الله من الأجرِ والثواب لِمَنْ آمنَ به وهاجرَ في سبيله؛ لم يتخلَّفْ عن ذٰلك أحدٌ.

﴿٤٢﴾ ثم ذَكَرَ وصف أوليائه، فقال: ﴿الذين صَبَروا﴾: على أوامر الله، وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذيَّة فيه والمحن. ﴿وعلى ربِّهم يتوكَّلون﴾؛ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابِّه لا على أنفسهم، وبذٰلك تنجحُ أمورُهم وتستقيم أحوالُهم؛ فإنَّ الصبر والتوكُّل ملاكُ الأمور كلِّها؛ فما فات أحداً شيءٌ من الخير إلا لعدم صبرِهِ وبَذْلِ جهدِهِ فيما أريد منه أو لعدم توكُّله واعتماده على الله.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿وما أرسلنا من قبلِكَ إلَّا رجالاً﴾؛ أي:

لستَ ببدع من الرسل، فلم نرسِلْ قبلَكَ ملائكةً، بل رجالاً كاملين لا نساءً. ﴿نوحي إليهم﴾: من الشرائع والأحكام ما هو من فضلِهِ وإحسانِهِ على العبيد، من غير أن يأتوا بشيءٍ من قِبَلِ أنفسهم. ﴿فاسألوا أهل الذِّكْر﴾؛ أي: الكتب السابقة ﴿إنْ كنتُم لا تعلمونَ﴾: نبأ الأوَّلين، وشكَكْتم، هل بَعَثَ الله رجالاً؟ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلتْ عليهم الزُّبر والبيِّنات، فعلموها وفهموها؛ فإنَّهم كلهم قد تقرَّر عندهم أنَّ الله ما بعث إلَّا رجالاً يوحي إليهم من أهل القرى.

وعموم هذه الآية فيها مدحُ أهل العلم، وأنَّ أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل؛ فإنَّ الله أمر مَنْ لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديلٌ لأهل العلم وتزكيةٌ لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأنَّ بذلك يخرج الجاهل من التَّبِعة، فدلَّ على أنَّ الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال.

﴿٤٤﴾ وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزَلْنا إليك الذِّكر﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذِكْر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾: وهذا شاملٌ لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه. ﴿ولعلَّهم يتفكَّرون﴾: فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٥ ـ ٤٧﴾ هذا تخويفٌ من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي من أن يأخذَهم بالعذاب على غِرَّة وهم لا يشعرون: إمَّا أن يأخُذَهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخَسْفِ وغيره، وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوُّفهم من العذاب؛ فليسوا بمعجزين الله[1] في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده، ولكنه رءوف

(١) في (ب): «لله».

رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، ومع هٰذا يَفتَحُ لهم[1] أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التي تضرُّهم، ويَعِدُهم بذٰلك أفضلَ الكرامات ومغفرةَ ما صدر منهم من الذنوب؛ فليستحِ المجرمُ من ربِّه أن تكون نعمُ اللّهِ عليه نازلةً في جميع [اللحظات] ومعاصيه صاعدةً إلى ربِّه في كلِّ الأوقات، وليعلم أنَّ اللّه يمهلُ ولا يهملُ، وأنه إذا أخذ العاصي؛ أخذه أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ؛ فليتبْ إليه، وليرجعْ في جميع أموره إليه؛ فإنَّه رءوف رحيم؛ فالبدارَ البدارَ إلى رحمته الواسعة، وبرِّه العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الربِّ الرحيم، ألا وهي تقواه، والعمل بما يحبُّه ويرضاه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾ يقول تعالى: ﴿**أولم يروا**﴾؛ أي: الشاكُّون في توحيد ربِّهم وعظمته وكماله، ﴿**إلى ما خَلَقَ اللّه من شيء**﴾؛ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تتفيَّأ أظلتها ﴿**عن اليمين والشمائل سُجَّداً للّه**﴾؛ أي: كلها ساجدةٌ لربِّها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿**وهم داخِرونَ**﴾؛ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحدٌ إلَّا وناصيته بيد اللّه وتدبيره عنده.

﴿٤٩﴾ ﴿**وللّه يسجد ما في السمٰواتِ وما في الأرضِ من دابَّة**﴾: من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿**والملائكةُ**﴾: الكرام، خصَّهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهٰذا قال: ﴿**وهم لا يستكْبِرونَ**﴾؛ أي: عن عبادته؛ على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوَّتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً للّه ولا الملائكة المقربون﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿**يخافون ربَّهم من فوقهم**﴾: لمَّا مدحَهم بكَثْرَةِ الطاعة والخضوع للّه؛ مدحَهم بالخوفِ من اللّه الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف؛ فهم أذلَّاء تحت قهره. ﴿**ويفعلون ما يؤمرون**﴾؛ أي: مهما أمرهم اللّه تعالى؛ امتثلوا

(١) في (ب): «عليهم».

لأمره طوعاً واختياراً. وسجود المخلوقات للّه تعالى قسمان: **سجودُ اضطرار** ودلالةٍ على ما له من صفات الكمال، وهٰذا عامٌ لكل مخلوق من مؤمنٍ وكافرٍ وبَرٍّ وفاجرٍ وحيوانٍ ناطقٍ وغيرِه. **وسجودُ اختيارٍ** يختصُّ بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥١﴾ يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدلُّ على ذٰلك بانفراده بالنعم [والوحدانية]، فقال: و﴿لا تتَّخذوا إلٰهين اثنين﴾؛ أي: تجعلون له شريكاً في إلٰهيَّته، وهو ﴿إنَّما هو إلٰهٌ واحدٌ﴾: متوحِّد في الأوصاف العظيمة، متفرِّد بالأفعال كلِّها؛ فكما أنَّه الواحد في ذاته وأسمائِهِ ونعوته وأفعاله؛ فَلْتُوحِّدوه في عبادته، ولهٰذا قال: ﴿فإيَّايَ فارهَبونِ﴾؛ أي: خافوني، وامتثلوا[1] أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا شيئاً من المخلوقات؛ فإنَّها كلها للّه تعالى مملوكة.

﴿٥٢﴾ فـ﴿له ما في السمٰوات والأرضِ وله الدِّينُ واصِباً﴾؛ أي: الدين والعبادة والذُّلُّ في جميع الأوقاتِ للّه وحدَه على الخلق أن يُخْلِصوه للّه ويَنْصَبِغوا بعبوديَّته. ﴿أفغير اللّه تتَّقونَ﴾: من أهل الأرض أو أهل السماوات؛ فإنَّهم لا يملِكون لكم ضرًّا ولا نفعاً، واللّه المنفرد بالعطاء والإحسان.

﴿٥٣﴾ ﴿وما بكم من نعمةٍ﴾: ظاهرةٍ وباطنةٍ ﴿فمِنَ اللّه﴾: لا أحد يَشْرَكُه فيها، ﴿ثم إذا مسَّكم الضُّرُّ﴾: من فقر ومرض وشدَّة ﴿فإليه تجأرونَ﴾؛ أي: تضجُّون بالدُّعاء والتضرُّع لعلمكم أنَّه لا يدفعُ الضرَّ والشدَّة إلَّا هو؛ فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبُّون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

﴿٥٤ ـ ٥٥﴾ ولكنَّ كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم ويجحدون نعمةَ اللّه عليهم إذا نجَّاهم من الشدَّة ـ فصاروا في حال الرخاء ـ؛ أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهٰذا قال: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾؛ أي: أعطيناهم؛ حيث نَجَّيْنَاهم من

---

(١) في (ب): «أي: فامتثلوا».

الشدة، وخلَّصناهم من المشقَّة. ﴿فتمتَّعوا﴾: في دُنياكم قليلاً ﴿فسوف تعلمونَ﴾: عاقبة كفرِكُم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على اللّه الكذب، وأنَّهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلمُ ولا تنفعُ ولا تضرُّ نصيباً مما رزقهم اللّه وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقِهِ على الشرك به، وتقرَّبوا به إلى أصنام منحوتةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وجعلوا للّه مما ذَرأ من الحَرْث والأنعام نصيباً فقالوا هٰذا للّه بزعمِهِم وهٰذا لشركائِنا فما كانَ لشرَكائِهِم فلا يَصِلُ إلى اللّه...﴾ الآية. ﴿تاللّه لَتُسألُنَّ عما كنتُم تفترون﴾: ويُقال: ﴿آللّهُ أمركم بهٰذا أم على اللّه تفترون﴾؟ وما ظنُّ الذين يفترون على اللّه الكذب يوم القيامة؟! فيعاقبهم على ذٰلك أشدَّ العقوبة.

﴿٥٧ ـ ٥٩﴾ ﴿ويجعلون للّه البناتِ﴾: حيث قالوا عن الملائكةِ العبادِ المقرَّبين: إنَّهم بناتُ اللّه، ﴿ولهم ما يشتهونَ﴾؛ أي: لأنفسهم الذُّكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهةً شديدةً؛ فكان أحدهم ﴿إذا بُشِّرَ بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مسودًّا﴾: من الغمِّ الذي أصابه، ﴿وهو كظيمٌ﴾؛ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بُشِّرَ بأنثى، وحتى إنه يُفْتَضَح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بُشِّرَ به، ثم يُعْمِلُ فكرَه ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بُشِّرَ بها: ﴿أيُمْسِكُه على هُوْنٍ﴾؛ أي: يتركها من غير قتل على إهانةٍ وذلٍّ، ﴿أم يدسُّه في التُّراب﴾؛ أي: يدفنها وهي حيَّة، وهو الوأدُ الذي ذمَّ اللّه به المشركين. ﴿ألا ساء ما يحكُمون﴾: إذ وصفوا اللّه بما لا يَليق بجلاله من نسبة الولد إليه، ثم لم يكفِهِم هٰذا حتى نسبوا له أردأ القسمين، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها؛ فكيف ينسبونها للّه تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

﴿٦٠﴾ ولما كان هٰذا من أمثال السَّوْء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون؛ قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء﴾؛ أي: المثل الناقص والعيب التامُّ. ﴿وللّه المَثَل الأعلى﴾: وهو كلُّ صفة كمال، وكلُّ كمال في الوجود فاللّه أحقُّ به

من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبَّة والإنابة والمعرفة. ﴿وهو العزيزُ﴾: الذي قَهَرَ جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقاتُ بأسرها. ﴿الحكيمُ﴾: الذي يَضَعُ الأشياء مواضِعَها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يُحمد عليه، ويُثنى على كماله فيه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه؛ ذَكَرَ كمال حلمِهِ وصبرِهِ، فقال: ﴿ولو يؤاخِذُ اللّه الناس بظلمِهِم﴾: من غير زيادة ولا نقص، ﴿ما تَرَكَ﴾ على ظهرها ﴿من دابَّة﴾؛ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدوابِّ والحيوانات؛ فإنَّ شؤم المعاصي يَهْلِكُ به الحرث والنسل. ﴿ولكن يؤخِّرُهم﴾: عن تعجيل العقوبة عليهم، ﴿إلى أجل مسمًّى﴾: وهو يوم القيامة. ﴿فإذا جاء أجلُهم لا يستأخِرونَ ساعةً ولا يستقدِمونَ﴾: فليَحْذَروا ما داموا في وقتِ الإمهال قبل أن يجيء الوقتُ الذي لا إمهالَ فيه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى أنَّ المشركين ﴿يجعلون للّه ما يكرهون﴾: من البنات ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك؛ بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيدٌ للّه؛ فكما أنهم يكرهون ولا يرضَوْن أن يكونَ عبيدُهم ـ وهم مخلوقون من جنسِهم ـ شركاءَ لهم فيما رزقهم اللّه؛ فكيف يَجْعَلون له شركاءَ من عبيده؟ ﴿و﴾: هم مع هٰذه الإساءة العظيمةِ، ﴿تَصِفُ ألسنتُهم الكَذِبَ أنَّ لهم الحسنى﴾؛ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ ردَّ عليهم بقوله: ﴿لا جَرَمَ أنَّ لهم النارَ وأنَّهم مُفرَطونَ﴾: مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

﴿٦٣﴾ بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب، فقال تعالى: ﴿تاللّهِ لقد أرسَلْنا إلى أمم من قبلِكَ﴾: رسلاً يدعونَهم إلى التوحيد، ﴿فزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم﴾: فكذَّبوا الرسل، وزعموا أنَّ ما هم عليه هو الحقُّ المنجِّي من

كلِّ مكروه، وأنَّ ما دعت إليه الرسل؛ فهو بخلاف ذٰلك، فلما زيَّن لهم الشيطان أعمالَهم؛ صار ﴿وليُّهم﴾: في الدنيا، فأطاعوه واتَّبعوه وتولَّوْه، ﴿أفتتَّخذونَهُ وذُرِّيَّتَهُ أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئسَ للظالمينَ بدلاً﴾. ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾: في الآخرة؛ حيث تولَّوا عن ولاية الرحمٰن ورَضُوا بولاية الشيطان، فاستحقُّوا لذٰلك عذاب الهوان.

﴿[وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾]﴾[1].

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٦٥﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلُّون بذٰلك على أنَّه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده؛ لأنَّه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هٰذا الإحسان لذو رحمةٍ واسعةٍ وجودٍ عظيم.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٦﴾ أي: ﴿إنَّ لكم في الأنعام﴾: التي سخَّرها الله لمنافعكم، ﴿لعبرةً﴾: تستدلُّون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه؛ حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفَرْث والدَّم، فأخرج من بين ذٰلك لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين للذَّته ولأنه يُسقي ويغذي؛ فهل هٰذه إلَّا قدرة إلٰهيَّة لا أمور طبيعيَّة؟! فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكُله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبناً خالصاً سائغاً للشاربين؟!

﴿٦٧﴾ وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكُله العباد طريًا ونضيجاً وحاضراً ومدَّخراً وطعاماً وشراباً يُتَّخذُ من عصيرها ونبيذها ومن السَّكَر الذي كان حلالاً قبل ذٰلك، ثمَّ

(١) في النسختين لا يوجد تفسير للآية (٦٤)؛ ولعل المؤلف ـ رحمه الله ـ سها عنها.

إن اللّه نَسَخَ حِلَّ المسكرات وأعاض عنها بالطيِّبات من الأنبذة وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة، ولهٰذا قال من قال: إنَّ المراد بالسَّكر هنا الطعام والشراب اللذيذ، وهو أولى من القول الأول. ﴿إنَّ في ذٰلك لآية لقوم يعقلونَ﴾: عن اللّه كمال اقتداره؛ حيث أخرجها من أشجارٍ شبيهةٍ بالحطب، فصارت ثمرةً لذيذةً وفاكهةً طيبةً، وعلى شمول رحمته؛ حيث عمَّ[1] بها عباده، ويسَّرها لهم، وأنَّه الإلٰه المعبود وحَده؛ حيثُ إنه المنفردُ بذٰلك.

ـ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٨ ـ ٦٩﴾ في خلق هٰذه النَّحلة الصغيرة، التي هداها اللّه هٰذه الهداية العجيبة، ويَسَّر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم اللّه لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هٰذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها؛ فيه شفاء للناس من أمراض عديدة؛ فهٰذا دليلٌ على كمال عناية اللّه تعالى وتمام لطفه بعباده، وأنَّه الذي لا ينبغي أن يُحَبَّ غيره، ويُدْعى سواه.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧٠﴾ يخبر تعالى أنه الذي خَلَقَ العباد ونقلهم في الخليقة طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفَّاهم، ومنهم من يُعَمِّرُهُ حتى يُرَدَّ ﴿إلى أرذل العُمُر﴾؛ أي: أخسّه، الذي يبلغ به الإنسان إلى ضَعْف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضَعْفُهُ، حتى إنَّه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقلُهُ كعقل الطفل، ولهٰذا قال: ﴿لِكَي لا يعلم بعدَ علم شيئاً إنَّ اللّه عليمٌ قديرٌ﴾؛ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذٰلك ما يُنَقَّلُ به الآدميَّ من أطوار الخلقة خلقاً بعد خلقٍ؛ كما قال تعالى: ﴿اللّه الذي خَلَقَكُم من ضَعْفٍ ثم جعل من بعدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثم جعلَ من بعد قُوَّةٍ ضعفاً وشيبةً يَخْلُقُ ما يشاء وهو العليم القديرُ﴾.

---

(١) في (ب): «عَمَّم».

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿٧١﴾ وهٰذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به؛ يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنَّكم مخلوقون مرزوقون؛ إلَّا أنَّه تعالى ﴿فضَّلَ بعضَكم على بعض في الرزق﴾: فجعل منكم أحراراً لهم مالٌ وثروةٌ، ومنكم أرقَّاء لهم لا يملكونَ شيئاً من الدنيا؛ فكما أن سادتهم الذين فضَّلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿برادِّي رزقِهِم على ما مَلَكَتْ أيمانُهم فهم فيه سواءٌ﴾: ويرون هٰذا من الأمور الممتنعة؛ فكذٰلك مَنْ أشركتُم بها مع الله؛ فإنَّها عبيدٌ ليس لها مِن الملك مثقال ذَرَّةٍ؛ فكيف تجعلونها شركاء للّه تعالى؟! هل هٰذا إلَّا مِنْ أعظم الظُّلم والجحود لنعم الله، ولهٰذا قال: ﴿أفبنعمةِ الله يَجْحَدُونَ﴾؛ فلو أقرُّوا بالنعمة ونسبوها إلى مَنْ أولاها؛ لما أشركوا به أحداً.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن منَّته العظيمة على عباده؛ حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنُوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تَقَرُّ بهم أعينُهم ويخدِمونهم ويقضونَ حوائِجَهم وينتفعونَ بهم من وجوهٍ كثيرةٍ، ورزَقَهم من الطيبات من المآكل والمشارب والنِّعم الظاهرة التي لا يقدِرُ العبادُ أن يُحصوها. ﴿أفبالباطلِ يؤمنونَ وبنعمةِ الله هم يكفرون﴾؛ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجَدَه الله، وليس له من وجوده سوى العدم؟ فلا تَخْلُقُ ولا تَرْزُقُ ولا تدبِّرُ من الأمور[1] شيئاً، وهٰذا عامٌّ لكلِّ ما عُبِدَ من دون الله؛ فإنَّها باطلةٌ؛ فكيف يتَّخذها المشركون من دون الله. ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾: يجحَدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هٰذا إلَّا من أظلم الظُّلم وأفجر الفجور وأسفه السَّفَه؟!

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ

(١) في (ب): «الأمر».

﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٣ ـ ٧٤﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنَّهم يعبدون من دونه آلهة اتَّخذوها شركاءَ للّه، والحال أنَّهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض؛ فلا يُنْزِلون مطراً ولا رزقاً، ولا يُنْبِتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملِكون مثقال ذرَّةٍ في السماواتِ والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا؛ فإنَّ غير المالك للشيء ربَّما كان له قوَّة واقتدارٌ على ما ينفع من يتَّصل به، وهٰؤلاء لا يملكون ولا يقدرون؛ فهٰذه صفة آلهتهم؛ كيف جعلوها مع اللّه وشبَّهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كلُّه والحمد كلُّه والقوة كلُّها، ولهٰذا قال: ﴿**فلا تضرِبوا للّه الأمثالَ**﴾: المتضمِّنة للتسوية بينه وبين خلقه. ﴿**إنَّ اللّه يعلمُ وأنتمُ لا تعلمونَ**﴾: فعلينا أن لا نقولَ عليه بلا علم، وأن نسمعَ ما ضَرَبُه العليم من الأمثال؛ فلهٰذا ضَرَبَ تعالى مَثَلَيْنِ له ولمن يُعْبَدُ من دونِهِ:

﴿٧٥﴾ **أحدهما**: عبدٌ مملوكٌ؛ أي: رقيق لا يملك نفسَه ولا يملكُ من المال والدُّنيا شيئاً، **والثاني**: حرٌّ غنيٌّ قد رزقه اللّه منه رزقاً حسناً من جميع أصناف المال، وهو كريمٌ محبٌّ للإحسان؛ فهو ينفِقُ منه سرًّا وجهراً؛ هل يستوي هٰذا وذاك؟! لا يستويانِ؛ مع أنَّهما مخلوقان، غير محال استواؤهما؛ فإذا كانا لا يستويان؛ فكيف يستوي المخلوقُ العبدُ الذي ليس له ملكٌ ولا قدرةٌ ولا استطاعةٌ، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالربِّ الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كلِّ شيءٍ؟! ولهٰذا حمد نفسه واختصَّ بالحمدِ بأنواعه، فقال: ﴿**الحمدُ للّه**﴾: فكأنَّه قيلَ: إذا كان الأمرُ كذٰلك؛ فلم سوَّى المشركون آلهتهم باللّه؟! قال: ﴿**بل أكثرُهم لا يعلمونَ**﴾: فلو علموا حقيقة العلم؛ لم يتجرَّؤوا على الشرك العظيم.

﴿٧٦﴾ **والمثل الثاني**: مَثَلُ ﴿**رجلين أحدُهما أبكمُ**﴾: لا يسمعُ ولا ينطِقُ، و﴿**لا يقدِرُ على شيءٍ**﴾: لا قليل ولا كثير، ﴿**وهو كَلٌّ على مولاه**﴾؛ أي: يخدمه مولاه ولا يستطيع هو أن يخدِمَ نفسه؛ فهو ناقصٌ من كلِّ وجه، فهل يَسْتَوي هذا ومَنْ

كان ﴿يأمُرُ بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم﴾: فأقوالُهُ عدلٌ وأفعاله مستقيمةٌ؛ فكما أنهما لا يستويان؛ فلا يستوي مَنْ عُبِدَ من دون الله وهو لا يقدِرُ على شيء من مصالحه؛ فلولا قيامُ الله بها؛ لم يستطعْ شيئاً منها، لا يكون كفواً ولا ندًا لمن لا يقولُ إلَّا الحقَّ، ولا يفعلُ إلَّا ما يُحْمَدُ عليه.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٧﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيبِ السماوات والأرض؛ فلا يعلم الخفايا والبواطنَ والأسرارَ إلَّا هو، ومن ذٰلك علمُ الساعة؛ فلا يدري أحدٌ متى تأتي إلا اللّهُ؛ فإذا جاءت وتجلَّت؛ لم تكنْ ﴿إلَّا كلمح البصرِ أو هو أقربُ﴾: من ذٰلك، فيقومُ الناس من قبورِهم إلى يوم بعثِهِم ونُشورِهم، وتفوتُ الفرصُ لمَنْ يريد الإمهال. ﴿إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: فلا يُستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٨﴾ أي: هو المنفرد بهٰذه النِّعم؛ حيث ﴿أخرجكم من بطون أمَّهاتِكم لا تعلمونَ شيئاً﴾: ولا تقدِرون على شيءٍ. ثم إنَّه ﴿جَعَلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ﴾: خصَّ هٰذه الأعضاء الثلاثة لشرفِها وفضلِها ولأنَّها مفتاحٌ لكلِّ علم؛ فلا وَصَلَ للعبد علمٌ إلَّا مِنْ أحدِ هٰذه الأبواب الثلاثة، وإلَّا؛ فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إيَّاها وجعل يُنَمِّيها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كلُّ أحدٍ إلى الحالة اللائقة به، وذٰلك لأجل أن يشكروا اللّه باستعمال ما أعطاهم من هٰذه الجوارح في طاعة اللّه؛ فمن استعملها في غير ذٰلك؛ كانتْ حجَّةً عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٧٩﴾ أي: لأنهم المنتفعون بآيات اللّه، المتفكِّرون فيما جُعِلَتْ آيةً عليه، وأما غيرهم؛ فإنَّ نظرهم نظرُ لهوٍ وغفلةٍ. ووجه الآية فيها أنَّ اللّه تعالى خَلَقَها بخلقةٍ

تَصْلُحُ للطيران، ثم سخَّر لها هٰذا الهواء اللطيف، ثم أودعَ فيها من قوَّة الحركة ما قدرت به على ذٰلك، وذٰلك دليلٌ على حكمتِهِ وعلمِهِ الواسع وعنايتِهِ الربانيَّة بجميع مخلوقاتِهِ وكمال اقتدارِهِ؛ تبارك ربُّ العالمين.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٠﴾ يذكُر تعالى عبادَه نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتِكُم سَكَناً﴾: في الدُّور والقصور ونحوها، تُكِنُّكم من الحرِّ والبرد، وتستُركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتَّخذون فيها البيوت والغرف، والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظٌ لأموالكم وحُرَمِكم وغيرِ ذٰلك من الفوائد المشاهدة. ﴿وجعلَ لكُم من جلودِ الأنعام﴾: إما من الجلدِ نفسِهِ، أو مما نَبَتَ عليه من صوفٍ وشعرٍ ووبرٍ، ﴿بيوتاً تَسْتَخِفُّونها﴾؛ أي: خفيفة الحمل[1] تكون لكم في السفر، والمنازل التي لا قَصْدَ لكم في استيطانها، فتقيكم من الحرِّ والبرد والمطرِ، وتقي متاعكم من المطر. ﴿و﴾ جعل لكم ﴿من أصوافِها﴾؛ أي: الأنعام، ﴿وأوبارِها وأشعارِها أثاثاً﴾: وهٰذا شاملٌ لكلِّ ما يُتَّخذ منها من الآنية والأوعية والفُرُش والألبسة والأجِلَّة وغير ذٰلك. ﴿ومتاعاً إلى حينٍ﴾؛ أي: تتمتَّعون بذٰلك في هٰذه الدُّنيا وتنتفعون بها؛ فهٰذا مما سخَّر الله العباد لصنعته وعمله.

﴿٨١﴾ ﴿والله جَعَلَ لكم مما خَلَقَ﴾؛ أي: من مخلوقاته التي لا صنعةَ لكم فيها، ﴿ظلالاً﴾: وذٰلك كأظِلَّة الأشجار والجبال والآكام ونحوِها. ﴿وجعل لكُم من الجبال أكناناً﴾؛ أي: مغارات تُكِنُّكم من الحرِّ والبرد والأمطار والأعداء. ﴿وجَعَلَ لكم سرابيلَ﴾؛ أي: ألبسة وثياباً، ﴿تقيكُمُ الحرَّ﴾: ولم يذكُرِ الله البردَ؛ لأنَّه قد تقدَّم أنَّ هٰذه السورة أولها في أصول النعم وآخرها في مكمِّلاتها ومتمِّماتها، ووقاية البرد من أصول النِّعم؛ فإنَّه من الضرورة وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لكُم فيها

(١) في (ب): «المحمل».

دِفْءٌ ومنافعُ﴾. و ﴿تقيكم بأسَكم﴾؛ أي: وثياباً تَقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدُّروع والزُّرود(١) ونحوها. ﴿كذلك يُتِمُّ نعمتَه عليكم﴾: حيث أسبغَ عليكم من نعمِهِ ما لا يدخُلُ تحت الحصر. ﴿لعلَّكم﴾: إذا ذكرتُم نعمة الله ورأيتموها غامرةً لكم من كلِّ وجه؛ ﴿تُسْلِمونَ﴾: لعظمتِهِ وتنقادون لأمرِهِ وتصرفونها في طاعة مُوليها ومُسْديها؛ فكثرةُ النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيدَ الشُّكر والثناء بها على الله تعالى.

﴿٨٢﴾ ولكنْ أبى الظالمونَ إلَّا تمرُّداً وعناداً، ولهذا قال الله عنهم: ﴿فإنْ تَوَلَّوا﴾: عن الله وعن طاعته بعدما ذُكِّروا بنعمه وآياته، ﴿فإنَّما عليك البلاغُ المبين﴾: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيءٌ، بل أنت مطالَبٌ بالوعظ والتَّذْكير والإنذار والتحذير.

﴿٨٣﴾ فإذا أدَّيْت ما عليك؛ فحسابُهم على الله؛ فإنَّهم يَرَوْنَ الإحسان ويعرفون نعمةَ الله، ولٰكنَّهم يُنْكِرونَها ويَجْحَدونها. ﴿وأكثرُهم الكافرونَ﴾: لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات؛ لفساد مشاعرهم وسوء قصودهم، وسيَرَوْنَ جزاء الله لكلِّ جبارٍ عنيدٍ كفورٍ للنعم متمرِّدٍ على الله وعلى رسله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٤ ـ ٨٥﴾ يخبر تعالى عن حال هٰؤلاء الذين كفروا في يوم القيامة، وأنَّه لا يُقبل لهم عذرٌ ولا يُرْفَعُ عنهم العقاب، وأنَّ شركاءهم تتبرَّأ منهم، ويقرُّون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿ويومَ نبعثُ من كلِّ أمةٍ شهيداً﴾: يشهدُ عليها بأعمالهم وماذا أجابوا به الدَّاعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثُهُ الله أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا؛ تمَّ عليهم الحكم. ﴿ثم لا(٢) يؤذَنُ للذين كفروا﴾: في الاعتذار؛ لأنَّ اعتذارهم بعدما علموا يقيناً بطلانَ ما هم عليه اعتذارٌ كاذبٌ لا يفيدُهم شيئاً، وإنْ طَلَبوا أيضاً الرجوع إلى الدُّنيا

(١) في (ب): «الزَّرَد».
(٢) في (ب): «فلا».

ليستدركوا؛ لم يُجابوا ولم يُعْتَبوا، بل يبادِرُهم العذاب الشديد الذي لا يخفَّف عنهم من غير إنظارٍ ولا إمهالٍ من حين يرونه؛ لأنَّهم لا حسنات لهم، وإنَّما تعدُّ أعمالهم وتُحصى ويوقَفون عليها، ويُقَرَّرُون بها، ويُفْتَضَحون.

﴿٨٦﴾ ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾: يوم القيامة، وعلموا بطلانها، ولم يمكِنْهم الإنكار، ﴿قالوا ربَّنا هٰؤلاء شركاؤنا الذين كُنَّا ندعو من دونِكَ﴾: ليس عندها نفعٌ ولا شفعٌ، فنوَّهوا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاءُ والعداوةُ بينَهم وبينَها، ﴿فألقَوْا إليهم القول﴾؛ أي: ردَّتْ عليهم شركاؤهم عليهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إنَّكم لكاذبون﴾: حيثُ جعلتُمونا شركاء للّه وعبدتُمونا معه، فلم نأمُرْكم بذٰلك، ولا زَعَمْنا أنَّ فينا استحقاقاً للألوهيَّة؛ فاللوم عليكم.

﴿٨٧﴾ فحينئذٍ استسلموا للّه، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب، ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾: فدخلوا النارَ وقد امتلأت قلوبُهم من مَقْتِ أنفسهم ومن حَمْدِ ربِّهم، وأنَّه لم يعاقِبْهم إلَّا بما كسبوا.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٨﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذَّبوا بآيات اللّه، وحاربوا رُسُلَه، وصدُّوا الناس عن سبيل اللّه، وصاروا دعاةً إلى الضلال، فاستحقُّوا مضاعفة العذاب كما تضاعَفَ جرمُهم، وكما أفسدوا في أرض اللّه.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٩﴾ لما ذَكَر فيما تقدَّم أنه يبعث في كلِّ أمةٍ شهيداً؛ ذكر ذٰلك أيضاً هنا، وخصَّ منهم هٰذا الرسول الكريم، فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هٰؤلاء﴾؛ أي: على أمَّتك تشهد عليهم بالخير والشرِّ، وهٰذا من كمال عدل اللّه تعالى؛ أنَّ كلَّ رسول يشهدُ على أمَّته؛ لأنَّه أعظمُ اطِّلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفقُ من أن يشهدَ عليهم إلَّا بما يستحقُّون، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿وكذٰلك جَعَلْناكم أمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جِئْنا من كلِّ أمَّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هٰؤلاء شهيداً. يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وعَصَوُا الرسولَ لو تُسَوَّى بهم الأرضُ﴾. وقوله: ﴿ونزَّلْنا عليك الكتابَ تبياناً لكلِّ شيءٍ﴾: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما

يحتاج إليه العبادُ؛ فهو مبيَّن فيه أتمُّ تبيين، بألفاظ واضحةٍ ومعانٍ جليَّةٍ، حتى إنَّه تعالى يُثَنِّي فيه الأمور الكبار التي يحتاجُ القلب لمرورها عليه كلَّ وقتٍ وإعادتها في كلِّ ساعةٍ ويعيدُها ويُبديها بألفاظٍ مختلفةٍ وأدلَّةٍ متنوعةٍ لتستقرَّ في القلوب فتثمرَ من الخير والبرِّ بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرةً يكون اللفظُ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هٰذا بالآية التي بعد هٰذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تُحصر.

فلما كان هٰذا القرآن تبياناً لكلِّ شيءٍ؛ صار حجَّة اللّه على العباد كلِّهم، فانقطعت به حجَّةُ الظالمين، وانتفع به المسلمونَ، فصار هدىً لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودُنياهم ورحمةً ينالون به كلَّ خير في الدُّنيا والآخرة؛ فالهدى ما نالوا به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتَّب على ذٰلك من ثواب الدُّنيا والآخرة؛ كصلاح القلب وبرِّه وطمأنينتِهِ، وتمام العقل الذي لا يتمُّ إلَّا بتربيتِهِ على معانيه التي هي أجلُّ المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقَوْل والفعل ونَيْل رضا اللّه تعالى وكرامتِهِ العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلَّا الربُّ الرحيم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿٩٠﴾ فالعدل الذي أمر اللّه به يشملُ العدلَ في حقِّه وفي حقِّ عباده؛ فالعدلُ في ذٰلك أداءُ الحقوق كاملةً موفورةً؛ بأن يؤدِّيَ العبد ما أوجب اللّه عليه من الحقوق الماليَّة والبدنيَّة والمركَّبة منهما في حقِّه وحقِّ عباده، ويعامل الخلق بالعدل التامِّ، فيؤدِّي كلُّ والٍ ما عليه تحت ولايتِهِ، سواء في ذٰلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي. والعدل: هو ما فَرَضَه اللّه عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعامِلَهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات بإيفاء جميع ما عليك؛ فلا تبخسُ لهم حقًّا، ولا تغشُّهم ولا تخدعُهم وتظلِمُهم؛ فالعدل واجبٌ، والإحسان فضيلةٌ مستحبٌّ، وذٰلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذٰلك من أنواع النفع، حتى يدخلَ فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره، وخصَّ اللّه إيتاء ذي القُربى وإن كان داخلاً في العموم؛ لتأكُّد حقِّهم وتعيُّن صلتهم وبرِّهم والحرص على ذٰلك، ويدخل في ذٰلك جميع الأقارب؛ قريبهم وبعيدهم، لٰكن كلُّ مَن كان أقربَ كان أحقَّ بالبرِّ.

وقوله: ﴿وينهى عن الفحشاءِ﴾: وهو كلُّ ذنبٍ عظيم استفحشته الشرائعُ والفِطَر؛ كالشركِ باللّه والقتل بغير حقٍّ والزِّنا والسرقة والعُجب والكِبْر واحتقار الخلق وغير ذٰلك من الفواحش، ويدخل في المنكر كلُّ ذنبٍ ومعصيةٍ متعلِّق بحقِّ اللّه تعالى، وبالبغي كلُّ عدوان على الخلق في الدِّماء والأموال والأعراض. فصارت هٰذه الآية جامعةً لجميع المأمورات والمنهيَّات، لم يبقَ شيءٌ إلَّا دخل فيها. فهٰذه قاعدةٌ ترجع إليها سائر الجزئيَّات؛ فكلُّ مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى؛ فهي مما أمر اللّه به، وكلُّ مسألةٍ مشتملة على فحشاء أو منكَر أو بغي؛ فهي مما نهى اللّه عنه، وبها يُعْلَمُ حُسنُ ما أمر اللّه به وقُبح ما نهى عنه، وبها يُعتبر ما عند الناس من الأقوال، وتردُّ إليها سائر الأحوال؛ فتبارَكَ مَن جعل في كلامِهِ الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء، ولهٰذا قال: ﴿يعظِكُم﴾؛ به، أي: بما بيَّنه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرَّتكم. ﴿لعلَّكم تذكَّرون﴾: ما يعظِكُم به فتفهمونه وتعقِلونه؛ فإنَّكم إذا تذكَّرتموه وعقلتموه؛ عملتم بمقتضاه، فسعدتُم سعادةً لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجبٌ في أصل الشرع؛ أمر بوفاء ما أوجبه العبدُ على نفسه، فقال:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩١﴾ وهٰذا يشمَلُ جميع ما عاهد العبدُ عليه ربَّه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برًّا، ويشمل أيضاً ما تعاقد عليه هو وغيره؛ كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبدُ لغيره ويؤكِّده على نفسه؛ فعليه في جميع ذٰلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهٰذا نهى اللّه عن نقضِها، فقال: ﴿ولا تنقُضوا الأيمان بعد توكيدها﴾: بعقدها على اسم اللّه تعالى. ﴿وقد جعلتُم اللّه عليكم﴾: أيها المتعاقدون، ﴿كفيلاً﴾: فلا يَحِلُّ لكم أن لا تُحْكِموا ما جعلتم اللّه عليكم كفيلاً، فيكون ذٰلك تركُ تعظيم اللّه واستهانةٌ به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلتَ اللّه فيه كفيلاً؛ فكما ائتمنك وأحسن ظنَّه فيك؛ فَلْتَفِ له بما

قلت وأكَّدته. ﴿إنَّ الله يعلم ما تفعلونَ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله على حسب نيَّته ومقصدِهِ.

﴿٩٢﴾ ﴿ولا تكونوا﴾: في نقضِكُم للعهودِ بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلِّها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كالتي﴾ تَغْزِلُ غزلاً قويًّا؛ فإذا استحكم وتمَّ ما أريد منه؛ نَقَضَتْه فجعلته ﴿أنكاثاً﴾: فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفدْ سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي؛ فكذلك مَنْ نَقَضَ ما عاهد عليه؛ فهو ظالمٌ جاهلٌ سفيهٌ ناقص الدين والمروءة. وقوله: ﴿تتَّخذون أيمانكم دَخَلاً بينَكم أن تكونَ أمَّةٌ هي أربى من أمَّةٍ﴾؛ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم؛ تعقدون الأيمان المؤكَّدة، وتنتظِرون فيها الفرصَ: فإذا كان العاقدُ لها ضعيفاً غير قادرٍ على الآخر؛ أتمَّها لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزِهِ. وإن كان قويًّا يرى مصلحتَهَ الدنيويَّة في نقضِها؛ نَقَضَها غيرَ مبالٍ بعهدِ الله ويمينِه، كلُّ ذلك دَوَراناً مع أهوية النفوس وتقديماً لها على مراد الله منكم وعلى المروءة الإنسانيَّة والأخلاق المرضيَّة؛ لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوَّة من الأخرى. وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم [الله] به؛ حيث قيَّضَ من أسباب المِحَنِ الذي يُمْتَحَنُ به الصادق الوفيُّ من الفاجر الشقيِّ. ﴿وليبيِّننَّ لكم يومَ القيامةِ ما كنتُم فيه تختلفونَ﴾: فيجازي كلًّا بعمله[1]، ويخزي الغادرَ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩٣﴾ أي: ﴿لو شاء الله﴾ لجَمَعَ الناس على الهدى، وجعلهم ﴿أمَّةً واحدةً﴾: ولكنَّه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايتُهُ وإضلالُهُ من أفعاله التابعة لعلمِهِ وحكمتِهِ، يعطي الهداية من يستحقُّها فضلاً، ويمنعُها مَنْ لا يستحقُّها عدلاً ﴿ولَتُسألُنَّ عما كُنتم تعملونَ﴾: من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم عليها أتمَّ الجزاء وأعدله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩٤﴾ أي: ﴿ولا تتَّخذوا أيمانكم﴾: وعهودكم ومواثيقكم تَبَعاً لأهوائِكم، متى

(١) في (ب): «بِمَا عَمِل».

شئتُم وفَّيتُم بها، ومتى شئتُم نَقَضْتُموها؛ فإنَّكم إذا فعلتُم ذٰلك؛ تَزِلُّ أقدامُكم بعد ثبوتها على الصِّراط المستقيم. ﴿وتذوقوا السُّوء﴾؛ أي: العذاب الذي يسوؤكم ويَحْزُنكم. ﴿بما صدَدتُم عن سبيل اللّه﴾: حيث ضللتُم وأضللتُم غيركم. ﴿ولكم عذابٌ عظيمٌ﴾: مضاعف.

ــ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٥﴾ يحذِّر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل مَتاع الدُّنيا وحطامها، فقال: ﴿ولا تشتروا بعهد اللّه ثَمَناً قليلاً﴾: تنالونه بالنَّقْض وعدم الوفاء. ﴿إنَّما عند اللّه﴾: من الثواب العاجلِ والآجل لمن آثر رضاه وأوفى بما عاهد عليه اللّه، ﴿هو خيرٌ لكم﴾: من حطام الدُّنيا الزائلة ﴿إن كنتم تعلمونَ﴾.

﴿٩٦﴾ فآثِروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإنَّ الذي ﴿عندكم﴾: ولو كَثُر جدًّا لا بدَّ أن ينفدَ ويفنى، ﴿وما عند اللّه باقٍ﴾: ببقائِهِ، لا يفنى ولا يزول؛ فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهٰذا كقولِهِ تعالى: ﴿بل تؤثِرون الحياةَ الدُّنيا والآخرة خيرٌ وأبقى﴾. ﴿وما عندَ اللّه خيرٌ للأبرار﴾. وفي هٰذا الحث والترغيب على الزُّهد في الدنيا، خصوصاً الزُّهد المتعيِّن، وهو الزُّهد فيما يكون ضرراً على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب اللّه عليه وتقديمه على حقِّ اللّه؛ فإنَّ هٰذا الزُّهد واجبٌ. ومن الدواعي للزُّهد أن يقابلَ العبد لَذَّاتِ الدُّنيا وشهواتها بخيرات الآخرة؛ فإنَّه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين، وليس الزُّهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة؛ كالصلاة والصيام والذِّكر ونحوها، بل لا يكون العبدُ زاهداً زهداً صحيحاً حتَّى يقوم بما يقدِرُ عليه من الأوامر الشرعيَّة الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى اللّه وإلى دينه بالقول والفعل؛ فالزهدُ الحقيقيُّ هو الزهد فيما لا ينفعُ في الدين والدُّنيا، والرغبةُ والسعي في كلِّ ما ينفع. ﴿ولنجزينَّ الذين صبروا﴾: على طاعة اللّه وعن معصيته، وفَطَموا أنفسَهم عن الشهوات الدنيويَّة المضرَّة بدينهم؛ ﴿أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾: الحسنةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ فإنَّ اللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿٩٧﴾ ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدُّنيا والآخرة فقال: ﴿مَنْ عمل صالحاً من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ﴾: فإنَّ الإيمان شرطٌ في صحَّة الأعمال الصالحة وقَبولها، بل لا تسمَّى أعمالاً صالحة إلَّا بالإيمان، والإيمان مقتضٍ لها؛ فإنَّه التصديق الجازم المثمِرُ لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبَّات؛ فمَنْ جَمَعَ بين الإيمان والعمل الصالح؛ ﴿فلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً﴾: وذٰلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاتِهِ لما يُشَوِّش عليه قلبه ويرزُقُه الله رزقاً حلالاً طيِّباً من حيث لا يحتسب. ﴿ولنجزِيَنَّهم﴾: في الآخرة ﴿أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ﴾: من أصناف اللذَّات؛ ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلب بشر، فيؤتيه الله في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٨ ـ ١٠٠﴾ أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرفُ الكُتُب وأجلُّها، وفيه صلاحُ القلوب والعلوم الكثيرة؛ فإنَّ الشيطان أحرصُ ما يكون على العبد عند شروعِهِ في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفِهِ عن مقاصدِها ومعانيها؛ فالطريق إلى السلامة من شرِّه الالتجاءُ إلى الله والاستعاذة به من شرِّه، فيقول القارىء: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم؛ متدبِّراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وسواسه[1] وأفكاره الرَّديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلِّي بحِلْية الإيمان والتوكُّل؛ فإنَّ الشيطان ﴿ليس له سلطانٌ﴾؛ أي: تسلُّط ﴿على الذين آمنوا وعلى ربِّهم﴾: وحده لا شريك له، ﴿يتوكَّلونَ﴾: فيدفع الله عن المؤمنين المتوكِّلين عليه شرَّ الشيطان ولا يبقى له عليهم سبيلٌ. ﴿إنَّما سلطانُه﴾؛ أي: تسلُّطه ﴿على الذين يَتَوَلَّوْنه﴾؛ أي: يجعلونه لهم وليًّا، وذٰلك بتخلِّيهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه؛ فهم الذين جعلوا له ولايةً على أنفسهم، فأزَّهم إلى المعاصي أزًّا، وقادهم إلى النار قَوْداً.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ

---

(١) في (ب): «وساوسه».

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿١٠١﴾ يذكُر تعالى أنَّ المكذِّبين بهٰذا القرآن يتتبَّعون ما يَرَوْنَه حجَّة لهم، وهو أنَّ اللّه تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يَشْرَع الأحكام ويبدِّل حكماً مكان آخر؛ لحكمته ورحمته؛ فإذا رأوه كذٰلك؛ قدحوا في الرسول وبما جاء به، و﴿قالوا إنما أنت مُفْتَرٍ﴾، قال اللّه تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمونَ﴾: فهم جهالٌ، لا علم لهم بربِّهم ولَا بشرعِهِ، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرةَ به؛ فإنَّ القدح في الشيء فرعٌ عن العلم به وما يشتمل عليه مما يوجب المدح والقدح.

﴿١٠٢﴾ ولهٰذا ذكر تعالى حكمته في ذٰلك، فقال: ﴿قل نَزَّلَه رُوحُ القُدُس﴾: وهو جبريلُ الرسول المقدَّس المنزَّه عن كلِّ عيب وخيانةٍ وآفةٍ، ﴿بالحقِّ﴾؛ أي: نزوله بالحقِّ، وهو مشتملٌ على الحقِّ في أخباره وأوامره ونواهيه؛ فلا سبيل لأحدٍ أن يَقْدَحَ فيه قدحاً صحيحاً؛ لأنَّه إذا عُلِمَ أنَّه الحقُّ؛ عُلِمَ أنَّ ما عارَضَه وناقَضَه باطلٌ. ﴿ليثبِّتَ الذين آمنوا﴾: عند نزول آياتِهِ وتوارُدِها عليهم وقتاً بعد وقتٍ؛ فلا يزال الحقُّ يصلُ إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبتَ من الجبال الرواسي. وأيضاً؛ فإنَّهم يعلمون أنَّه الحقُّ، وإذا شرع حكماً من الأحكام، ثم نَسَخَه؛ علموا أنه أبدله بما هو مثلُه أو خيرٌ منه لهم، وأنَّ نسخَه هو المناسب للحكمة الربانيَّة والمناسبة العقليَّة. ﴿وهدىً وبشرى للمسلمين﴾؛ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبيِّن لهم الحقَّ من الباطل والهدى من الضَّلال، ويبشِّرهم أنَّ لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً. وأيضاً؛ فإنه كلَّما نزل شيئاً فشيئاً؛ كان أعظم هدايةً وبشارةً لهم مِنْ لو أتاهم جملةً واحدةً وتفرَّق الفكرُ فيه، بل يُنْزِلُ اللّه حكماً وتارة أكثر؛ فإذا فهِموه وعَقَلوه وعَرَفوا المراد منه وتروَّوْا منه؛ أنزل نظيره. . . وهكذا. ولذٰلك بلغ الصحابة رضي اللّه عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيَّرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأوَّلين والآخرين، وكان أعلى وأولى لمن بعدَهم أن يتربَّوا بعلومه، ويتخلَّقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنورِهِ في ظُلمات الغيِّ والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات. فبذٰلك تستقيم أمورهم الدينيَّة والدنيويَّة.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ

وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿١٠٣﴾ يخبر تعالى عن قِيل المشركين المكذِّبين لرسوله: ﴿أنَّهم يقولون إنَّما يعلِّمه﴾: هٰذا الكتاب الذي جاء به، ﴿بَشَرٌ﴾: وذٰلك البشرُ الذي يشيرون إليه أعجميُّ اللسان. ﴿وهٰذا﴾: القرآن ﴿لسانٌ عربيٌّ مبينٌ﴾: هل هٰذا القول ممكنٌ أو له حظٌّ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذِبُ ولا يفكِّر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب ردَّه بمجرَّد تصوُّره.

﴿١٠٤﴾ ﴿إنَّ الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾: الدالَّة دلالة صريحةً على الحقِّ المبين فيردُّونها ولا يقبلونها، ﴿لا يهديهِمُ الله﴾: حيث جاءهم الهدى فردُّوه فعوقِبوا بحِرْمانِهِ وخِذْلان الله لهم. ﴿ولهم﴾: في الآخرة ﴿عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿إنما يفتري الكذب﴾؛ أي: إنما يصدُرُ افتراء الكذب من ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾: كالمعاندين لرسولِهِ من بعد ما جاءتهم البيناتُ. ﴿وأولئك هم الكاذبونَ﴾؛ أي: الكذب منحصرٌ فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمدٌ ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربِّه؛ فمُحالٌ أن يكذِبَ على الله، ويتقوَّل عليه ما لم يَقُلْ، فأعداؤه رَمَوْه بالكذب الذي هو وصفُهم، فأظهر الله خِزيهم وبيَّن فضائحهم؛ فله تعالى الحمد.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿١٠٦ ـ ١٠٨﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال مَن كَفرَ به من بعد إيمانه فعمي بعدما أبصر، ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى، وشَرَحَ صدرَه بالكفر راضياً به مطمئنًّا: أنَّ لهم الغضبَ الشديدَ من الربِّ الرحيم، الذي إذا غَضِبَ؛ لم يَقُمْ لغضبِهِ شيء وغضب عليهم كلُّ شيء. ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾؛ أي: في غاية الشدَّة، مع أنَّه دائمٌ أبداً. وذٰلك أنَّهم ﴿استحبُّوا الحياة الدُّنيا على الآخرة﴾: حيث ارتدُّوا على

أدبارهم؛ طمعاً في شيء من حطام الدُّنيا، ورغبةً فيه، وزهداً في خير الآخرة.

فلمَّا اختاروا الكفر على الإيمان؛ منعهم اللّه الهداية، فلم يهدِهم؛ لأنَّ الكفر وصفُهم، فطبع على قلوبهم؛ فلا يدخُلُها خيرٌ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم؛ فلا ينفذُ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم، فشملتْهم الغفلةُ وأحاط بهم الخِذْلان وحُرِموا رحمة اللّه التي وسعت كلَّ شيء، وذلك أنَّها أتتهم فردُّوها وعُرِضَتْ عليهم فلم يقبَلوها.

﴿١٠٩﴾ ﴿**لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون**﴾: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وفاتهم النعيمُ المقيمُ، وحصلوا على العذاب الأليم، وهذا بخلاف من أُكْرِه على الكفر وأُجْبِر عليه، وقلبُهُ مطمئنٌ بالإيمان راغبٌ فيه؛ فإنَّه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوزُ له النُّطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودلَّ **ذلك** على أنَّ كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنَّه لا عبرةَ به ولا يترتَّب عليه حكمٌ شرعيٌّ؛ لأنَّه إذا لم يعاقَبْ على كلمة الكفر إذا أكره عليها؛ فغيرُها من باب أولى وأحرى.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٠﴾ أي: ثم ﴿**إنَّ ربَّك**﴾: الذي ربَّى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه ﴿**لغفور رحيمٌ**﴾ لمن هاجر في سبيله، وخلَّى دياره وأمواله طالباً لمرضاةِ اللّه، وفُتِنَ على دينه ليرجعَ إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلَّص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء اللّه لِيُدْخِلَهم في دين اللّه بلسانِهِ ويدِهِ، وصَبَرَ على هذه العبادات الشاقَّة على أكثر الناس؛ فهذه أكبرُ الأسباب التي تُنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة اللّه للذنوب صغارها وكبارها، المتضمِّن ذلك زوال كلِّ أمرٍ مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم؛ فلهم الرحمة من اللّه في يوم القيامة.

﴿١١١﴾ حين ﴿**تأتي كلُّ نفس تجادِلُ عن نفسها**﴾: كلٌّ يقول: نفسي نفسي، لا يهمُه سوى نفسه؛ ففي ذلك اليوم يفتقر العبدُ إلى حصول مثقال ذرَّة من الخير. ﴿**وتُوفَّى كلُّ نفس ما عملت**﴾: من خيرٍ وشرٍّ. ﴿**وهم لا يُظْلَمونَ**﴾: فلا يزادُ في

سيئاتهم، ولا يُنْقَصُ من حسناتهم. ﴿فاليوم لا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ولا تُجزَوْن إلَّا ما كنتُم تعملونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٢ ـ ١١٣﴾ وهٰذه القرية هي مكَّة المشرَّفة التي كانت آمنةً مطمئنةً لا يُهاج فيها أحدٌ، وتحترِمها الجاهليَّةُ الجَهْلاء، حتى إنَّ أحدهم يجد قاتلَ أبيه وأخيه فلا يَهيجُهُ مع شدَّة الحميَّة فيهم والنعرة العربيَّة، فحصل لها من الأمن التامِّ ما لم يحصلْ لسواها، وكذٰلك الرزق الواسع، كانت بلدة ليس فيها زرعٌ ولا شجرٌ، ولكنْ يسَّرَ الله لها الرزقَ يأتيها من كلِّ مكان، فجاءهم رسولٌ منهم يعرفون أمانته وصدقَه؛ يدعُوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيِّئة، فكذَّبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضدَّ ما كانوا فيه، وألبسهم ﴿**لباس الجوع**﴾ الذي هو ضدُّ الرَّغدِ، ﴿**والخوفِ**﴾ الذي هو ضدُّ الأمن، وذٰلك بسبب صنيعهم وكفرِهم وعدم شُكْرِهم، وما ظَلَمَهُمُ الله ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلِمونَ.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿١١٤﴾ يأمر عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها. ﴿**حلالاً طيِّباً**﴾؛ أي: حالة كونها متَّصفة بهذين الوصفين؛ بحيث لا تكون مما حرَّم الله أو أثراً من غَصْب ونحوه؛ فتمتَّعوا بما خَلَقَ الله لكم من غير إسرافٍ ولا تَعَدٍّ. ﴿**واشكُروا نعمةَ الله**﴾: بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. ﴿**إن كنتُم إيَّاه تعبدون**﴾؛ أي: إن كنتُم مخلصين له العبادة؛ فلا تشكُروا إلَّا إيَّاه، ولا تنسَوا المنعم.

﴿١١٥﴾ ﴿إنَّما حرَّم عليكم﴾: الأشياء المضرَّة تنزيهاً لكم، وذٰلك: كالميتة، ويدخُلُ في ذلك كلُّ ما كان موته على غير ذكاةٍ مشروعة، ويُستثنى منه ميتة الجرادِ والسمكِ. ﴿والدَّمَ﴾: المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم؛ فلا يضرُّ. ﴿ولحم الخنزير﴾: لقذارتِهِ وخبثِهِ، وذٰلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وما أُهِلَّ لغير الله به﴾: كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصودٌ به الشرك. ﴿فمن اضطُرَّ﴾: إلى شيء من المحرَّمات؛ بأن حملته الضرورةُ وخاف إن لم يأكلْ أن يَهلِكَ؛ فلا جناحَ عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً؛ أي: إذا لم يُرِدْ أكل المحرَّم، وهو غير مضطرٍّ ولا متعدٌّ الحلال إلى الحرام أو متجاوزٍ لما زادَ على قَدْرِ الضرورة؛ فهٰذا الذي حرَّمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ ﴿ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتُكم الكَذِبَ هٰذا حلالٌ وهٰذا حرامٌ﴾؛ أي: لا تحرِّموا وتحلِّلوا من تلقاء أنفسكم كذباً وافتراءً على الله وتقوُّلاً عليه؛ ﴿لتَفتَروا على الله الكذِبَ إنَّ الذين يفترونَ على الله الكَذِبَ لا يفلِحونَ﴾: لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، ولا بدَّ أن يُظْهِرَ الله خِزْيَهم.

﴿١١٧﴾ وإن تمتَّعوا في الدُّنيا؛ فإنَّه ﴿متاعٌ قليلٌ﴾: ومصيرهم إلى النار، ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿١١٨﴾ فالله تعالى ما حرَّم علينا إلَّا الخبيثات تفضُّلاً منه وصيانةً عن كلِّ مستقذرٍ، وأما الذين هادوا؛ فحرَّم الله عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم بسبب ظُلْمِهم عقوبةً لهم؛ كما قصَّه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حَرَّمْنا كلَّ ذي ظُفُرٍ ومن البقر والغنم حرَّمْنا عليهم شحومَهُما إلَّا ما حَمَلَتْ ظهورُهما أوِ الحوايا أو ما اختلَطَ بعظمٍ ذٰلك جزيناهم ببغيهم وإنَّا لصادقونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٩﴾.

﴿١١٩﴾ وهٰذا حضٌّ منه لعبادِهِ على التوبة ودعوةٌ لهم إلى الإنابة، فأخبر أنَّ من عمل سوءاً ﴿بجهالةٍ﴾: بعاقبةِ ما تَجني عليه، ولو كان متعمِّداً للذنب؛ فإنَّه لا بدَّ أن ينقص ما في قلبه من العلم وقتَ مقارفة الذنب؛ فإذا تاب وأصلح بأنْ تَرَكَ الذنب وندم[1] عليه

---

(١) في (ب): «وعزم».

وأصلح أعمالَه؛ فإنَّ اللّه يغفر له ويرحمُه ويتقبَّل توبتَه ويعيدُه إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ يخبر تعالى عمَّا فَضَّلَ به خليلَه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وخصَّه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة، فقال: ﴿إنَّ إبراهيم كان أمَّةً﴾؛ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير هادياً مهتدياً، ﴿قانتاً للّه﴾؛ أي: مديماً لطاعة ربِّه مخلصاً له الدين، ﴿حنيفاً﴾: مقبلاً على اللّه بالمحبَّة والإنابة والعبوديَّة، معرضاً عمَّن سواه. ﴿ولم يَكُ من المشركين﴾: في قولِهِ وعمله وجميع أحواله؛ لأنَّه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿١٢١﴾ ﴿شاكراً لأنعمِهِ﴾؛ أي: آتاه اللّه في الدُّنيا حسنةً، وأنعم عليه بنعم ظاهرةٍ وباطنةٍ، فقام بشكرها، فكان نتيجةُ هٰذه الخصال الفاضلة أنِ ﴿اجتباه﴾ ربُّه واختصَّه بخلَّته وجعله من صفوة خلقِهِ وخيار عباده المقرَّبين. ﴿وهداه إلى صراطٍ مستقيم﴾: في علمه وعمله، فعلم بالحقِّ وآثره على غيره.

﴿١٢٢﴾ ﴿وآتيناه في الدُّنيا حسنةً﴾: رزقاً واسعاً، وزوجةً حسناء، وذرِّيَّة صالحين، وأخلاقاً مرضية. ﴿وإنَّه في الآخرة لمنَ الصَّالحين﴾: الذين لهم المنازل العاليةُ والقُرْبُ العظيم من اللّه تعالى.

﴿١٢٣﴾ ومن أعظم فضائله أنَّ اللّه أوحى لسيِّد الخلق وأكملِهِم أن يتَّبع ملَّة إبراهيم ويقتدي به هو وأمَّته.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿إنما جُعِلَ السَّبْتُ﴾؛ أي: فرضاً ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾: حين ضلُّوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبتِ احترامه وتعظيمه، وإلَّا؛ فالفضيلةُ الحقيقيَّة ليوم الجمعة، الذي هدى اللّه هٰذه الأمة إليه. ﴿وإنَّ ربَّك لَيحكُمُ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه

يختلفون﴾: فيبيِّن لهم المحقَّ من المبطِل والمستحقَّ للثواب ممن استحقَّ العذاب[١].

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿١٢٥﴾ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربِّك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، **﴿بالحكمة﴾**؛ أي: كل أحدٍ على حسب حاله وفَهْمه وقَبوله وانقياده، **ومن الحكمة** الدعوةُ بالعلم لا بالجهل، والبدأة بالأهمِّ فالأهمِّ، وبالأقربِ إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قَبوله أتمَّ، وبالرفق واللين؛ فإنِ انقاد بالحكمة، وإلَّا؛ فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب: إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قامَ بدين الله وإهانةِ من لم يقُم به، وإما بذكر ما أعدَّ الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعدَّ للعاصين من العقاب العاجل والآجل؛ فإن كان المدعوُّ يرى أن ما [هو] عليه حقٌّ، أو كان داعيةً إلى الباطل؛ فيجادَلُ بالتي هي أحسن، وهي الطُّرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذٰلك الاحتجاج عليه بالأدلَّة التي كان يعتقدها؛ فإنَّه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدِّي المجادلة إلى خصام أو مشاتمةٍ تذهب بمقصودها ولا تحصُل الفائدة منها، بل يكون القصدُ منها هداية الخلق إلى الحقِّ لا المغالبة ونحوها. وقوله: **﴿إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله﴾**؛ علم السبب الذي أدَّاه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتِّبة على ضلالته، وسيجازيه عليها. **﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾**: علم أنَّهم يَصْلُحون للهداية فهداهم، ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ يقول تعالى مبيحاً للعدل ونادباً للفضل والإحسان: **﴿وإن عاقبْتُم﴾**: مَنْ أساء إليكم بالقول والفعل، **﴿فعاقِبوا بمثل ما عُوقِبْتُم به﴾**: من غير زيادةٍ منكم على

---

(١) في (ب): «العقاب».

ما أجراه معكم. ﴿ولئِن صبرتُم﴾: عن المعاقبة وعفوتُم عن جرمهم، ﴿لهو خيرٌ للصَّابرينَ﴾: من الاستيفاء، وما عند الله خيرٌ لكم وأحسن عاقبةً؛ كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصْلَحَ فأجْرُهُ على الله﴾.

﴿١٢٧ ـ ١٢٨﴾ ثم أمر رسوله بالصبر على دعوةِ الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذٰلك وعدم الاتِّكال على النفس، فقال: ﴿واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلَّا بالله﴾: هو الذي يُعينك عليه ويُثبِّتُك. ﴿ولا تَحْزَنْ عليهم﴾: إذا دعوتَهم فلم تَرَ منهم قَبولاً لدعوتِكَ؛ فإنَّ الحزن لا يُجْدي عليك شيئاً. ﴿ولا تَكُ في ضَيْقٍ﴾؛ أي: شدَّة وحَرَج ﴿مما يمكُرون﴾: فإنَّ مكرهم عائدٌ إليهم، وأنت من المتَّقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتَّقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله؛ بأن عبدوا الله كأنَّهم يرونَه؛ فإنْ لَم يكُونوا يَرَوْنه فإنَّه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يَجْعَلَنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل. ولله الحمد والمنة.

* * *

تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿ ﴾ ينزِّه تعالى نفسه المقدَّسة ويعظِّمها لأنَّ له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أنه ﴿أسرى بعبدِهِ﴾: ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾: الذي هو أجلُّ المساجد على الإطلاق، ﴿إلى المسجد الأقصى﴾: الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محلُّ الأنبياء، فأسرى به في ليلة واحدةٍ إلى مسافة بعيدةٍ جدًّا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدىً وبصيرةً وثباتاً وفرقاناً، وهٰذا من اعتنائه تعالى به ولطفه؛ حيث يسَّره لليسرى في جميع أموره، وخوَّله نعماً فاق بها الأوَّلين والآخرين. وظاهر الآية أنَّ الإسراء كان في أول الليل، وأنَّه من

نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح أنه أُسْرِيَ به من بيت أم هانىء[(١)]؛ فعلى هٰذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم؛ فكلُّه تضاعف[(٢)] فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأنَّ الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلَّا لم يكن في ذٰلك آيةٌ كبرى ومنقبةٌ عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء[(٣)] وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم عُرِجَ به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العُلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفُرِضَ عليه الصلواتُ خمسين، ثم ما زال يراجِعُ ربَّه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمساً في الفعل[(٤)] وخمسين في الأجر[(٥)] والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمتُه ما لا يعلم مقدارَه إلَّا اللّه عز وجل. وذَكَرَهُ هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدِّي بصفة العبوديَّة؛ لأنَّه نال هٰذه المقامات الكبار بتكميله لعبوديَّة ربه.

وقوله: ﴿الذي باركْنا حوله﴾؛ أي: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم، ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يُطْلَبُ شدُّ الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأنَّ اللّه اختصَّه محلاً لكثيرٍ من أنبيائه وأصفيائه.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ

---

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٥) ط دار إحياء التراث العربي. وانظر «الفتح» (٧/ ٢٠٤) فقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات.

(٢) في (ب): «تتضاعف».

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٣٢٠٧و٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢) وقد ساق الحافظ ابن كثير أحاديث الإسراء في أول تفسير سورة الإسراء.

(٤) في (ب): «بالفعل». (٥) في (ب): «بالأجر».

أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿٢﴾ كثيراً ما يَقْرِنُ الباري بين نبوَّة محمد ﷺ ونبوَّة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأنَّ كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوَّتيهما أعلى النبوَّات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وآتينا موسى الكتابَ﴾: الذي هو التوراة، ﴿وجعَلْناه هدىً لبني إسرائيل﴾: يهتدونَ به في ظُلُمات الجهل إلى العلم بالحقِّ. ﴿ألَّا تتَّخذوا مِن دوني وكيلاً﴾؛ أي: وقلنا لهم ذٰلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذٰلك؛ ليعبدوا الله وحده، ويُنيبوا إليه، ويتَّخذوه وحدَه وكيلاً ومدبراً لهم في أمر دينهم ودُنياهم، ولا يتعلَّقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً ولا ينفعونَهم بشيءٍ.

﴿٣﴾ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مع نوح﴾؛ أي: يا ذُرِّيَّة مَنْ مَنَنَّا عليهم وحملناهم مع نوح. ﴿إنَّه كان عبداً شكوراً﴾: ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتِّصافه بذٰلك، والحثُّ لذُرِّيَّتِهِ أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكَّروا نعمةَ الله عليهم إذْ[1] أبقاهم، واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿٤﴾ ﴿وقضَينا إلى بني إسرائيل﴾؛ أي: تقدَّمنا وعَهِدْنا إليهم وأخبرناهم في كتابهم أنهم لا بدَّ أن يقعَ: منهم إفسادٌ في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبَطَر لنعم الله والعلوِّ في الأرض والتكبُّر فيها، وأنَّه إذا وقع واحدةٌ منهما؛ سلَّطَ الله عليهم الأعداء وانتقم منهم، وهٰذا تحذيرٌ لهم وإنذارٌ لعلَّهم يرجعون فيتذكَّرون.

﴿٥﴾ ﴿فإذا جاء وَعْدُ أولاهما﴾؛ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما؛ أي: إذا وقع منهم ذٰلك الفسادُ، ﴿بَعَثْنا عليكم﴾: بعثاً قدريًّا وسلَّطنا عليكم تسليطاً كونيًّا جزائيًّا، ﴿عباداً لنا أولي بأس شديدٍ﴾؛ أي: ذوي شجاعة وعددٍ وعُدَّةٍ، فنصرهم اللهُ عليكم، فقتلوكم وسَبَوْا أولادكم ونهبوا أموالكم، وجاسوا ﴿خلالَ الدِّيار﴾: فهتكوا الدُّور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾: لا بدَّ من وقوعه لوجود سببه منهم. واختلف المفسِّرون في تعيين هٰؤلاء المسلَّطين؛ إلَّا أنَّهم

---

(١) في (ب): «إذا».

اتَّفقوا على أنَّهم قومٌ كفارٌ: إمَّا من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها؛ سلَّطهم اللّه على بني إسرائيل لما كَثُرَتْ فيهم المعاصي وتركوا كثيراً من شريعتهم وطَغَوا في الأرض.

﴿٦﴾ ﴿ثم رَدَدْنا لكمُ الكَرَّةَ عليهم﴾؛ أي: على هٰؤلاء الذين سُلطوا عليكم فأجْلَيْتموهم من دياركم، ﴿وأمدَدْناكم بأموال وبنينَ﴾؛ أي: أكثرنا أرزاقكم وكثَّرناكم وقوَّيناكم عليهم، ﴿وجعلناكم أكثرَ نفيراً﴾: منهم، وذٰلك بسبب إحسانكم وخضوعكم للّه.

﴿٧﴾ ﴿إنْ أحسنتُم أحسنتُم لأنفسِكم﴾: لأنَّ النفع عائدٌ إليكم حتى في الدُّنيا كما شاهدتم من انتصِاركم على أعدائكم. ﴿وإنْ أسأتُم فلها﴾؛ أي: فلأنفسكم يعود الضرر؛ كما أراكم اللّه من تسليط الأعداء. ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرة﴾؛ أي: المرَّة الأخرى[1] التي تفسِدون فيها في الأرض؛ سلَّطْنا أيضاً عليكم الأعداء، ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾: بانتصارهم عليكم وسَبْيِكم، ﴿ولِيَدْخُلوا المسجد كما دَخَلوه أوَّل مرَّةٍ﴾: والمراد بالمسجد مسجد بيت المقدس، ﴿ولِيُتَبِّروا﴾؛ أي: يخرِّبوا ويدمِّروا ﴿ما عَلَوْا﴾: عليه ﴿تتبيراً﴾: فيخرِّبوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿٨﴾ ﴿عسى ربُّكم أن يرحَمَكم﴾: فيُديل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة وتوعَّدهم على المعاصي، فقال: ﴿وإنْ عُدتم﴾: إلى الإفساد في الأرض، ﴿عُدْنا﴾: إلى عقوبتِكم، فعادوا لذٰلك، فسلَّط اللّه عليهم رسوله محمداً ﷺ، فانتقم اللّه به منُهم؛ فهٰذا جزاء الدُّنيا، وما عند اللّه من النَّكال أعظمُ وأشنعُ، ولهٰذا قال: ﴿وجَعَلْنا جهنَّم للكافرين حصيراً﴾: يصلونها ويلازِمونها لا يخرجون منها أبداً. وفي هٰذه الآيات التحذير لهٰذه الأمَّة من العمل بالمعاصي؛ لئلَّا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل؛ فسنَّة اللّه واحدةٌ لا تبدَّل ولا تغيَّر، ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظَّلَمة؛ عَرَفَ أنَّ ذٰلك من أجل ذنوبهم عقوبةً لهم، وأنَّهم إذا أقاموا كتاب اللّه وسنَّة رسوله؛ مكَّن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾.

(١) في (ب): «الآخرة».

﴿٩ ـ ١٠﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنَّه ﴿يهدي للتي هي أقومُ﴾؛ أي: أعدلُ وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق؛ فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآنُ؛ كان أكملَ الناس وأقومَهم وأهداهم في جميع الأمور. ﴿ويبشِّرُ المؤمنين الذين يعملونَ الصَّالحاتِ﴾: من الواجبات والسُّنن، ﴿أنَّ لهم أجراً كبيراً﴾: أعدَّه الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفَه إلَّا هو. ﴿وأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ أعْتَدْنا لهم عذاباً أليماً﴾؛ فالقرآنُ مشتملٌ على البشارة والنِّذارة وذِكْرِ الأسباب التي تُنال بها البشارة، وهو الإيمان والعمل الصالح، والتي تستحقُّ بها النذارة، وهو ضدُّ ذٰلك.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ وهٰذا من جهل الإنسان وعجلته؛ حيث يدعو على نفسه وأولاده بالشرِّ عند الغضب، ويبادِرُ بذٰلك الدعاء كما يبادِرُ بالدُّعاء في الخير، ولكنَّ الله من لطفه[1] يستجيبُ له في الخير ولا يستجيبُ له بالشر، ولو يُعَجِّلُ الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير لَقُضي إليهم أجلهم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليلَ والنهار آيتين﴾؛ أي: دالَّتين على كمال قدرة الله وسَعَة رحمته وأنَّه الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ﴿فَمَحَوْنا آية الليل﴾؛ أي: جعلناه مظلماً للسكون فيه والراحة. ﴿وجعلنا آيةَ النهارِ مبصرةً﴾؛ أي: مضيئة، ﴿لتبتغوا فَضْلاً من ربِّكم﴾: في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم، ﴿ولتعلموا﴾: بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ السنين والحسابَ﴾: فتبنون عليها ما تشاؤون من مصالحكم. ﴿وكلَّ شيءٍ فصَّلْناه تفصيلاً﴾؛ أي: بيَّنَّا الآيات، وصرَّفناه لتتميز الأشياء، ويتبيَّن الحقُّ من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ما فرَّطْنا في الكتاب من شيءٍ﴾.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) في (ب): «بلطفه».

﴿١٣ ـ ١٤﴾ وهٰذا إخبارٌ عن كمال عدله: أنَّ كلَّ إنسان يُلْزِمُهُ طائِرَهُ في عنقِهِ؛ أي: ما عمل من خيرٍ وشرٍّ يجعله اللّه ملازماً له لا يتعدَّاه إلى غيره؛ فلا يحاسَبُ بعمل غيره ولا يحاسَبُ غيره بعمله. ﴿ونخرِجُ له يوم القيامةِ كتاباً يلقاهُ منشوراً﴾: فيه عملُهُ من الخير والشرِّ حاضراً صغيرُهُ وكبيرُهُ، ويقال له: ﴿اقرأ كتابَكَ كفى بنفسِكَ اليوم عليك حسيباً﴾: وهٰذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبدِ: حاسِبْ نفسَكَ؛ ليعرف ما عليه من الحقِّ الموجب للعقاب.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: هدايةُ كلِّ أحدٍ وضلاله لنفسه. لا يحمل أحدٌ ذنب أحدٍ، ولا يدفع عنه مثقالَ ذرَّة من الشرِّ، واللّه تعالى أعدل العادلين، لا يعذِّب أحداً حتى تقوم عليه الحجَّة بالرسالة ثم يعاند الحجَّة، وأما من انقاد للحجَّة أو لم تبلُغه حجَّة اللّه تعالى؛ فإنَّ اللّه تعالى لا يعذِّب به. استدل بهٰذه الآية على أنَّ أهل الفترات وأطفال المشركين لا يعذِّبهم اللّه حتى يبعثَ إليهم رسولاً؛ لأنَّه منزَّه عن الظُّلم.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يُهلِكَ قريةً من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب؛ أمر مُترَفيها أمراً قدريًا، ففسقوا فيها، واشتدَّ طغيانُهم؛ ﴿فحقَّ عليها القولُ﴾؛ أي: كلمة العذاب التي لا مردَّ لها؛ ﴿فدمَّرْناها تدميراً﴾

﴿١٧﴾ وهٰؤلاء أمم كثيرةٌ أبادهم اللّه بالعذاب من بعد قوم نوح؛ كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممَّن عاقبهم اللّه لما كثُر بغيُهم واشتدَّ كفرُهم؛ أنزل اللّه بهم عقابَه العظيم. ﴿وكفى بربِّك بذنوب عبادِهِ خبيراً بصيراً﴾: فلا يخافوا منه ظلماً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أن ﴿مَن كان يريدُ﴾: الدنيا ﴿العاجلة﴾ المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ أو المنتهى: أنَّ اللّه يعجِّل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كَتَبَ اللّه له في اللوح المحفوظ، ولكنَّه متاعٌ غير نافع ولا دائم له، ثم يجعل له في الآخرة ﴿جهنَّم يَصْلاها﴾؛ أي: يباشر عذابها، ﴿مذموماً مدحوراً﴾؛ أي: في حالة الخِزْي والفضيحة والذمِّ من اللّه ومن خلقِهِ والبعد عن رحمةِ اللّه، فيجمعُ له بين العذاب والفضيحة.

﴿١٩﴾ ﴿ومن أراد الآخرةَ﴾: فرضِيَها وآثرها على الدُّنيا، ﴿وسعى لها سَعْيَها﴾: الذي دعت إليه الكتب السماويَّة والآثار النبويَّة، فعمل بذلك على قدر إمكانه، ﴿وهو مؤمنٌ﴾: باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ﴿فأولئك كان سعيُهم مشكوراً﴾؛ أي: مقبولاً منمًّى مدَّخراً، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

﴿٢٠﴾ ومع هٰذا؛ فلا يفوتُهم نصيبُهم من الدُّنيا؛ فكلًّا يُمِدُّه اللّه منها؛ لأنَّه عطاؤه وإحسانه. ﴿وما كان عطاءُ ربِّك محظوراً﴾؛ أي: ممنوعاً من أحدٍ، بل جميعُ الخلق راتِعون بفضلِهِ وإحسانِهِ.

﴿٢١﴾ ﴿انظرْ كيف فضَّلْنا بعضَهم على بعضٍ﴾: في الدُّنيا بسَعة الأرزاق وقلَّتها، واليُسْر والعُسْر، والعلم والجهل، والعقل والسَّفَه، وغير ذٰلك من الأمور التي فضَّل اللّه العباد بعضهم على بعض بها. ﴿وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً﴾: فلا نسبة لنعيم الدُّنيا ولذَّاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه؛ فكم بين من هو في الغرف العاليات واللَّذَّات المتنوِّعات والسرور والخيرات والأفراح ممَّن هو يتقلَّب في الجحيم، ويعذَّب بالعذاب الأليم، وقد حلَّ عليه سَخَطُ الربِّ الرحيم، وكلٌّ من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكنُ أحداً عدُّه.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا تعتقدْ أنَّ أحداً من المخلوقين يستحقُّ شيئاً من العبادة، ولا تشركْ باللّه أحداً منهم؛ فإنَّ ذٰلك داعٍ للذمِّ والخذلان؛ فاللّه وملائكته ورسله قد نَهَوْا عن الشرك، وذمُّوا من عمله أشدَّ الذمِّ، ورتَّبوا عليه من الأسماء المذمومة والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنعَ الخلق وصفاً وأقبحهم نعتاً، وله من الخِذْلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلُّق بربِّه؛ فمن تعلَّق بغيره؛ فهو مخذولٌ قد وُكِلَ إلى مَن تعلَّق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن اللّه؛ وكما أنَّ مَن جعل مع اللّه إلٰهاً آخر له الذمُّ والخذلان؛ فمن وحَّده وأخلص

دينه لله، وتعلَّق به دون غيره؛ فإنَّه محمودٌ مُعانٌ في جميع أحواله.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٣﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به؛ أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربُّك﴾: قضاء دينيًا، وأمر أمراً شرعيًا ﴿أن لا تعبُدوا﴾: أحداً من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات، ﴿إلَّا إيَّاه﴾: لأنَّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كلُّ صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجهٍ لا يشبهه أحدٌ من خلقه، وهو المنعِمُ بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النِّقم، الخالق، الرازق، المدبِّر لجميع الأمور؛ فهو المتفرِّد بذٰلك كلِّه، وغيره ليس له من ذٰلك شيء. ثم ذكر بعد حقِّه القيام بحقِّ الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾؛ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القوليِّ والفعليِّ؛ لأنهما سببُ وجود العبد، ولهما من المحبَّة للولد والإحسان إليه، والقرب ما يقتضي تأكُّد الحقِّ ووجوب البرِّ. ﴿إمَّا يَبْلُغَنَّ عندَكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهما﴾؛ أي: إذا وصلا إلى هٰذا السنِّ الذي تضعُفُ فيه قواهما ويحتاجان من اللُّطف والإحسان ما هو معروفٌ، ﴿فلا تَقُلْ لهما أفٍّ﴾: وهٰذا أدنى مراتب الأذى، نبَّه به على ما سواه، والمعنى: لا تؤذِهما أدنى أذيَّة، ﴿ولا تَنْهَرْهُما﴾؛ أي: تزجُرهما وتتكلَّم لهما كلاماً خشناً. ﴿وقلْ لهما قولاً كريماً﴾: بلفظٍ يحبَّانه، وتأدَّب وتلطَّف بكلام ليِّن حسن يلذُّ على قلوبهما، وتطمئنُّ به نفوسهما، وذٰلك يختلفُ باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿٢٤﴾ ﴿واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمةِ﴾؛ أي: تواضع لهما ذُلًّا لهما ورحمةً واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما ونحو ذٰلك من المقاصد التي لا يؤجَر عليها العبد. ﴿وقل ربِّ ارحَمْهما﴾؛ أي: ادعُ لهما بالرحمة أحياءً وأمواتاً؛ جزاءً على تربيتهما إيَّاك صغيراً. وفُهِمَ من هٰذا أنَّه كلَّما ازدادت التربيةُ؛ ازداد الحقُّ. وكذٰلك من تولَّى تربية الإنسان في دينِهِ ودُنياه تربيةً صالحةً غير الأبوين؛ فإنَّ له على مَن ربَّاه حقَّ التربية.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ربُّكم تعالى مطَّلع على ما أكنَّته سرائركم من خير وشرٍّ، وهو لا

ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر. ﴿إن تكونوا صالحين﴾: بأن تكون إرادتُكم ومقاصدكم دائرةً على مرضاة اللّه، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير اللّه. ﴿فإنَّه كان للأوَّابين﴾؛ أي: الرجَّاعين إليه في جميع الأوقات؛ ﴿غفوراً﴾: فمن اطَّلع اللّه على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلَّا الإنابة إليه ومحبَّته ومحبَّة ما يقرِّب إليه؛ فإنَّه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطبائع البشريَّة؛ فإنَّ اللّه يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرَّة.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ يقول تعالى: ﴿وآت ذا القُربى حقَّه﴾: من البرِّ والإكرام الواجب والمسنون، وذٰلك الحقُّ يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة، ﴿والمسكينَ﴾: آته حقَّه من الزَّكاة ومن غيرها؛ لتزول مسكنتُه، ﴿وابنَ السبيل﴾: وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيُعْطى الجميع من المال، على وجهٍ لا يضرُّ المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق؛ فإنَّ ذٰلك تبذيرٌ، قد نهى اللّه عنه وأخبر: إنَّ المبذِّرين ﴿إخوانُ الشياطين﴾: لأنَّ الشيطان لا يدعو إلَّا إلى كلِّ خَصلة ذميمةٍ، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك؛ فإذا عصاه؛ دعاه إلى الإسراف والتبذير، واللّه تعالى إنَّما يأمُرُ بأعدل الأمور وأقسطِها، ويمدحُ عليه؛ كما في قوله عن عباد الرحمٰن الأبرار: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذٰلك قَواماً﴾.

﴿٢٩﴾[1] وقال هنا: ﴿ولا تجعل يَدَكَ مغلولةً إلى عنقك﴾: كناية عن شدة الإمساك والبخل، ﴿ولا تَبْسُطْها كلَّ البسط﴾: فتنفق فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي، ﴿فتقعدَ﴾: إن فعلت ذٰلك ﴿مَلوماً﴾؛ أي: تُلام على ما فعلتَ، ﴿مَحْسوراً﴾؛ أي: حاسر اليد فارغها؛ فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خَلَفَه مدحٌ وثناءٌ.

---

(١) ذكر المؤلف تفسير الآية (٢٩) بعد الآية (٢٧) لتناسبهما.

﴿٢٨﴾ وهٰذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى، فأمّا مع العُدْم أو تعسُّر النفقة الحاضرة؛ فأمر تعالى أن يُردُّوا ردًّا جميلاً، فقال: ﴿وإمَّا تعرضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك ترجوها﴾؛ أي: تعرض عن إعطائِهِم إلى وقت آخر ترجو فيه من اللّه تيسير الأمر. ﴿فقُلْ لهم قولاً ميسوراً﴾؛ أي: لطيفاً برفقٍ ووعد بالجميل عند سُنوح الفرصة واعتذارٍ بعدم الإمكان في الوقت الحاضر؛ لينقلبوا عنك مطمئنَّة خواطرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يَتْبَعُها أذى﴾: وهٰذا أيضاً من لطف اللّه تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأنَّ انتظار ذٰلك عبادة، وكذلك وعدُهم بالصدقة والمعروف عند التيسُّر عبادةٌ حاضرةٌ؛ لأنَّ الهمَّ بفعل الحسنة حسنةٌ، ولهٰذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يَقْدِرُ عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدِرْ عليه لِيُثاب على ذٰلك، ولعلَّ اللّه ييسِّر له بسبب رجائه.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر تعالى: أنَّ اللّهَ ﴿يبسُطُ الرزق لمن يشاء﴾: من عباده ويقدِرُه ويضيِّقه على من يشاء حكمةً منه. ﴿إنَّه كان بعبادِهِ خبيراً بصيراً﴾: فيَجْزيهم على ما يعلمُهُ صالحاً لهم، ويدبِّرهم بلطفه وكرمه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ وهٰذا من رحمته بعباده؛ حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتُلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفَّل برزق الجميع، وأخبر أنَّ: ﴿قتلَهم كان خِطْئاً كبيراً﴾؛ أي: من أعظم كبائر الذنوب؛ لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجرِّي على قتل الأطفال الذين لم يجرِ منهم ذنبٌ ولا معصيةٌ.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرَّد فعله؛ لأنَّ ذٰلك يشمل النهي عن جميع مقدّماته ودواعيه؛ فإنَّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصاً هٰذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داعٍ إليه، ووصف اللّه الزِّنا وقبْحه بأنه ﴿كان فاحشةً﴾؛ أي: إثماً يُستفحش في الشرع والعقل والفِطَر؛ لتضمُّنه التجرِّي على الحرمة في حقِّ اللّه وحقِّ المرأة وحقِّ أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذٰلك من المفاسد. وقوله: ﴿وساء سبيلاً﴾؛ أي: بئس السبيلُ سبيلُ من تجرَّأ على هٰذا الذنب العظيم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٣﴾ وهٰذا شاملٌ لكلِّ نفس حرَّم اللّه قتلَها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحرٍّ وعبد ومسلم وكافرٍ له عهد، ﴿إلَّا بالحق﴾: كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلَّا بالقتل. ﴿ومَن قُتِلَ مظلوماً﴾؛ أي: بغير حقٍّ، ﴿فقد جعَلْنا لوليِّه﴾: وهو أقربُ عَصَباته وورثتِهِ إليه ﴿سلطاناً﴾؛ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً تسلُّطاً قدريًا على ذٰلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص؛ كالعمد العدوان والمكافأة. ﴿فلا يسرفْ﴾: الولي ﴿في القتل إنَّه كان منصوراً﴾: والإسراف مجاوزةُ الحدِّ: إما أن يمثِّل بالقاتل، أو يقتُله بغير ما قَتَلَ به، أو يَقْتُلَ غير القاتل. وفي هٰذه الآية دليلٌ إلى أنَّ الحقَّ في القتل للوليِّ؛ فلا يُقْتَص إلَّا بإذنه، وإن عفا؛ سقط القصاص، وأنَّ وليَّ المقتول يُعينه اللّه على القاتل ومن أعانه، حتى يتمكَّن من قتله.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ وهٰذا من لطفه ورحمته باليتيم الذي فَقَدَ والده وهو صغيرٌ غير عارف بمصلحة نفسه ولا قائمٌ بها أنْ أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وأنْ لا يَقْربوهُ ﴿إلَّا بالتي هي أحسنُ﴾: من التِّجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار والحرص على تنميته، وذٰلك ممتدٌّ إلى أن يبلغَ اليتيمُ ﴿أشدَّه﴾؛ أي: بلوغه وعقله ورشده؛ فإذا بَلَغَ أشدَّه؛ زالت عنه الولايةُ، وصار وليَّ نفسه، ودفع إليه ماله؛ كما قال تعالى: ﴿فإنْ آنستُم منهم رُشْداً فادْفَعوا إليهم أموالَهم﴾، ﴿وأوفوا بالعهدِ﴾: الذي عاهدتم اللّه عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. ﴿إنَّ العهد كان مَسْؤولًا﴾؛ أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه؛ فإن وفيتم؛ فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفعلوا[1]؛ فعليكم الإثم العظيم.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) في (ب): «وإن لم تفُوا».

﴿٣٥﴾ وهٰذا أمرٌ بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخسٍ ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كلِّ غشٍّ في ثمنٍ أو مثمَّنٍ أو معقودٍ عليه، والأمر بالنُّصح والصدق في المعاملة. ﴿ذٰلك خيرٌ﴾: من عدمه، ﴿وأحسنُ تأويلاً﴾؛ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التَّبِعات، وبه تنزل البركة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٦﴾ أي: ولا تتَّبع ما ليس لك به علم، بل تثبَّت في كلِّ ما تقوله وتفعله؛ فلا تظنَّ ذٰلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولٰئك كان عنه مسؤولاً﴾: فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها اللّه لعبادته أن يُعِدَّ للسؤال جواباً، وذٰلك لا يكون إلَّا باستعمالها بعبوديَّة اللّه، وإخلاص الدِّين له، وكفِّها عما يكرهه اللّه تعالى.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً﴾؛ أي: كبراً وتيهاً وبطراً متكبِّراً على الحقِّ ومتعاظماً على الخلق. ﴿إنَّك﴾: في فعلك ذٰلك ﴿لن تَخرِقَ الأرض ولن تبلُغَ الجبال طولاً﴾: في تكبُّرك بل تكون حقيراً عند اللّه، ومحتقراً عند الخلق، مبغوضاً، ممقوتاً، قد اكتسبت شرَّ الأخلاق، واكتسيت بأرذلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿٣٨﴾ ﴿كل ذٰلك﴾: المذكور الذي نهى اللّه عنه فيما تقدَّم من قوله: ﴿لا تَجعَلْ مع اللّه إلهاً آخر﴾، والنهي عن عقوق الوالدين، وما عُطِف على ذٰلك، ﴿كان سَيِّئهُ عند ربِّك مكروهاً﴾؛ أي: كل ذٰلك يسوء العاملين ويضرُّهم واللّه تعالى يكرهه ويأباه.

﴿٣٩﴾ ﴿ذٰلك﴾ الذي بيَّنَّاه ووضَّحناه من هٰذه الأحكام الجليلة، ﴿مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة﴾: فإنَّ الحكمة الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهي عن أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال. وهٰذه الأعمال المذكورة في هٰذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها ربُّ العالمين لسيِّد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم؛ فهي من الحكمة التي من أوتيها؛ فقد أوتي خيراً كثيراً. ثم ختمها

بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك، فقال: ﴿ولا تَجْعَلْ مع الله إلهاً آخر فَتُلقى في جهنَّم﴾؛ أي: خالداً مخلَّداً؛ فإنَّه من يُشرِك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار. ﴿مَلوماً مَدْحوراً﴾؛ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والذمُّ من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ وهٰذا إنكارٌ شديدٌ على من زَعَمَ أنَّ الله اتَّخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أفأصفاكم ربُّكم بالبنين﴾؛ أي: اختار لكم الصَّفوة والقسم الكامل، ﴿واتَّخذ﴾: لنفسه ﴿من الملائكة إناثاً﴾: حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ﴿إنَّكم لَتقُولُونَ قَولاً عَظِيماً﴾: فيه أعظم الجرأة على الله، حيث نسبتُم له الولد المتضمِّن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى أنه صرَّف لعباده في هٰذا القرآن؛ أي: نوَّع الأحكام ووضَّحها وأكثر من الأدلَّة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكَّر لأجل أن يتذكَّروا ما ينفعهم فيَسْلُكوه وما يضرُّهم فيدعوه، ولٰكن أبى أكثر الناس ﴿إلَّا نفوراً﴾ عن آيات الله؛ لبغضهم للحقِّ ومحبَّتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصَّبوا لباطلهم، ولم يُعيروا آيات الله لهم سمعاً، ولا ألقَوْا لها بالاً.

﴿٤٢﴾ ومن أعظم ما صرَّف فيه الآيات والأدلَّة التَّوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضدِّه وأقام عليه من الحجج العقليَّة والنقليَّة شيئاً كثيراً؛ بحيث إنَّ من أصغى إلى بعضها لا تَدَعُ في قلبه شكًّا ولا ريباً، ومن الأدلَّة على ذٰلك هٰذا الدليل العقليُّ الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قل﴾: للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿لو كان معه آلهةٌ كما يقولون﴾؛ أي: على موجب زعمهم وافترائهم؛ ﴿إذاً لابْتغَوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾؛ أي: لاتَّخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرُّب وابتغاء الوسيلة؛ فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى

شدَّة افتقاره لعبوديَّة ربِّه إلٰهاً مع اللّه؟! هل هٰذا إلَّا من أظلم الظلم وأسفه السَّفَه؛ فعلى هٰذا المعنى تكون هٰذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾: وكقوله تعالى: ﴿ويوم يَحْشُرُهم وما يعبُدون من دون اللّه فيقول أأنتُم أضللتُم عبادي هٰؤلاء أم هُم ضلُّوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتَّخذ من دونِكَ من أولياءَ﴾.

ويُحتمل أنَّ المعنى في قوله: ﴿قُلْ لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً﴾؛ أي: لطلبوا السبيل وسَعَوْا في مغالبة اللّه تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون مَنْ علا وقَهَرَ هو الربَّ الإلٰه، فأما وقد علموا أنهم يقرُّون أنَّ آلهتهم التي يدعون[1] من دون اللّه مقهورةٌ مغلوبةٌ ليس لها من الأمر شيء؛ فلم اتَّخذوها وهي بهٰذه الحال؟! فيكون هٰذا كقوله تعالى: ﴿ما اتَّخذَ اللّهُ من ولدٍ وما كان معه من إلٰهٍ إذاً لَذَهَبَ كلُّ إلٰهٍ بما خَلَقَ ولعلا بعضهم على بعض﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿سبحانه وتعالى﴾؛ أي: تقدَّس وتنزَّه وعلت أوصافه، ﴿عما يقولون﴾: من الشرك به واتِّخاذ الأنداد معه، ﴿علوًّا كبيراً﴾: فعلا قدرُه وعظُم وجلَّت كبرياؤه التي لا تُقادر أن يكون معه آلهة؛ فقد ضلَّ مَن قال ذٰلك ضلالاً مبيناً وظلم ظلماً كبيراً، لقد تضاءلتْ لعظمتِهِ المخلوقاتُ العظيمةُ، وصغُرَتْ لدى كبريائِهِ السماواتُ السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن، والأرض جميعاً قبضتُه يوم القيامة والسماواتُ مطوياتٌ بيمينه، وافتقر إليه العالمُ العلويُّ والسفليُّ فقراً ذاتيًّا لا ينفكُّ عن أحدٍ منهم في وقتٍ من الأوقات، هٰذا الفقر بجميع وجوهه؛ فقرٌ من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقرٌ من جهة الاضطرار إلى أن يكون معبودَه ومحبوبَه الذي إليه يتقرَّبون، وإليه في كل حال يفزعون.

﴿٤٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿تسبِّحُ له السمٰواتُ السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيءٍ﴾: من حيوانٍ ناطق وغير ناطقٍ، ومن أشجار ونبات وجامد، وحيٍّ وميت، ﴿إلَّا يسبِّحُ بحمدِهِ﴾: بلسان الحال ولسان المقال، ﴿ولٰكنْ لا تفقهون تسبيحَهم﴾؛ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيطُ بها علَّام الغيوب. ﴿إنَّه كان حليماً غفوراً﴾: حيثُ لم يعاجِلْ بالعُقوبة مَن قال فيه قولاً تكاد السماواتُ والأرض تنفَطِر منه وتَخِرُّ له الجبال، ولٰكنَّه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم،

---

(١) في (ب): «يعبدون».

ورزقهم، ودعاهم إلى بابِهِ ليتوبوا من هٰذا الذنب العظيم؛ ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم؛ فلولا حلمُهُ ومغفرته؛ لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابَّةٍ.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذِّبين بالحقِّ الذين ردُّوه وأعرضوا عنه أنَّه يَحول بينَهم وبين الإيمان، فقال: ﴿وإذا قرأتَ القرآنَ﴾: الذي فيه الوعظُ والتَّذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثيرُ؛ ﴿جَعَلْنا بينَك وبين الذين لا يؤمنونَ بالآخرة حجاباً مستوراً﴾: يستُرهم عن فهمه حقيقةً وعن التحقُّق بحقائقه والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

﴿٤٦﴾ ﴿وجَعَلْنا على قلوبِهِم أكِنَّةً﴾؛ أي: أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونه سماعاً تقوم به عليهم الحجَّة، ﴿وفي آذانهم وَقْراً﴾؛ أي: صمماً عن سماعه، ﴿وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآن وحدَه﴾: داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به؛ ﴿ولَّوا على أدبارِهِم نُفوراً﴾: من شدَّة بُغضهم له ومحبَّتهم لما هم عليه من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا ذُكِرَ اللهُ وحدَه اشمأزَّت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ وإذا ذُكِرَ الذين من دونِهِ إذا هم يستبشرونَ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿نحنُ أعلم بما يستمعون به﴾؛ أي: إنَّما مَنَعْناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأنَّنا نعلم أن مقاصدهم سيِّئة؛ يريدون أن يعثروا على أقلِّ شيءٍ لِيَقْدَحوا به، وليس استماعُهم لأجل الاسترشاد وقَبول الحقِّ، وإنَّما هم معتمدون على عدم اتِّباعه، ومَنْ كان بهٰذه الحالة؛ لم يُفِدْهُ الاستماع شيئاً، ولهٰذا قال: ﴿إذْ يستَمِعونَ إليك وإذْ هم نَجْوى﴾؛ أي: متناجين، ﴿إذْ يقولُ الظالمونَ﴾: في مناجاتهم: ﴿إنْ تَتَّبِعونَ إلَّا رجلاً مسحوراً﴾: فإذا كانت هٰذه مناجاتُهم الظالمة فيما بينهم، وقد بَنَوْها على أنه مسحورٌ؛ فهم جازمون أنَّهم غير معتَبِرين لما قال، وأنَّه يَهْذي لا يدري ما يقول.

﴿٤٨﴾ قال تعالى: ﴿انظر﴾: متعجباً ﴿كيف ضربوا لك الأمثال﴾: التي هي

أضلُّ الأمثال وأبعدُها عن الصواب، ﴿فضَلُّوا﴾: في ذٰلك، أو فصارت سبباً لضلالهم؛ لأنَّهم بَنَوا عليها أمرهم، والمبنيُّ على فاسدٍ أفسدُ منه. فلا يهتدون ﴿سبيلاً﴾؛ أي: لا يهتدون أيَّ اهتداءٍ، فَنَصِيبُهُم الضلال المحضُ والظُّلم الصرف.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: ﴿أإذا كُنَّا عظاماً ورُفاتاً﴾؛ أي: أجساداً بالية. ﴿أإنَّا لَمبعوثون خلقاً جديداً﴾؛ أي: لا يكون ذٰلك، وهو محالٌ بزعمهم، فجهلوا أشدَّ الجهل؛ حيثُ كذَّبوا رسل اللّه، وجَحَدوا آيات اللّه، وقاسوا قدرةَ خالق السماواتِ والأرضِ بِقُدَرِهِمُ الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أنَّ هٰذا ممتنعٌ عليهم لا يقدرون عليه؛ جعلوا قدرة اللّه كذٰلك؛ فسبحان مَنْ جَعَلَ خلقاً من خلقه يزعُمون أنَّهم أولو العقول والألباب مثالاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها؛ لِيُري عباده أنه ما ثَمَّ إلا توفيقه وإعانتُه أو الهلاكُ والضلال، ﴿ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لنا من لَدُنْك رحمةً إنَّك أنت الوهاب﴾.

﴿٥٠ ـ ٥١﴾ ولهٰذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهٰؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً: ﴿قُلْ كونوا حجارة أو حديداً. أو خلقاً مما يكبر﴾؛ أي: يعظُم ﴿في صدورِكم﴾: لتسلموا بذٰلك ـ على زعمكم ـ من أن تنالكم قدرة اللّه أو تنفذَ فيكم مشيئتُه؛ فإنكم غير معجزين اللّه في أيِّ حالة تكونون وعلى أيِّ وصفٍ تتحوَّلون، وليس لكم في أنفسكم تدبيرٌ في حالة الحياة وبعد الممات؛ فدعوا التدبير والتصريف لِمَنْ هو على كلِّ شيء قدير وبكلِّ شيء محيط. ﴿فسيقولون﴾: حين تُقيم عليهم الحجَّة في البعث: ﴿من يعيدنا قل الذي فطَركم أول مرة﴾: فكما فطركم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً؛ فإنَّه سيعيدكم خلقاً جديداً؛ ﴿كما بَدَأنا أوَّلَ خلقٍ نعيدُه﴾، ﴿فسيُنْغِضون إليك رؤوسهم﴾؛ أي: يهزُّونها إنكاراً وتعجُّباً مما قلت. ﴿ويقولون متى هو﴾؛ أي: متى وقتُ البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذٰلك سفهٌ منهم وتعجيزٌ. ﴿قل عسى أن يكونَ قريباً﴾: فليس في تعيين وقتِهِ فائدةٌ،

وإنَّما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلَّا؛ فكلُّ ما هو آتٍ؛ فإنَّه قريب.

ـ ﴿٥٢﴾ ﴿يوم يدعوكم﴾: للبعث والنُّشور وينفُخ في الصور، ﴿فتستجيبونَ بحمدِهِ﴾؛ أي: تنقادون لأمرِهِ ولا تستعصونَ عليه. وقوله: ﴿بحمده﴾؛ أي: هو المحمود تعالى على فعله، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التَّنادِ، ﴿وتظنُّونَ إن لَبِثْتُم إلَّا قليلاً﴾: من سرعة وقوعه، وأنَّ الذي مرَّ عليكم من النعيم كأنَّه ما كان؛ فهٰذا الذي يقول عنه المنكرون: متى هو؟ يندمون غاية الندم عند ورودِهِ، ويُقال لهم: هٰذا الذي كنتُم به تكذِّبون.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٣﴾ وهٰذا من لطفِهِ بعباده؛ حيثُ أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدُّنيا والآخرة، فقال: ﴿وقُلْ لعبادي يقولوا التي هي أحسنُ﴾: وهٰذا أمرٌ بكلِّ كلام يقرِّب إلى الله؛ من قراءةٍ وذكرٍ وعلم وأمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكرٍ وكلام حسنٍ لطيفٍ مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين؛ فإنَّه يؤمَر بإيثار أحسَنِهما إن لم يمكن الجمعُ بينهما، **والقول الحسنُ** داعٍ لكلِّ خلقٍ جميلٍ وعمل صالح؛ فإنَّ مَن مَلَكَ لسانه؛ مَلَكَ جميع أمره. وقوله: ﴿إنَّ الشيطانَ يَنْزَغُ بينهم﴾؛ أي: يسعى بين العباد بما يُفْسِدُ عليهم دينهم ودنياهم؛ فدواءُ هٰذا أن لا يُطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يَلينوا فيما بينهم؛ لينقمعَ الشيطانُ الذي ينزغ بينهم؛ فإنَّه عدوُّهم الحقيقيُّ الذي ينبغي لهم أن يحاربوه؛ فإنَّه يدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير، وأما إخوانهم؛ فإنَّهم وإنْ نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة؛ فإنَّ الحزم كلَّ الحزم السعيُ في ضدِّ عدوِّهم، وأن يَقْمَعوا أنفسهم الأمَّارة بالسوء، التي يدخل الشيطان من قِبَلِها؛ فبذٰلك يطيعون ربَّهم، ويستقيم أمرهم، ويُهْدَون لرشدهم.

﴿٥٤﴾ ﴿ربُّكم أعلم بكم﴾: من أنفسكم؛ فلذٰلك لا يريد لكم إلَّا ما هو الخير، ولا يأمركم إلَّا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً الخيرُ في عكسه. ﴿إن يَشَأْ يَرْحَمْكُم أو إن يَشَأْ يُعَذِّبْكم﴾: فيوفِّق مَن شاء لأسباب الرحمة، ويخذُلُ

من شاء فَيَضِلُّ عنها فيستحقُّ العذاب. ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾: تُدبِّرُ أمرهم وتقوم بمجازاتهم، وإنَّما اللّه هو الوكيل، وأنت مبلغٌ هادٍ إلى صراط مستقيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وربُّك أعلمُ بمن في السمٰواتِ والأرض﴾: من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلاً منهم ما يستحقُّه وتقتضيه حكمتُه، ويفضِّل بعضَهم على بعض في جميع الخصال الحسيَّة والمعنويَّة؛ كما فضَّل بعض النبيِّين المشتركين بوحيه على بعضٍ، بالفضائل والخصائص الرَّاجعة إلى ما مَنَّ به عليهم، من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضيَّة والأعمال الصالحة وكَثْرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعيَّة والعقائد المرضيَّة؛ كما أنزل على داود زَبوراً، وهو الكتاب المعروف؛ فإذا كان تعالى قد فضَّل بعضَهم على بعضٍ وآتى بعضهم كتباً؛ فلِمَ ينكِرُ المكذِّبون لمحمدٍ ﷺ ما أنزله اللّه عليه وما فضَّله به من النبوَّة والكتاب؟

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يقول تعالى: ﴿قل﴾ للمشركين باللّه الذين اتَّخذوا من دونه أنداداً يعبُدونهم كما يعبدون اللّه، ويدعونهم كما يدعونَه ملزِماً لهم بتصحيح ما زعموه، واعتقدوه إن كانوا صادقين: ﴿ادعوا الذين زعمتُم﴾: آلهة من دون اللّه، فانظروا هل يَنْفعونكم أو يدفَعون عنكم الضُّرَّ؟ فإنهم لا ﴿يملِكونَ كشفَ الضُّرِّ عنكم﴾: من مرضٍ أو فقرٍ أو شدَّةٍ ونحو ذٰلك؛ فلا يدفعونَه بالكُلِّيَّة. ولا يملكون أيضاً تَحْويله من شخص إلى آخر، ومن شدَّة إلى ما دونها؛ فإذا كانوا بهٰذه الصفة؛ فلأيِّ شيءٍ تدعونَهم من دون اللّه؛ فإنَّهم لا كمالَ لهم ولا فعال نافعة؛ فاتِّخاذُهم نقصٌ في الدين والعقل وسَفَهٌ في الرأي.

ومن العجب أنَّ السَّفه عند الاعتياد والممارسة وتلقِّيه عن الآباء الضالِّين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاصَ الدِّين للّه الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السَّفه والأمر المتعجَّب منه؛ كما قال المشركون: ﴿أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنَّ هٰذا لشيءٌ عُجابٌ﴾.

﴿٥٧﴾ ثم أخبر أيضاً أنَّ الذين يعبُدونهم من دون اللّه في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى اللّه وابتغاء الوسيلة إليه؛ فقال: ﴿أولٰئك الذين يَدْعونَ﴾:

من الأنبياء والصالحين والملائكة، ﴿يَبْتَغون إلى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ﴾؛ أي: يتنافسون في القرب من ربِّهم، ويبذُلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقرِّبة إلى الله تعالى وإلى رحمتِه، ﴿ويخافون عذابَه﴾: فيجتنبون كلَّ ما يوصِلُ إلى العذاب. ﴿إنَّ عذاب ربِّك كان محذوراً﴾؛ أي: هو الذي ينبغي شدَّة الحذر منه والتوقِّي من أسبابه. وهٰذه الأمور الثلاثةُ الخوف والرجاء والمحبَّة التي وَصَفَ الله بها هٰؤلاء المقرَّبين عنده هي الأصل والمادَّة في كلِّ خير؛ فمن تَمَّتْ له؛ تَمَّتْ له أموره، وإذا خلا القلبُ منها؛ ترحَّلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبَّة ما ذَكَرَهُ الله أن يجتهد العبدُ في كلِّ عَمَلٍ يقرِّبُه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلِّها لله، والنُّصح فيها وإيقاعها في أكمل الوجوه المقدور عليها؛ فمن زعم أنه يحبُّ الله بغير ذٰلك؛ فهو كاذب.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أي: ما من قريةٍ من القُرى المكذِّبة للرسل إلَّا لا بدَّ أن يصيبهم هلاكٌ قبل يوم القيامة أو عذابٌ شديدٌ، كتابٌ كتبه الله وقضاءٌ أبرمه لا بدَّ من وقوعه؛ فليبادر المكذِّبون بالإنابة إلى الله وتصديق رُسُلِهِ قبل أن تتمَّ عليهم كلمةُ العذاب ويحقَّ عليهم القول.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٩﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترحُ بها المكذِّبون، وأنَّه ما منعه أن يرسِلَها إلَّا خوفاً من تكذيبهم لها؛ فإذا كذَّبوا بها؛ عاجَلَهم العقابُ وحلَّ بهم من غير تأخيرٍ كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ومن أعظم الآيات الآيةُ التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمةُ الباهرة التي كانت تصدُرُ عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذٰلك كذَّبوا بها، فأصابهم ما قصَّ الله علينا في كتابه. وهٰؤلاء كذٰلك؛ لو جاءتهم الآيات الكبار؛ لم يؤمنوا؛ فإنَّه ما منعهم من الإيمان خفاءُ ما

جاء به الرسول واشتباهه هل هو حقٌّ أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة ما دلَّ على صحَّة ما جاء به الموجب لهداية مَنْ طلب الهداية؛ فغيرُها مثلُها، فلا بدَّ أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فتركُ إنزالها والحالة هٰذه خيرٌ لهم وأنفع. وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾؛ أي: لم يكن القصدُ بها أن تكون داعيةً وموجبةً للإيمان الذي لا يحصُلُ إلَّا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب؛ ليرتدِعوا عن ما هم عليه.

﴿٦٠﴾ ﴿وإذ قلنا لك إنَّ ربَّك أحاط بالناس﴾: علماً وقدرةً؛ فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه ولا ملاذٌ يلوذون به عنه، وهٰذا كافٍ لمن له عقلٌ في الانكفاف عما يكرهه اللّه الذي أحاط بالناس، ﴿وما جَعَلْنا الرؤيا التي أرَيْناك﴾: أكثر المفسرين على أنَّها ليلة الإسراء، ﴿والشجرةَ الملعونةَ﴾: التي ذكرت ﴿في القرآن﴾: وهي شجرة الزقُّوم التي تَنْبُتُ في أصل الجحيم.

والمعنى: إذا كان هٰذان الأمران قد صارا فتنةً للناس، حتى استلجَّ الكفَّار بكفرهم وازداد شرُّهم، وبعض مَن كان إيمانُهُ ضعيفاً رجع عنه، بسبب أنَّ ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقاً للعادة، والإخبار بوجود شجرةٍ تَنْبُتُ في أصل الجحيم أيضاً من الخوارق؛ فهٰذا الذي أوجب لهم التكذيب؛ فكيفَ لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذٰلك أولى أن يزداد بسببه شرُّهم؛ فلذٰلك رحمهم اللّه وصرفها عنهم. ومن هنا تعلمُ أنَّ عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمورِ العظيمة التي حَدَثَتْ في الأزمنة المتأخِّرة أولى وأحسن؛ لأنَّ الأمور التي لم يشاهِدِ الناس لها نظيراً ربَّما لا تقبلها عقولُهم، [لو أُخبِرُوا بها قبل وُقُوعِها] فيكون ذٰلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين ومانعاً يمنعُ من لم يدخُل الإسلام ومنفراً عنه، بل ذكر اللّه ألفاظاً عامَّة تتناول جميع ما يكون. واللّه أعلم. ﴿ونخوِّفُهم﴾: بالآيات، ﴿فما يزيدهم﴾: التخويف ﴿إلَّا طغياناً كبيراً﴾: وهٰذا أبلغ ما يكون في التحلِّي بالشرِّ ومحبَّته وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾
قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم

بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿٦١﴾ ينبِّه تبارك وتعالى عباده على شدَّة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم، وأنَّه لما خَلَقَ الله آدم؛ استكبر عن السجود له و ﴿قال﴾ متكبِّراً: ﴿أأسجُدُ لمن خلقتَ طيناً﴾؛ أي: من طين، وبزعمه أنَّه خيرٌ منه؛ لأنه خُلِقَ من نارٍ، وقد تقدَّم فساد هٰذا القياس الباطل من عدة أوجه.

﴿٦٢﴾ فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم؛ ﴿قال﴾ مخاطباً لله: ﴿أرأيتَكَ هٰذا الذي كرَّمْتَ عليَّ لئنْ أخَّرْتَنِ إلى يوم القيامةِ لأحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي: لأستأصلَنَّهم بالإضلال ولأغوِيَنَّهم، ﴿إلَّا قليلاً﴾: عرف الخبيثُ أنَّه لا بدَّ أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

﴿٦٣﴾ فقال الله له: ﴿اذهبْ فمن تبعك منهم﴾: واختارك على ربِّه ووليِّه الحقِّ. ﴿فإنَّ جهنَّم جزاؤكم جزاءً موفوراً﴾؛ أي: مدَّخراً لكم موفَّراً جزاء أعمالكم.

﴿٦٤﴾ ثم أمره الله أن يفعلَ كلَّ ما يقدِرُ عليه من إضلالهم، فقال: ﴿واستفزِزْ من استطعتَ منهم بصوتِكَ﴾: ويدخل في هٰذا كلُّ داعٍ إلى المعصية، ﴿وأجْلِبْ عليهم بخيلِكَ ورَجِلكَ﴾: ويدخل فيه كلُّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله؛ فهو من خيل الشيطان ورَجِلِهِ. والمقصود أنَّ الله ابتلى العباد بهٰذا العدوِّ المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله. ﴿وشارِكْهم في الأموال والأولاد﴾: وذٰلك شاملٌ لكلِّ معصية تعلَّقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفَّارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشرِّ، وأخذ الأموال بغير حقِّها أو وضعها بغير حقِّها أو استعمال المكاسب الرديَّة، بل ذَكَرَ كثيرٌ من المفسِّرين أنه يدخُلُ في مشاركة الشيطان في الأموال والأولادِ تركُ التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنَّه إذا لم يُسَمِّ الله في ذٰلك؛ شارك فيه الشيطان؛ كما ورد فيه الحديث[1]. ﴿وعِدهم﴾: الأوعادَ المزخْرَفَة التي لا حقيقة لها، ولهٰذا قال: ﴿وما يَعِدُهُم الشيطانُ إلَّا غروراً﴾؛ أي: باطلاً مضمحلاً؛ كأن يزيِّن لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر؛ لأنَّهم يظنُّون أنَّهم على الحق، وقال

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٤١)، ومسلم (٢٠١٨).

تعالى: ﴿الشيطان يَعِدُكُم الفقر ويأمُرُكم بالفحشاءِ والله يَعِدُكُم مغفرةً منه وفضلاً﴾.

﴿٦٥﴾ ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد؛ ذَكَرَ ما يُعْتَصَمُ به من فتنته، وهو عبوديَّة الله والقيام بالإيمان والتوكُّل، فقال: ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ﴾؛ أي: تسلُّط وإغواءٌ، بل الله يدفع عنهم بقيامهم بعبوديَّته كلَّ شرٍّ، ويحفظُهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفايتهم. ﴿وكفى بربِّك وكيلاً﴾: لمن توكَّل عليه، وأدَّى ما أمر به.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٦﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخَّر لهم من الفُلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفيَّة صنعتها وسخَّر لها البحر الملتطم يحملها على ظهره؛ لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهٰذا من رحمته بعباده؛ فإنَّه لم يزل بهم رحيماً رءوفاً، يؤتيهم من كلِّ ما تعلَّقت به إرادتهم ومنافعهم.

﴿٦٧﴾ ومن رحمته الدالَّة على أنَّه وحده المعبود دون ما سواه أنَّهم إذا مسَّهم الضُّرُّ في البحر، فخافوا من الهلاك لتراكُم الأمواج؛ ضلَّ عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرَّخاء من الأحياء والأموات، فكأنُّهم لم يكونوا يدعونهم في وقتٍ من الأوقات؛ لعلمهم أنَّهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضُّرِّ، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات، الذي تستغيث به في شدائدها جميعُ المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرُّع في هٰذه الحال، فلما كَشَفَ الله عنهم الضُّرَّ ونجَّاهم إلى البَرِّ؛ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به مَنْ لا ينفع ولا يضرُّ ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربِّهم ومليكهم.

وهٰذا من جهل الإنسان وكفرِهِ؛ فإنَّ الإنسان كفورٌ للنِّعم؛ إلَّا مَن هدى الله فمنَّ عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم؛ فإنَّه يعلم أنَّ الذي يكشف الشدائد، وينجِّي من الأهوال هو الذي يستحقُّ أن يُفْرَدَ، وتُخْلَصَ له سائر الأعمال في الشدَّة والرَّخاء واليُسر والعُسر، وأما من خُذِلَ ووُكِلَ إلى عقله الضعيف؛ فإنَّه لم

يلحَظْ وقت الشدَّة إلَّا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في كلِّ تلك الحال، فلما حصلتْ له النجاةُ وزالت عنه المشقَّة؛ ظنَّ بجهله أنَّه قد أعجز اللّه، ولم يَخْطُرْ بقلبه شيء من العواقب الدنيويَّة فضلاً عن أمور الآخرة.

﴿٦٨ ـ ٦٩﴾ ولهٰذا ذكَّرهم اللّه بقولِهِ: **﴿أفأمِنتُم أن يخسِفَ بكم جانبَ البرِّ أو يرسلَ عليكم حاصباً﴾**؛ أي: فهو على كل شيء قديرٌ، إن شاء أنزل عليكم عذاباً من أسفلَ منكم بالخسفِ، أو من فوقِكم بالحاصب، وهو العذابُ الذي يَحصُبُهم فيصبحوا هالكين؛ فلا تظنُّوا أنَّ الهلاك لا يكون إلا في البحر، وإنْ ظننتُم ذٰلك؛ فأنتم آمنون من **﴿أن يعيدكم﴾**: في البحر؛ **﴿تارةً أخرى فيرسل عليكم قاصِفاً من الريح﴾**؛ أي: ريحاً شديدةً جدًّا تقصف ما أتت عليه، **﴿فيغرِقَكم بما كفرتم ثم لا تَجِدوا لكم علينا به تبيعاً﴾**؛ أي: تبعة ومطالبة؛ فإنَّ اللّه لم يظلِمْكم مثقال ذرَّة.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧٠﴾ وهٰذا من كرمِهِ عليهم وإحسانه الذي لا يقادَرُ قَدْرُهُ؛ حيث كرَّم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرَّمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياءَ والأصفياء، وأنعم عليهم بالنِّعم الظاهرة والباطنة، **﴿وحَمَلْناهم في البرِّ﴾**: على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البريَّة. وفي **﴿البحر﴾**: في السفن والمراكب، **﴿ورَزَقْناهم من الطيبات﴾**: من المآكل والمشارِبِ والملابس والمناكح؛ فما من طيب تتعلَّق به حوائجهم إلَّا وقد أكرمهم اللّه به ويسَّره لهم غاية التيسيرِ، **﴿وفضَّلْناهم على كثيرٍ ممَّن خَلَقْنا تفضيلاً﴾**: بما خصَّهم به من المناقب وفضَّلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات، أفلا يقومون بشكر مَنْ أولى النعم ودَفَعَ النِّقم ولا تحجبهم النِّعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربِّهم، بل ربَّما استعانوا بها على معاصيه؟!

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كلَّ أناس معهم إمامهم وهاديهم إلى الرُّشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كلُّ أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول هل

هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهٰذا قسمين: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾: لكونه اتَّبع إمامه الهادي إلى صراطٍ مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناتُه، وقلَّت سيئاتُه؛ ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾: قراءة سرورٍ وبهجة على ما يرون فيها مما يفرِحُهم ويسرُّهم، ﴿ولا يُظلمون فتيلاً﴾: ممّا عملوه من الحسنات.

﴿٧٢﴾ ﴿ومن كان في هٰذه﴾: الدنيا ﴿أعمى﴾: عن الحقِّ؛ فلم يقبَلْه ولم ينقدْ له، بل اتَّبع الضلال، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾: عن سلوك طريق الجنَّة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وأضلُّ سبيلاً﴾: فإنَّ الجزاء من جنس العمل، وكما تَدين تُدان.

وفي هٰذه الآية دليل على أنَّ كلَّ أمة تُدعى إلى دينها وكتابها وهل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبيٍّ لم يؤمروا باتِّباعه، وأنَّ الله لا يعذِّب أحداً إلَّا بعد قيام الحجَّة عليه ومخالفته لها، وأنَّ أهل الخير يعطَوْن كتبهم بأيمانهم، ويحصُلُ لهم من الفرح والسرور شيءٌ عظيم، وأنَّ أهل الشرِّ بعكس ذٰلك، وأنهم لا يقدِرون على قراءة كتبهم من شدَّة غمِّهم وحزنهم وثبورهم.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٣﴾ يذكر تعالى منَّته على رسوله محمدٍ ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وإن كادوا لَيَفْتِنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتريَ علينا﴾؛ أي: قد كادوا لك أمراً لم يُدْرِكوه، وتحيَّلوا لك على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافقُ أهواءهم، وتدعُ ما أنزل الله إليك. ﴿وإذاً﴾: لو فعلت ما يهوون؛ ﴿لاتخذوك خليلاً﴾؛ أي: حبيباً صفيًّا أعزَّ عليهم من أحبابهم لما جَبَلَكَ الله عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب المحبَّبة للقريب والبعيد والصديق والعدوِّ، ولكن لتعلم أنَّهم لم يعادوك وينابذوك العداوة إلَّا للحقِّ الذي جئتَ به لا لِذَاتك؛ كما قال تعالى: ﴿قد نعلمُ إنَّه لَيَحْزُنُك الذي يقولون فإنَّهم لا يكذِّبونَكَ ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدونَ﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿و﴾ مع هٰذا ﴿لولا أن ثَبَّتْناك﴾: على الحقِّ وامتنَّنا عليك بعدم الإجابة

لداعيهم، ﴿لقد كدتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً﴾: من كثرة المعالجة ومحبَّتك لهدايتهم.

﴿٧٥﴾ ﴿إذاً﴾: لو ركنت إليهم بما يهوون، ﴿لأذقناك ضعفَ الحياة وضعفَ المماتِ﴾؛ أي: لأصبناك بعذابٍ مضاعفٍ في الدُّنيا والآخرة، وذٰلك لكمال نعمة اللّه عليك وكمال معرفتك. ﴿ثمَّ لا تَجِدُ لك علينا نصيراً﴾: ينقذك مما يحلُّ بك من العذاب، ولٰكن اللّه تعالى عَصَمَكَ من أسباب الشَّرِّ ومن الشَّرِّ، فثبَّتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركَنْ إليهم بوجه من الوجوه؛ فله عليك أتمُّ نعمةٍ وأبلغ منحةٍ.

﴿٧٦ ـ ٧٧﴾ ﴿وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّونك من الأرض لِيُخْرِجوك منها﴾؛ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرضِ ويُجْلوك عنها، ولو فعلوا ذٰلك؛ لم يلبثوا بعدك فيها إلَّا قليلاً، حتى تحلَّ بهم العقوبة؛ كما هي سنة اللّه التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته؛ عاجلها اللّه بالعقوبة، ولمَّا مكر به الذين كفروا وأخرجوه؛ لم يلبثوا إلَّا قليلاً حتَّى أوقع اللّه بهم ببدرٍ، وقَتَلَ صناديدهم، وفَضَّ بيضتهم؛ فله الحمد.

وفي هٰذه الآيات دليلٌ على شدة افتقار العبد إلى تثبيت اللّه إياه، وأنَّه [ينبغي له أن] لا يزال متملِّقاً لربِّه أن يثبته على الإيمان ساعياً في كلِّ سبب موصل إلى ذٰلك؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ ـ وهو أكمل الخلق ـ قال اللّه له: ﴿ولولا أن ثَبَّتْناك لقد كِدت تَرْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً﴾؛ فكيف بغيره؟!

وفيها: تذكيرُ اللّه لرسوله منَّته عليه وعصمته من الشرِّ، فدلَّ ذٰلك على أنَّ اللّه يحبُّ من عباده أن يتفطَّنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشرِّ بالعصمة منه والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علوِّ مرتبة العبد وتواتُرِ النِّعم عليه من اللّه يَعْظُمُ إثمُهُ ويتضاعفُ جرمُهُ إذا فعل ما يُلام عليه؛ لأنَّ اللّه ذكَّر رسوله لو فعل ـ وحاشاه من ذٰلك ـ بقوله: ﴿إذاً لأذَقْناك ضعفَ الحياة وضعفَ الممات ثم لا تجِدُ لك علينا نصيراً﴾.

وفيها: أنَّ اللّه إذا أراد إهلاك أمَّة؛ تضاعف جُرمها وعَظُم وكَبُر، فيحقُّ عليها القولُ من اللّه، فيوقع بها العقاب؛ كما هي سنَّته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا

﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى
مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ
وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿٧٨﴾ يأمر تعالى نبيَّه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامَّة ظاهراً وباطناً في أوقاتها، ﴿لِدُلوك الشمس﴾؛ أي: ميلانها إلى الأفقِ الغربيِّ بعد الزوال، فيدخُلُ في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿إلى غَسَقِ الليل﴾؛ أي: ظلمتِهِ، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ﴿وقرآنَ الفجْرِ﴾؛ أي: صلاة الفجر، وسمِّيت قرآناً لمشروعيَّة إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة؛ حيث يشهدها الله وملائكةُ الليلِ وملائكة النهار.

ففي هذه الآية ذكرُ الأوقات الخمسة للصَّلوات المكتوبات، وأن الصَّلوات الموقعة فيه فرائضُ؛ لتخصيصها بالأمر.

وفيها أنَّ الوقت شرطٌ لصحَّة الصلاة، وأنَّه سببٌ لوجوبها؛ لأنَّ الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات، وأنَّ الظهر والعصر يُجمعان، والمغرب والعشاء كذلك؛ للعذر؛ لأنَّ الله جمع وقتهما جميعاً.

وفيه فضيلةُ صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأنَّ القراءة فيها ركنٌ؛ لأنَّ العبادة إذا سُمِّيت ببعض أجزائها؛ دلَّ على فرضيَّة ذلك.

﴿٧٩﴾ وقوله: ﴿ومن الليل فتهجَّدْ به﴾؛ أي: صلِّ به في سائر أوقاته، ﴿نافلةً لك﴾؛ أي: لتكون صلاة الليل زيادةً لك في علوِّ القدر ورفع الدرجات؛ بخلاف غيرك؛ فإنَّها تكون كفَّارة لسيِّئاته. ويُحتمل أن يكون المعنى أنَّ الصلوات الخمس فرضٌ عليك وعلى المؤمنين؛ بخلاف صلاة الليل؛ فإنها فرض عليك بالخصوص؛ لكرامتك على الله أن جَعَلَ وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأوَّلون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، وكلُّهم يعتذر ويتأخَّر عنها، حتى يستشفعوا بسيِّد ولد آدم ليرحمهم الله من همِّ الموقف وكربِهِ، فيشفع عند ربِّه، فيشفِّعه ويُقيمه مقاماً يغبطه به الأوَّلون والآخرون، وتكون له المنَّة على جميع الخلق.

﴿٨٠﴾ وقوله: ﴿وقل ربِّ أدخِلْني مُدْخَلَ صدقٍ وأخرِجْني مُخْرَجَ صدقٍ﴾؛ أي:

اجعل مداخلي ومخارجي كلَّها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذٰلك لتضمُّنها الإخلاص وموافقته[1] الأمر. ﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾؛ أي: حجة ظاهرة وبرهاناً قاطعاً على جميع ما آتيه وما أذره، وهٰذا أعلى حالة يُنْزِلُها اللّٰه العبد، أنْ تكون أحوالُهُ كلُّها خيراً ومقربةً له إلى ربِّه، وأن يكون له على كلِّ حالة من أحواله دليلٌ ظاهرٌ، وذٰلك متضمِّن للعلم النافع والعمل الصالح للعلم بالمسائل والدلائل.

﴿٨١﴾ وقوله: ﴿وقل جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطل﴾: والحقُّ هو ما أوحاه اللّٰه إلى رسوله محمدٍ ﷺ، فأمره اللّٰه أن يقولَ ويعلِنَ: قد جاء الحقُّ الذي لا يقوم له شيءٌ، وزَهَقَ الباطلُ؛ أي: اضمحل وتلاشى. ﴿إنَّ الباطل كان زَهوقاً﴾؛ أي: هٰذا وصف الباطل، ولٰكنَّه قد يكون له صولةٌ وروجان إذا لم يقابلْه الحقُّ، فعند مجيء الحقِّ؛ يضمحلُّ الباطل فلا يبقى له حراك، ولهٰذا لا يروج الباطل إلَّا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات اللّٰه وبيناته. وقوله:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨٢﴾ فالقرآن مشتملٌ على الشفاء والرحمة، وليس ذٰلك لكلِّ أحدٍ، وإنَّما ذٰلك للمؤمنين به المصدِّقين بآياته العالمين به، وأما الظَّالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به؛ فلا تزيدُهم آياته إلا خساراً؛ إذ به تقومُ عليهم الحجَّة؛ فالشفاء الذي تضمنَّه القرآن عامٌّ لشفاء القلوب من الشُّبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيىء والقصود السيئة؛ فإنه مشتملٌ على العلم اليقيني الذي تزول به كلُّ شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كلُّ شهوة تخالف أمر اللّٰه، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة؛ فإنَّ ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحثُّ عليها متى فعلها العبد، فاز بالرحمة والسعادة الأبديَّة والثواب العاجل والآجل.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٣﴾ هٰذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلَّا مَن هداه اللّٰه؛ فإنَّ الإنسان عند إنعام اللّٰه عليه يفرح بالنِّعم، ويبطَرُ بها، ويعرِضُ، وينأى بجانبِهِ عن ربِّه؛ فلا يشكُرُه، ولا يذكُرُه. ﴿وإذا مسَّه الشرُّ﴾: كالمرض ونحوه، ﴿كان يؤوساً﴾: من

---

(١) في (ب): «وموافقة».

الخير، قد قطع عن ربِّه رجاءه، وظنَّ أنَّ ما هو فيه دائمٌ أبداً، وأمَّا مَنْ هداه اللّه؛ فإنَّه عند النعم يخضعُ لربِّه، ويشكر نعمته، وعند الضرَّاء يتضرَّع، ويرجو من اللّه عافيته وإزالة ما يقعُ فيه، وبذٰلك يخفُّ عليه البلاء.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٤﴾ أي: ﴿قل كُلٌّ﴾: من الناس، ﴿يعملُ على شاكلتِهِ﴾؛ أي: على ما يَليق به من الأحوال: إن كانوا من الصفوة الأبرار؛ لم يشاكِلْهم إلا عملهم لربِّ العالمين، ومن كانوا من غيرِهم من المخذولين؛ لم يناسِبْهم إلَّا العمل للمخلوقين، ولم يوافِقْهم إلَّا ما وافق أغراضهم. وربك ﴿أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾: فيعلمُ مَنْ يَصْلُحُ للهداية فيهديه، ومن لا يَصْلُحُ لها فيخذله ولا يهديه.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٥﴾ وهٰذا متضمِّن لردع من يسأل المسائل التي لا يُقْصَدُ بها إلَّا التعنُّت والتَّعجيز، ويدع السؤال عن المهمِّ، فيسألون عن الرُّوح التي هي من الأمور الخفيَّة التي لا يتقنُ وصفها وكيفيتها كلُّ أحدٍ، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاجُ إليه العباد، ولهٰذا أمر اللّه رسوله أن يُجيبَ سؤالهم بقوله: ﴿قل الرُّوحُ من أمر ربِّي﴾؛ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكونَ فكانَتْ، فليس في السؤال عنها كبيرُ فائدةٍ مع عدم علمِكُم بغيرها.

وفي هٰذه الآية دليلٌ على أنَّ المسؤول إذا سُئِلَ عن أمرٍ، الأَوْلَى بالسائل غيره أنْ يعرِضَ عن جوابه، ويدلَّه على ما يحتاجُ إليه، ويرشِدَه إلى ما ينفعه.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٦ ـ ٨٧﴾ يخبر تعالى أنَّ القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله رحمةٌ منه عليه وعلى عبادِهِ، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله؛ فإنَّ فضل اللّه عليه كبيرٌ لا يقادَرُ قدرُهُ؛ فالذي تفضَّل به عليك قادرٌ على أن يَذْهَبَ به ثم لا تجدُ رادًّا يردُّه ولا وكيلاً يتوجَّه عند اللّه فيه؛ فَلْتَغْتَبِطْ به وتَقَرَّ به عينُك، ولا يحزنك تكذيبُ المكذبين واستهزاءُ الضالين؛ فإنَّهم عرضت عليهم أجلُّ النعم فردُّوها لهوانهم على اللّه وخِذْلانِهِ لهم.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٨﴾ وهٰذا دليلٌ قاطعٌ وبرهانٌ ساطعٌ على صحَّة ما جاء به الرسول وصدقه؛ حيث تحدَّى الله الإنس والجنَّ أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلُّهم على ذٰلك؛ لم يقدِروا عليه، ووقع كما أخبر اللهُ؛ فإنَّ دواعي أعدائه المكذِّبين به متوفِّرة على ردِّ ما جاء به بأيِّ وجهٍ كان، وهُمْ أهلُ اللسان والفصاحة؛ فلو كان عندَهم أدنى تأهُّل وتمكُّن من ذٰلك؛ لفعلوه، فعُلِمَ بذٰلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعاً وكرهاً، وعَجَزوا عن معارضتِهِ، وكيف يقدِرُ المخلوق من تراب، الناقصُ من جميع الوجوه، الذي ليس له علمٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ ولا مشيئةٌ ولا كلامٌ ولا كمالٌ إلَّا من ربِّه؛ أن يعارِضَ كلامَ ربِّ الأرض والسماوات، المطَّلع على سائر الخفيَّات، الذي له الكمالُ المطلقُ والحمدُ المطلقُ والمجدُ العظيمُ، الذي لو أنَّ البحر يمدُّه من بعده سبعةُ أبحر مداداً والأشجارَ كلُّها أقلامٌ؛ لَنَفِدَ المداد وفنيتِ الأقلام ولم تَنْفَدْ كلماتُ الله؛ فكما أنَّه ليس أحدٌ من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه؛ فكلامُهُ من أوصافه التي لا يماثِلُه فيها أحدٌ؛ فليس كمثلِهِ شيءٌ في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ تبارك وتعالى؛ فتبًّا لمن اشتبه عليه كلامُ الخالق بكلام المخلوقِ، وزعم أنَّ محمداً ﷺ افتراه على الله، واختلقه من نفسه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٨٩ ـ ٩٣﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد صرَّفنا للناس في هٰذا القرآن من كلِّ مثل﴾؛ أي: نوَّعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنَّينا فيه المعاني التي يضطرُّ إليها العبادُ لأجل أن

يتذكَّروا ويتَّقوا، فلم يتذكَّر إلا القليلُ منهم، الذين سبقت لهم من اللّه سابقةُ السعادة، وأعانهم اللّه بتوفيقه، وأما أكثر الناس؛ فأبَوْا إلا كُفوراً لهٰذه النعمة التي هي أكبرُ من جميع النعم، وجعلوا يتعنَّتون عليه آياتٍ غيرَ آياتِهِ يخترِعونها من تِلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة، فيقولون لرسول اللّه ﷺ الذي أتى بهٰذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لن نؤمنَ لك حتَّى تَفجُرَ لنا من الأرض يَنبوعاً﴾؛ أي: أنهاراً جاريةً، ﴿أو تكونَ لك جنَّةٌ من نخيل وعنب﴾: فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذَّهاب والمجيء، ﴿أو تُسقِطَ السماء كما زَعَمْتَ علينا كِسَفاً﴾؛ أي: قطعاً من العذاب، ﴿أو تأتيَ باللّه والملائكةِ قَبيلاً﴾؛ أي؛ جميعاً أو مقابلةً ومعاينةً يشهدون لك بما جئت به، ﴿أو يكونَ لك بيتٌ من زخرفٍ﴾؛ أي: مزخرف بالذهب وغيره، ﴿أو تَرَقى في السماء﴾: رُقيًا حسيًا. ﴿و﴾ مع هٰذا فلن ﴿نؤمنَ لِرُقِيِّكَ حتى تنزِّلَ علينا كتاباً نقرَؤه﴾. ولما كانتْ هٰذه تعنُّتات وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمِّنة لردِّ الحقِّ وسوء أدبٍ مع اللّه، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات؛ أمره اللّه أن ينزِّهَهُ، فقال: ﴿قل سبحانَ ربِّي﴾: عمَّا تقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكونَ أحكامُهُ وآياتُهُ تابعةً لأهوائهم الفاسدة وآرائهم الضالَّة. ﴿هل كنتُ إلَّا بشراً رسولاً﴾: ليس بيده شيء من الأمر.

﴿٩٤﴾ وهٰذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان؛ حيث كانت الرسل التي تُرْسَلُ إليهم من جنسهم بشراً، وهٰذا من رحمته بهم أن أرسل إليهم بشراً منهم؛ فإنَّهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

﴿٩٥﴾ فلو ﴿كانَ في الأرض ملائكةٌ يمشونَ مطمئنِّين﴾: يَثْبُتون على رؤية الملائكة والتلقيْ عنهم؛ ﴿لنَزَّلْنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً﴾: ليمكِنَهم التلقي عنه.

﴿٩٦﴾ ﴿قل كفى باللّه شهيداً بيني وبينكم إنَّه كان بعبادِهِ خبيراً بصيراً﴾: فمن شهادتِهِ لرسولِهِ ما أيَّده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على مَنْ عاداه وناوأه؛ فلو تقوَّل عليه بعض الأقاويل؛ لأخَذَ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتينَ؛ فإنَّه خبيرٌ بصيرٌ، لا تخفى عليه من أحوال العبادِ خافيةٌ.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ

جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال؛ فمن يهدِهِ فييسِّره لليسرى ويجنِّبه العسرى؛ فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يُضلِلْه فيخذله ويَكِله إلى نفسه: فلا هادي له من دون الله، وليس له وليٌّ ينصره من عذاب الله حين يحشُرُهم الله على وجوهِهِم، خزياً عُمياً وبُكماً، لا يبصرون، ولا ينطقون. ﴿مأواهم﴾؛ أي: مقرُّهم ودارهم ﴿جهنَّمُ﴾: التي جمعت كلَّ همٍّ وغمٍّ وعذابٍ. ﴿كلَّما خَبَتْ﴾؛ أي: تهيَّأت للانطفاء، ﴿زِدْناهم سعيراً﴾؛ أي: سَعَّرْناها بهم، لا يُفَتَّرُ عنهم العذابُ، ولا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

﴿٩٨﴾ ولم يظلِمْهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعثَ الذي أخبرت به الرُّسل، ونطقتْ به الكتب، وعجَّزوا ربَّهم؛ فأنكروا تمام قدرته، ﴿وقالوا أإذا كنَّا عظامًا ورُفاتاً أإنَّا لَمَبْعوثونَ خلقاً جديداً﴾؛ أي: لا يكون هٰذا؛ لأنَّه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿٩٩﴾ ﴿أوَلَمْ يَرَوْا أنَّ الله الذي خلق السمٰواتِ والأرض﴾: وهي أكبر من خلق الناس، ﴿قادرٌ على أن يَخْلُقَ مثلَهم﴾: بلى إنَّه على ذٰلك قدير. ﴿و﴾ لٰكنه قد جَعَلَ لذٰلك ﴿أجلاً لا رَيْبَ فيهِ﴾: ولا شكَّ وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث؛ ﴿فأبى الظَّالمونَ إلَّا كُفوراً﴾: ظُلْماً منهم وافتراءً.

﴿١٠٠﴾ ﴿قل لو أنتم تملِكونَ خزائنَ رحمةِ ربِّي﴾: التي لا تَنْفَدُ ولا تبيد، ﴿إذاً لأمسَكْتم خشية الإنفاق﴾؛ أي: خشية أن يَنْفَدَ ما تنفِقون منه، مع أنَّه من المحال أن تَنْفَدَ خزائنُ الله، ولٰكنَّ الإنسان مطبوعٌ على الشحِّ والبخل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿١٠١﴾ أي: لستَ أيُّها الرسول المؤيَّد بالآيات أولَ رسول كذَّبه الناس؛ فلقد أرسلْنا قبلَكَ موسى بن عمران الكليم إلى فرعون وقومِهِ وآتيناه ﴿تسعَ آياتٍ بيِّناتٍ﴾: كلٌّ واحدة منها تكفي لمن قصدُهُ اتِّباع الحقِّ كالحيَّة والعصا والطُّوفان والجرادِ والقُمَّلِ والضفادع والدَّم والرجز وفلق البحر؛ فإنْ شككتَ في شيء من ذٰلك؛ ﴿فاسألْ بني إسرائيلَ إذْ جاءَهم فقال له فرعونُ﴾: مع هٰذه الآيات: ﴿إني لأظنُّك يا موسى مسحوراً﴾.

﴿١٠٢﴾ فـ﴿قالَ﴾ له موسى: ﴿لقد علمتَ﴾: يا فرعونُ، ﴿ما أنزلَ هٰؤلاء﴾: الآيات. ﴿إلَّا ربُّ السمٰواتِ والأرضِ بصائرَ﴾: منه لعباده؛ فليس قولُكَ هٰذا بالحقيقة، وإنَّما قلت ذٰلك ترويجاً على قومك واستخفافاً لهم. ﴿وإنِّي لأظنُّك يا فرعونُ مَثْبوراً﴾؛ أي: ممقوتاً، مُلْقىً في العذاب، لك الويل والذمُّ واللعنة.

﴿١٠٣ ـ ١٠٤﴾ ﴿فأرادَ﴾: فرعون ﴿أن يَسْتَفِزَّهم من الأرضِ﴾؛ أي: يُجْلِيَهم ويخرِجَهم منها، ﴿فأغْرَقْناه ومن معه جميعاً﴾: وأورثْنا بني إسرائيل أرضَهم وديارهم، ولهٰذا قال: ﴿وقُلْنا من بعدِهِ لبني إسرائيلَ اسكُنوا الأرضَ فإذا جاء وعْدُ الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾؛ أي: جميعاً؛ لِيُجازِيَ[1] كلَّ عامل بعمله.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿١٠٥﴾ أي: وبالحقِّ أنزلنا هٰذا القرآن الكريم لأمر العبادِ ونهيهم وثوابهم وعقابهم، ﴿وبالحقِّ نزل﴾؛ أي: بالصدق والعدل والحفظ من كلِّ شيطان رجيم. ﴿وما أرسَلْناك إلَّا مبشِّراً﴾: من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل، ﴿ونَذيراً﴾: لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذٰلك بيانُ ما يبشِّر به وينذر.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٦﴾ أي: وأنزلنا هٰذا القرآن مفرَّقاً فارِقاً بين الهدى والضَّلال والحقِّ

(١) في (ب): «النجازي».

والباطل؛ ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾؛ أي: على مَهْل؛ ليتدبَّروه، ويتفكَّروا في معانيه ويستخرجوا علومَه، ﴿ونزَّلْناه تنزيلاً﴾؛ أي: شيئاً فشيئاً مفرَّقاً في ثلاث وعشرين سنة. ﴿ولا يأتونَكَ بمَثَلٍ إلَّا جِئْناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً﴾.

﴿١٠٧﴾ فإذا تبيَّن أنَّه الحقُّ الذي لا شكَّ فيه ولا ريب بوجهٍ من الوجوه، فـ﴿قُلْ﴾ لمن كَذَّب به وأعرض عنه: ﴿آمِنوا به أو لا تُؤمنوا﴾: فليس للَّه حاجةٌ فيكم ولستُم بضارِّيه شيئاً، وإنَّما ضرر ذٰلك عليكم؛ فإنَّ للَّه عباداً غيركم، وهم الذين آتاهُمُ اللَّه العلم النافع؛ ﴿إذا يُتْلَى عَلَيهِم يَخِرُّونَ للأذقَانِ سُجَّداً﴾؛ أي: يتأثرون به غاية التأثر ويخضعون له.

﴿١٠٨﴾ ﴿ويقولون سبحانَ ربِّنا﴾: عما لا يَليقُ بجلالِهِ مما نَسَبَهُ إليه المشركون. ﴿إنْ كان وعدُ ربِّنا﴾: بالبعث والجزاء بالأعمال، ﴿لَمَفْعولاً﴾: لا خُلْفَ فيه ولا شكَّ.

﴿١٠٩﴾ ﴿ويخرون للأذقانِ﴾؛ أي: على وجوههم، ﴿يبكونَ ويزيدُهُم﴾: القرآن ﴿خشوعاً﴾: وهٰؤلاء كالذين منَّ اللَّه عليهم من مؤمني أهل الكتاب؛ كعبد اللَّه بن سلام، وغيره ممَّن أسلم[1] في وقت النبيِّ ﷺ وبعد ذٰلك.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٠﴾ يقول تعالى لعباده: ﴿ادعوا اللَّه أوِ ادْعوا الرحمٰن﴾؛ أي: أيهما شئتم. ﴿أيًّا ما تدعوا فله الأسماءُ الحسنى﴾؛ أي: ليس له اسمٌ غير حسنٍ؛ أي: حتى ينهى عن دعائه به؛ [بل] أيُّ اسم دعوتُموه به؛ حَصَلَ به المقصودُ، والذي ينبغي أن يُدعى في كلِّ مطلوب بما يناسِبُ ذٰلك الاسم. ﴿ولا تَجْهَرْ بصلاتك﴾؛ أي: قراءتك، ﴿ولا تُخافِتْ بها﴾؛ فإنَّ في كلٍّ من الأمرين محذوراً، أمَّا الجهرُ؛ فإنَّ المشركين المكذِّبين به إذا سمعوه، سبُّوه، وسبُّوا مَنْ جاء به. وأما المخافتةُ؛ فإنَّه لا يحصُلُ المقصود لمن أراد استماعَه مع الإخفاء. ﴿وابتغ بينَ ذٰلك﴾؛ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سبيلاً﴾؛ أي: تتوسَّط فيما بينهما.

---

(١) في (ب): «ممَّن آمن».

﴿١١١﴾ ﴿وقل الحمد لله﴾: الذي له الكمالُ والثناءُ والحمدُ والمجدُ من جميع الوجوه، المنزَّه عن كلِّ آفة ونقص. ﴿الذي لم يتَّخِذْ ولداً ولم يكُن له شريكٌ في الملك﴾: بل الملكُ كلُّه لله الواحد القهار؛ فالعالم العلويُّ والسفليُّ كلُّهم مملوكون لله، ليس لأحدٍ من الملك شيء. ﴿ولم يَكُن له وليٌّ من الذُّلِّ﴾؛ أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحدٍ من المخلوقات في الأرض ولا في السماوات، ولٰكنَّه يتخذ أولياءه إحساناً منه إليهم ورحمة بهم، ﴿اللّه وليُّ الذينَ آمنوا يُخرِجُهم من الظُّلُماتِ إلى النُّور﴾. ﴿وكَبِّرْه تكبيراً﴾؛ أي: عظِّمه وأجِلَّه بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثَّناء عليه بأسمائِهِ الحسنى، وبتمجيدِهِ بأفعاله المقدَّسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وإخلاص الدِّين كلِّه له.

تم تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

وذٰلك في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ.

ونقلته من خط المؤلف بقلم الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين.